الثقافة الجديدة

فكر علمي – ثقافة تقدمية

435

كانون الثاني 2023

مقالات

صالح ياسر

محمد مستقيم

سناء عبد القادر مصطفى

مجيد إبراهيم خليل

احمد الناجي

نصوص قديمة

حمدان يوسف

نصوص مترجمة

لِن بـارامور

حوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور:

الدكتور علي عباس مراد

أدب وفن

حسب الله يحيى — صلاح جبار الحسيني

مؤيد جواد الطلال — عصام الياسري

سمير الخليل — عقيل مهدي يوسف

أمير الحلاج — زينب حداد

ليث الصندوق — ناظم مزهر

حسينة بنيان — محمد الأحمد

إسماعيل إبراهيم عبد

ملف باب أدب وفن

أقلام عراقية في الخارج

الثقافة الجديدة

فكر علمي ـ ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

إبراهيم اسماعيل — جواد الزيـــــدي

رضا الظـــــاهر — علي ابراهيـــــم

كاوة محمـــــود — مظهر محمد صالح

هــادي عزيــز علي

العدد 435

كانون الثاني 2023

هيئة التحرير

زهير الجزائري

هاشم نعمة

سوران قحطان

محرر (أدب وفن)

حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن اراء أصحابها

السعر داخل العراق : 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق : للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها ، وللمؤسسات (100) دولار ، أو ما يعادلها .
يحول المبلغ نقداً على الحساب الآتي :

بالدينار :
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار - بغداد
رقم الحساب : 11153
سويفت كود : MBIVIQBA

بالدولار :
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment - Baghdad
Account No :30721
SWIFT CODE : MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير : thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير : thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الآتي : hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت : http://althakafaaljadida.net
عنوان المجلة : بغداد - ساحة الاندلس .
والرجاء ارسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان .

رقم الايداع : 781
رقم الاعتماد : 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر :

* أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ان لا يتجاوز حجم المادة عن 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500-3000 كلمة.
* ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
* باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
* وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
* أن تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
* ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي ترد ها.
* يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
* بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يلي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
* بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور ...).
* بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، (عنوان الدراسة أو المقالة)، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور ...).

الاخراج الفني: نقاء حسب الله يحيى

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

العدد 435 كانون الثاني 2023

5 -كلمة العدد

مقالات

8 - الرفاهية الاجتماعية ... "تعاون طبقي" أم "صراع طبقي" !- جدل الثنائيات .....صالح ياسر
17 - الحرية والتاريخانية ...تصور عبد الله العروي لمفهوم الحرية ..... محمد مستقيم
22 - تأثيرات الحرب الروسية-الأوكرانية على الاقتصاد الروسي .....سناء عبد القادر مصطفى
32 - سطوة المال السياسي بين الأمس واليوم ..... مجيد إبراهيم خليل
40 - الوطن ذاكرة لا تغفو...قراءة في دور المرجعية الدينية في الحياة السياسية ..... احمد الناجي

نصوص قديمة

50 - لا اشتراكية بدون ديمقراطية، ولا ديمقراطية راسخة دون عدالة اجتماعية ..... حمدان يوسف

نصوص مترجمة

58 - لن بارامور : ماذا تقمع الرأسمالية ؟ من منظور يون ..... ترجمة : مصباح كمال

حوارات

64 - الثقافة الجديدة تحاور الاستاذ الدكتور :علي عباس مراد ..... حاوره: سوران قحطان

أدب وفن

- في البدء:
92 ⋆ ثقافة مابعد التغيير ..... حسب الله يحيى
- دراسة:
93 ⋆ الخيط الفني الرابط بين فرمان والتكرلي و (نجيب محفوظ) ..... مؤيد جواد الطلال
- في المشهد:
103 ⋆ تجليات الانزياح في ديوان (جدارمر) ..... سمير خليل
107 ⋆ الضوء والعتمة ..... أمير الحلاج

ملف أدب وفن : أقلام عراقية في الخارج / ملف خاص

109 ⋆ كارلوس اجوساكو : قصائد مترو نيويورك ..... حاتم الصكر
112 ⋆ موضوع الهجرة واللجوء الى الغرب في الرواية ..... عائد خصباك
116 ⋆ المغتربون العراقيون في الاتحاد الاوربي ولندن: معاناة مع الغربة ..... عبد القادر الدليمي
120 ⋆ العالم لا يوزع الحلوى مجاناً ..... ستار كاووش
123 ⋆ الظلال الحزينة ..... فوز حمزة
126 ⋆ تاريخان للشعر العراقي: وثيقة عن قصيدة النثر عام 1975-1976..... شاكر العيبي
128 ⋆ غيمتان تائهتان .. وعاشقة ..... خالد الحلي
129 ⋆ انت لا انت ..... شوقي عبد الأمير
130 ⋆ ما أحلى البوح اليها ..... شاكر السامر
131 ⋆ اغنية سومرية ..... سعد جاسم
132 ⋆ نصفه الآخر ..... إنهاء الياس سيفو

- نصوص:
133 * موت الدكتاتور وقيامته ..... ليث الصندوق
136 * البحر يناديني ..... حسنية بنيان

- قصة قصيرة:
137 * بائع الغناء ..... صلاح جبار الحسيني

- تشكيل:
141 * انتفاضة تشرين من بغداد الى برلين / تشكيلياً ..... عصام الياسري

- مسرح:
144 * ثنائية الفرح والحزن : في مسرحية (أمل) لجواد الاسدي ..... عقيل مهدي يوسف
147 * الفجر جرح أسود..رواية الاحلام القاتمة ..... زينب حداد

- بلغات الشعوب:
150 * الماشي ..... قصة: ري براد بري
ترجمة : ناظم مزهر

- سينما :
153 * المقاربة بين الأديان في الفلم الهندي PK ..... محمد الأحمد

- أحدث الكتب:
157 * حواشي الفهم لصيف الكتابة عند محمد خضير ..... إسماعيل إبراهيم عبد

عشرون عاماً

من الويلات والنضالات والآمال

تمرُّ على العراقيين في هذا العام، 2023، الذكرى العشرون على الاحتلال. ولا بد من الاشارة الى أن يوم انهيار الدكتاتورية ودخول القوات الأجنبية العاصمة بغداد في 9 نيسان 2003 جاء ليجسد تعقيدات وتناقضات الوضع الجديد واحتمالاته المفتوحة. فقد كان، من جانب، يوم تخليص الشعب من نير الدكتاتورية البغيضة، وفي الوقت ذاته يوم الإيذان بواقع جديد هو الاحتلال. فالحرب، وقد ادت الى انهيار النظام، جاءت ايضا بالاضطراب وانعدام الاستقرار. فقد تنكر المحتل للالتزامات التي تفرضها المعاهدات الدولية، وادى التخلي كليا عن تلك الالتزامات، في النهاية، الى انفلات الأمن وشيوع الفوضى.
كذلك لم يرافق انهيار النظام وتفكك الدولة ظهور البديل الديمقراطي الذي كان شعبنا يتطلع إليه، وإنما نشأ على أنقاضه فراغ سياسي وأمني خطير، ظلت جماهير الشعب تعاني الأمرين منه ومن تفاقمه. وخلاصة القول إن هذه النازلة التي شرعت الأبواب مفتوحة امام سلسلة الكوارث والمآسي اللاحقة، التي مرت بهم وببلدهم. وان عذابات السنين الطويلة هذه يجب ان تبقى شاخصة امام كل من راهن او سيراهن على تدخل الاجنبي لإحداث التغيير. فهذه الكوارث والازمات وان ارتبطت بتركة ومخلفات النظام البائد الثقيلة؛ لكنها، ستبقى نتاجا للآلية التي تم بها اسقاط النظام، والتي تمت عبر الحرب والاحتلال. فهي تمثل المحصلة النهائية لخيارات المحتل، ومعها القوى السياسية المتنفذة التي حكمت البلاد منذ ذلك الحين. خيارات بلورت مفرداتها الأساسية، من قبل قوى الاحتلال، في فترة المعارضة. حين تم ابتكار "نظام سياسي" خاص ليتلاءم مع الحالة العراقية بعد 2003. نظام يستند منهجه على المحاصصة الطائفية والإثنية وفي بناء وادارة مؤسسات الدولة، وعلى تغليب الهويات الفرعية على الهوية الوطنية الجامعة.

العملية السياسية...اختلالات بنيوية عميقة

لقد بينت السنين الطويلة التي انصرمت، بوضوح، ان العملية السياسية لا تواجه صعوبات جدية ولا حتى اختلالات كبيرة فحسب، بل أشرت بقوة الى انها تعاني من عطب كبير، ليس لكونها سارت ولفترة طويلة بعكس مسارها المفترض فقط، وانما اصلا لكونها انطلقت من أسس مشوهة. ان عشرين سنة من الفشل المزمن في تحقيق تطلعات غالبية العراقيين، في اقامة البديل المدني الديمقراطي، والذي يكفل حدا مقبولا من العدالة الاجتماعية، وغياب الامن والطمأنينة، وضياع الافق، وضبابية المستقبل؛ كل هذا جعل قسما غير قليل من العراقيين يجرون مقارنة بين جنة "ديمقراطية بعد 2003"، وجحيم الدكتاتور، وكانت مفاضلة بعضهم مع الاسف لصالح الاخير. ان هذه النتيجة، لن تبيض بالتأكيد نهائيا وجه النظام البائد، لكنها بالتأكيد سودت وجوه القوى السياسة المتنفذة التي راهنت على الاحتلال، والتي ادخلت العراق خلال السنوات الماضية الى هذا النفق، واوصلته الى الحضيض. ان جرداً سريعاً، يستذكر حصيلة كوارث وويلات الاحتلال وصنيعته نهج المحاصصة، سيتضمن بالإضافة الى تفشي التعصب القومي والتخندق الطائفي والانعزال الديني، تلك الصفحات السوداء من الاقتتال الطائفي؛ وويلات الإرهاب؛ وسقوط ثلث

البلاد تقريبا بيد قوى الظلام؛ وتغول المليشيات وسلاحها المنفلت. كما انه لن يتغافل بكل تأكيد، عن اضعاف الدولة وتراجع أداء مؤسساتها، واستشراء الفساد في كل مفاصلها تقريبا، حتى كاد يجهز على ما تبقى من اسسها.
إنّ العجز في أداء الدولة لوظائفها يتجلى بوضوح في مجال تقديم الخدمات الأساسية. فالقطاع الصحي على سبيل المثال، يعاني من تراجع غير مسبوق في مستوى الخدمات الصحية والطبية والعلاجية والوقائية ومع تهالك بناه التحتية. وكذلك الحال في قطاع التعليم بمستوياته المختلفة. فمع انعدام التخطيط، والمناهج القديمة والمرافق التعليمية المتهالكة وغير الملائمة، "يتمتع" العراق بأحد أفشل سياسات التربية والتعليم في المنطقة.
ثم جاء التعليم الأهلي، ليزيد الطين بلة وليفاقم فشلا على فشل. ولم تعد الامية هي الآفة التي تهدد المجتمع العراقي، بل ان مخرجات العملية التعليمية "الامية المقنعة" صارت التهديد الأكبر. ويتبين أحد اوجه ازمة العمالة عند دخول هؤلاء المؤهلين "نظريا" الى سوق العمل .وبخصوص سوق العمل، يشير بعض المختصين الى ان عدد الداخلين الى سوق العمل سنويا من العراقيين بحدود نصف مليون انسان. ومع الغياب شبه التام للقطاعات الإنتاجية، والتدهور غير المسبوق للزراعة، بعد ان يمتص التوظيف الحكومي القليل منهم ليفاقم بطالته المقنعة، سيتكدس الباقون للعمل في القطاع الخاص. وهو قطاع يسوده اقتصاد الخدمات غير المنظم. وهنا نتبين وجه آخر لأزمة العمل والعمالة في العراق.
اما على الصعيد الاجتماعي، فالفاجعة أشنع. فنتيجة للسياسات الاقتصادية التي انتهجت بعد 2003 وفق رؤية الاحتلال، وخياراته الاستراتيجية، ومشروعه الاقتصادي، والتي لاقت ترحيبا ودعما من الكثير من قوى المحاصصة؛ يشهد العراق فرزا اجتماعيا وطبقيا متناميا، حيث تتفاقم حدة التفاوتات في الدخل والثروة باستمرار. فالثروات ما برحت تتضخم وتتكدس عند حفنة من الشرائح والفئات الاجتماعية. حيث تتعاظم مداخيلها كلما تعاظمت سماتها البيروقراطية والطفيلية والكومبرادورية. بينما يتدهور المستوى المعيشي، ووتراكم حالات التهميش، ومظاهر البؤس والفقر والحرمان بشكل مريع في فئات واسعة من أبناء الشعب العراقي، خصوصا ذوي الدخل المحدود، والكادحين. من اجل إدراك جوهر المأساة، يجب ان نضيف ازمات السكن والعشوائيات والزحام والتلوث ومشاكل البيئة وغيرها الكثير.

رغم كل الكوارث.. لم تخمد شعلة الامل!

في ظل كل هذه الازمات البنيوية العميقة ومتعددة الصُعد، لم تخمد شعلة الامل. ربما خبت جذوتها بين حين وآخر، لكن بقي النضال من اجل غد أفضل يذكيها باستمرار.
ولا يمكن فصل هذه المرحلة عن عموم عملية التغيير المطلوب والتي هي عملية طويلة المدى ومعقدة، وتحتاج الى طائفة من القضايا والإجراءات من بينها قوى معبرة فعلا عن تطلعات المجتمع، قادرة على أخذ المبادرات وترجمة القيم والأفكار في الواقع العملي؛ وبلورة الصيغ التنظيمية القادرة على احداث تغيير تدريجي في ميزان القوى يسمح بالانتقال الى بناء دولة مدنية ديمقراطية عصرية على قاعدة العدالة الاجتماعية.
ربما قد تكون البلاد سائرة الى المجهول بفعل ما عمله المحتل والمتنفذون ويبدو انه ليس هناك من طريق لمنعها من الذهاب الى هناك غير الرهان على طريق آخر.. بديل آخر وهو ليس سوى البديل العابر للطوائف والقوميات والعشائر والمناطق.. الخ... انه بديل المواطنة الحقة حيث يشعر الجميع انهم متساوون في الحقوق والواجبات، ويعيشون في دولة مدنية ديمقراطية عصرية معاصرة.
في عام 2023 يتجدد الامل بعراق جديد، عراق خال من الازمات والفساد وخيبات الامل والتهميش والإقصاء والاستعصاءات الدائمة وتناسل الازمات ومكائد حيتان السلطة وحروب المتحاصصين من القوى المتنفذة.
نجدد القول: إن النكوص وقبول الامر الواقع ليس خيارنا.. نعم.. نحلم بوطن آخر سيولد ذات يوم بالتأكيد.. وسنبقى متسلحين بالأمل وبمضاء العزيمة من أجل بناء وطن يتسع لنا جميعا!.

مقالات

الرفاهية الاجتماعية..
"تعاون طبقي" أم "صراع طبقي"!
جدل الثنائيات

د. صالح ياسر

عشية نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين سادت فكرة او اطروحة بشأن بناء نموذج للرفاه واعتباره جزءاً من مشروع الحركة العمالية يسعى لتحقيق "تحول اجتماعي اشتراكي" وقد أطلق عليه بعض الباحثين "مسار السياسة الاجتماعية نحو الاشتراكية" (1).

غير أن هذه المقاربة اطلقت سجالا حول المشروع وأحدثت انقسامات شهدتها الحركة العمالية بشأن قضايا الرعاية الاجتماعية والموقف منها. وألقت هذه السجالات والانقسامات بثقلها لتنتقل من الجدل حول القضايا العملية الى القضايا المفاهيمية من قبيل الفروقات بين مفهومي "الإصلاح" و"الثورة" وبين "التعاون الطبقي" من ناحية و"الصراع الطبقي" من ناحية أخرى.

ولعل واحدة من المشكلات الأساسية في تحليل الجدل حول الرفاهية الذي ساد لعقود في الحركة العمالية هي الحفاظ على حقيقة أن الخط الفاصل الرئيسي في هذه الحركة هو بين "الإصلاح" و"الثورة". وطبيعي ان هذا الاختلاف داخل الحركة العمالية ليس جديدا بل تمتد جذوره الى فترات سابقة. لذا ثمة ضرورة هنا الى وقفة سريعة للتعرف إلى الجذور (2).

من الناحية التاريخية واجهت الحركة العمالية عشية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين معضلة يمكن صياغتها على هيئة سؤال وهو: كيف يمكن مواءمة فكرة الإشتراكية مع النشاط اليومي للناس أو باستخدام التعبير اللوكسمبورغي (نسبة الى المفكرة الماركسية روزا لوكسمبورغ): كيف يمكن تحقيق التوافق أو المواءمة بين الهدف النهائي والأهداف المرحلية العملية؟.

كما معروف، فإن هذه الإشكالية طُرحت في البداية بحذر، وذلك بعد أن نشر إدوارد برنشتاين سلسلة من المقالات تحت عنوان: قضايا الإشتراكية. وكان برنشتاين، الواقع تحت تأثير الإقتصادوية Economizm والنجاحات الانتخابية لـ حزب العمال الاشتراكي الالماني SPD قد صاغ طائفة من الاستنتاجات والتي اثارت حينذاك جدلا واسعا حولها، ويمكن الإشارة هنا الى أهمها باختصار (3).

- إن أفكار ماركس، بجانب ثرائها العلمي، تحتوي على عناصر البلانكية (نظرية الكوارث الإجتماعية) واليوتوبيا (الطوباوية).
- إن الوتيرة السريعة للتحولات الرأسمالية المعاصرة جعلت من الماركسية، باعتبارها تأويلا محددا لعموم هذه التشكيلة، غير ملائم.
- إن التغيرات التي حدثت والتطور العاصف للحركة العمالية (وخصوصاً في ألمانيا)، تسمح بالافتراض بأنه يمكن الإنتقال سلمياً من الرأسمالية الى الإشتراكية. وبعبارة أخرى، وطبقاً لتصور برنشتاين، فإن الثورة لا تصبح الوسيلة (الأداة) الضرورية المؤدية الى "الهدف النهائي"، بل يجب اختيار طريق آخر (غير عنفي).
- إن الوضع الجديد للرأسمالية، المختلف عما تصورته الماركسية، يتمثل في النزوع نحو اختفاء التناقضات في تطور الرأسمالية والى التحول نحو الديمقراطية.
- وبسبب قدرات الرأسمالية على التكيّف فإن الأوضاع الأزموية، بالمعنى الإقتصادي والاجتماعي، أصبحت أقل احتمالا ولذلك تفقد الدولة الرأسمالية طابعها الطبقي، وفي نفس الوقت يتعرض صراع الطبقات الى نوع من التلطيف، بحسب برنشتاين.

واستنادا الى الأطروحات السابقة، توصل برنشتاين الى استنتاج مفاده أنه يتوجب على الحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يتخلّى، في برنامجه، عن مطلب الثورة، وأن يركز كل طاقته على النضال طويل المدى من أجل تدعيم أو تعزيز الدور الإقتصادي والسياسي للبروليتاريا عن طريق المساهمة الواسعة في الانتخابات البرلمانية، ومن خلال النشاطات والفعاليات الجماهيرية لصالح دمقرطة الحياة - وصولاً الى المساواة التامة للبروليتاريا. وهكذا يمكن القول ان مفاهيم من قبيل الاصلاح (وليس الثورة) والتعاون الطبقي... الخ، تجد جذورها في مقاربة برنشتاين المشار إليها أعلاه.

لقد أنكر برنشتاين الجوهر الثوري للماركسية، وأعلن أن المهمة الوحيدة للحركة العمالية هي النضال في سبيل اصلاحات ترمي الى تحسين وضع العمال الاقتصادي في ظل الرأسمالية(4).

دولة الرفاهية الاجتماعية لمصلحة من؟

وبالمقابل فإنه وعشية اندلاع ازمة دولة الرفاهية او الرعاية الاجتماعية في سبعينات القرن العشرين لوحظ ان واحدة من أكثر القضايا إثارة للاهتمام - وفي نواح كثيرة - هي الحركات والشبكات الشعبية المختلفة التي سعت للدفاع عن "نموذج دولة الرفاهية الاجتماعية". وطبيعي الاشارة هنا الى ان هذه المساعي كانت تهدف إلى تقوية هذا النموذج لدفعه الى مواجهة التحديات التي تعترضه بشكل أفضل.

ويرى بعض المختصين بقضايا الرفاه أن النقاش الذي ساد في العقود الاخيرة حول الدفاع عن الرفاه العام وخصوصا بالنسبة للحركة العمالية يعتمد على فهم عميق للمشاكل والتحديات التي تطرحها دولة الرفاهية ومساراتها المتنوعة. بل ان هناك من ذهب بعيدا الى درجة أنه تم طرح ما اطلق عليه "أسس استراتيجية اشتراكية بديلة في سياسة الرفاهية" (5)، أو "مسار السياسة الاجتماعية نحو الاشتراكية"(6).

ترتكز هذه الاستراتيجية على الفهم الأساسي

والرؤية المجتمعية لماهية الرأسمالية والاشتراكية وبالتالي لدولة الرفاهية، ضمن منظور "الصراع الطبقي"، وكيف يختلف هذا المنظور عن الأساس الذي تقوم عليه دولة الرفاهية الراهنة والدفاع عنها - وهو الأساس الذي يدعى هنا بـ "التعاون الطبقي".

ومنعا لأي التباس لا بد من الاشارة الى انه وحسب صائغي هذه المقاربة فإنها لا تمنع أو لا تحد من النضالات اليومية للطبقة العاملة وقطاعات واسعة من المجتمع لصالح الرفاهية في ظل الرأسمالية.. ولكن ما يجب التركيز عليه في هذه المقاربة هو انه لا يجوز تحليل الرفاهية بطريقة محايدة، بل من منظور طبقي واضح، أي اثارة السؤال الاستراتيجي حول القوى الاجتماعية المستفيدة من هذا الخيار - أي دولة الرفاهية الاجتماعية لمصلحة من؟.

في كثير من الأحيان تهمل اثناء النقاشات حقيقة أن "الإصلاح مقابل الثورة" انما يشير أساسا إلى استراتيجيات مختلفة لتحقيق ما ينظر إليه على أنه الهدف النهائي نفسه: أي الاشتراكية، فبدون هدف مشترك، فإن الطرف المعاكس هو في الواقع لا معنى له نسبياً. من الناحية التاريخية، وخلال فترات طويلة من "طفولة وشباب" الحركة العمالية، وقبل كل شيء، الديمقراطية الاجتماعية، كان يمكن لـ "الإصلاحيين" و"الثوريين"، على الرغم من تناقضاتهم التكتيكية، أن يجتمعوا في نفس الأحزاب ومنظمات العمال والنقابات على نفس الاهداف الاستراتيجية. فقد كان للعمال نفس الأهداف - وإن كانت هناك طرق مختلفة للوصول إلى تحقيقها.

وعلى أية حال، فإنه وفي ضوء هذا الفهم التاريخي للتناقضات داخل الحركة العمالية، أصبحت دولة الرفاهية بمثابة استراتيجية "إصلاحية" للديمقراطية الاجتماعية. من الناحية النظرية، يتم إثبات هذه الفكرة من خلال ان الرفاهية هي عبارة عن نزع أو فك صفة التسليع "De-commodification" التي طرحها عالم الاجتماع الدانماركي، غوستا اسبنغ- اندرسن Gosta Esping-Andersen في عمله التأسيسي "العوالم الثلاثة لرأسمالية الرفاه"(7). فمن المعروف ان إسبينغ-أندرسن هو الذي اشار الى أن دولة الرفاهية الاجتماعية هي عبارة عن شكل من أشكال "إزالة او فك التسليع "De-commodification

وقد حقق النموذج الاسكندنافي لدولة الرفاه، درجة عالية من إلغاء او ازالة التسليع(8).

"De-commodification" أكثر من جميع الأنظمة الرأسمالية للرعاية الاجتماعية. هذا مع العلم ان تصنيف (نمذجةEsping-Andersen تعرّض، على مرّ السنين، لنقدٍ قاس وقام ، في الحقيقة ، بتحديثه وصقله في محاولة لجعله أكثر دقة (9). ومع ذلك، فإن الانتقادات المستمرة لفكرة إزالة التسليع

"De-commodification" ذاتها توشي بغياب واضح(10). غير أن المشكلة الجوهرية، من وجهة نظر اشتراكية، هي بالضبط الأساس لتوصيف أنظمة الرفاهية، وتتمثل بفكرة إزالة التسليع ذاتها، التي تخاطر بتعتيم رؤية حدود دولة الرفاهية الحقيقية.

ولإخفاء القصة الطويلة، فإن المشكلة الأساسية هي أن إلغاء التسليع الذي ينسبه-Esping Andersen إلى دولة الرفاهية لا ينطبق إلا على مجال التداول (السوق) - ولكنه يفترض أيضا في نفس الوقت درجة متزايدة من تسليع مجال الإنتاج.

وكما يحذّر Esping-Andersen نفسه، فإن الشرط المسبق الأساسي لنموذج الرفاه الديمقراطي الاجتماعي هو "العمالة الكاملة" (العمل بأجر). كما أن النموذج الاسكندنافي مثلا ليس نموذج "رفاهية عامة" بقدر ما هو نموذج "رفاهية قائمة على الأجور" (11). وبصرف النظر عن العمل المأجور فإن الرفاه الاجتماعي والدعم الاجتماعي سيكونان مناقضين تماما لمنطق النظام الرأسمالي، وبالتالي لن يتم تحقيقه أبدا على المستوى

المجتمعي.
ان نظام الرفاه الاجتماعي الديموقـــراطي في مقاربة إسبينغ-أندرسن Esping-Andersen هو مثال آخر على هذا التقليد. ويرى احد الباحثين Ankarlooان هذا هو الأســـاس الانطولوجي والنظري لما سميّ على نحو خاطئ، بنظره، بـ الإصلاحية - reformism ولكنه يعتقد انه من الصحـيح ان يسـمى "التعاون الطبقـي" (12). وانطلاقا من هذه المقاربـة اعتبـر Ankarloo دولة الرفاهية بـــأنها بمثابـــة طريق التعاون الطبقـي إلى الاشـتراكية - أو ما أسـماه مسـار السياســة الاجتماعية إلى الاشـتراكية(13). ان السـمة الأكثر أهمية من الناحـية التاريخية في "مسار الطريق الاجتماعي نحـو الاشـتراكية" هي الرؤية التي تتضمن فكرة فحـــــواها أن الاشتراكية تنمو "من داخل الرأسمالية". كانت الفكرة الأساسـية هي إيجاد "نموذج عقـلاني" للتنمية الاجتماعية، حـــيث يمكن التوصل - بحسـب هذا المســار - إلى "توافق" في الآراء حـــول "الأهداف الاشـــتراكية" مثل العدالة والمساواة والحـرية والديمقراطية في المجتمع و "التعاون مع رأس المال". وقـد لخص احـد الباحثين هذه الفكرة مشيرا الى انه يمكن تحقيق الاشـــتراكية تدريجيا دون مواجهة، جنبـــا إلى جنـب مـع رأس المـال وليس ضده. وفـي هذا الصدد علّق عالم الاجتماع الســـــــويدي البروفسور والتر كوربـي Walter Korpi في عام 1978 حـــول النموذج الســـويدي للرفاه قـائلا: "في السـويد، لن يتم التخلص التدريجي من الرأسمالية من خلال الثورة، ولكن ربما من خلال المسار الأكثر ثباتا، أي من خلال الإحالة إلى الأطراف المعنية" (14)، والمقـــصود هنا "الاطراف المعنية"، العمال وارباب العمل.
ان نقيض هذه المقاربـة بالطبـع، وفقـاً لرؤية ماركس، هو "الصراع الطبقي".
ومع ذلك، فان هذا لا يعني موقـفا ثوريا بشـكل عام، ولكن فقط لأن الرأسمالية هي في الأسـاس أسـلوب إنتاج قـائم على علاقـات اجتماعية متناقـضة واسـتغلالية وأنه لا يمكن بـالتالي وصف الاشـتراكية بـأنها أكثر عقـلانية أو "عادلة". في تحليل للرأسمالية، حتى في شكل دولـة الرفاهيـة، لا يمكن فهم نظريـة ماركس للصراع الطبقـــي على أنها أفضل شـــيء "يحدث" أو كـ "موقـف متشـدد" على الاقـل، ولكن لأن الرأسمالية - كنظام وبسبب طبـيعة علاقـــات الانتاج الســـائدة فيه - تقـــوم على الصراع الطبقـــي الناجم عن وجود طبقـــات متناحرة.
في حين ان الاشتراكية، كنظام، تقوم على إلغاء الطبقات، اي إلغاء اساس الصراع الطبقـي. ثم ان الاشـتراكية لا يمكن تحقيقـها إلا من خلال الصراع ضد رأس المال ومنطق علاقـــاته الناظمة. وهذا هو الاختلاف بـــين "التعاون الطبقي" و "الصراع الطبقـي" وبـالتالي فهو ما يعبر اليوم عن التناقض الحقيقي بشأن قضية الرفاهية في الحـركات العمالية الناشـطة في البلدان الرأسمالية المتطورة.
كان الشرط الأساسي الحاسم للتعاون الطبقـي مع رأس المال في "مسار السياسة الاجتماعية نحو الاشتراكية" هو تخلي الحركة العمالية عن اشـــتراط الملكية الجماعية - وهو ما يعني بالأساس الحفاظ على العمل المأجور والشكل السـلعي للإنتاج. ورغم ذلك التحـديد فان الاجتماعيين الديمقراطيين في بـعض البـلدان (السـويد مثلا) أكدوا على "ان مسـألة الملكية والاسـتيلاء على وسـائل الإنتاج لم تلعب أبـدا دورا كبـــــيرا" (15) في نموذج الرفاهية الاجتماعية. وبـــدلاً من ذلك، كان "التعاون الطبقـي" قـائما على حقيقـة أن الإنتاج سـيكون مملوكا للقـطاع الخاص أساسـا، ويتم التركيز على "الرفاه" وعلى "التنشـئة الاجتماعية"، ودور الدولة، والاستهلاك "توزيع الثروة".
يعني ذلك ان تصحيحـات السـوق أصبحـت السمة المميزة لهذا المسار في محـاولة لتحقيق "أهداف الاشتراكية"! وهكذا أصبح المشروع يسـعى للتقـليل من التفاوتات الاقـتصادية التي

تنشأ في السوق، من خلال الدولة، ولكن ليس لإلغائها (أي التفاوتات) والغاء أسسها في إنتاج السلع. هذا مع العلم ان "مسار السياسة الاجتماعية إلى الاشتراكية" يستند إلى أفكار حول الاقتصاد والمجتمع الطبقي. وهكذا، فإن "التنشئة الاجتماعية"، كما وصفها أحد الباحثين، قد حدثت عن "طريق الضرائب العالية" (16). وهذا هو الفهم الأساسي لماهية السوق والذي يراه أنصاره انه "رجل سيء ولكنه خادم جيد ".

وتعني الملاحظات أعلاه أن مقاربة "التعاون الطبقي" تنظر إلى الدولة على إنها علاقة اجتماعية طبقية موازنة للسوق غير العادلة (17). وبالنظر إلى أن الرؤية هذه تأسست على التعاون الطبقي، فإن التنشئة الاجتماعية للاستهلاك والسوق جاءت من خلال القطاع العام.

إن التوسع في إنتاج واستهلاك عام معين، يمكن أن يعمل كموازنة لرأس المال الخاص في المجالات الرئيسية، بينما في نفس الوقت يمكن للتمويل الضريبي الجماعي لقطاع الرعاية الاجتماعية أن يضمن جزئياً حصول الفرد على الرعاية، بغض النظر عن قدرته الاستهلاكية في السوق. لكن وقبل كل شيء، خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، تم تصميم السياسة الاجتماعية في بلدان الرفاهية الاجتماعية بشكل متزايد على أساس "الأمن القياسي" و"مبدأ فقدان الدخل". إن هذا المبدأ - على الرغم من أنه لم يكن غير مبدئي في البداية في الحركة العمالية - فقد تم الإعتراف به على نطاق واسع لقدرته على خلق الولاء للنظام حتى من "الطبقة الوسطى" والطبقة البرجوازية.

وهكذا كان من خلال توسيع القطاع العام، خاصة في مجال الاستهلاك: من خلال الضرائب والمنح، حيث يتم بناء نوع من التوازن مع السوق وتنفيذ "الاهداف الاشتراكية". وفي الوقت نفسه، تم استخدام المدخرات العامة لدعم القطاع الخاص بالاستثمارات ورؤوس الأموال.

خلاصة القول، إن "مسار السياسة الاجتماعية نحو الاشتراكية"، وفقاً لمؤيديه، يشكل استراتيجية لتحقيق "الأهداف الاشتراكية" مثل المساواة والحرية وتقرير المصير؛ ولكنها استراتيجية تقوم على التعاون الطبقي، والأمة والمواطنة الكاملة، وحيث تكون دولة الرفاهية الاجتماعية أساسية لتصحيح السوق، وإضفاء طابع اجتماعي على أجزاء كبيرة من الاستهلاك وتحقيق الديمقراطية الاجتماعية.

الحاجة الى مقاربة ماركسية أصيلة لدولة الرعاية الاجتماعية

من المعروف ان النقد الماركسي الجديد لدولة الرفاهية قد تبلور أساسا وبقوة خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، بعد الازمة التي واجهتها دولة الرفاه ذاتها. يرى بعض الباحثين ان المسار الفكري الذي كان شائعاً في وقت سابق في اوساط الماركسيين هو رؤية دولة الرفاه باعتبارها "رشوة" من الدولة لتهدئة تطلعات العمال الاشتراكية والثورية. في السابق كان ينظر إلى دولة الرفاه على أنها "أفيون" مهدئ للناس (الإصلاحية) - ما قلل من نشاطهم الثوري التغييري. تعتمد هذه الفكرة بشكل كبير على تطور الحركة العمالية خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ان الثلاثين سنة من الرفاهية الممتدة حتى السبعينات من القرن العشرين (او ما تسمى عادة "الثلاثين عاما الذهبية") أدت في نهاية المطاف إلى نشاط متعاظم للطبقات العاملة بالإضافة إلى تبلور رؤى مجتمعية راديكالية.

غير انه وبصعود الليبراليين الجدد، شهدت العقود التالية ركودا وتراجعا نسبيا للرفاهية وللنضالات المتعلقة بالأجور.

كان مسار الفكر الهام الآخر في السبعينات يتمثل بتلك الفكرة القائلة أن دولة الرفاهية

واجهت ازمة مالية نجمت عن وجود تناقض بين "وظيفة الشرعية" للرفاهية (التي ستحث الطبقة العاملة على قبول الرأسمالية) و"وظيفة التراكم" الخاصة بها (الحاجة إلى رأس المال لزيادة إنتاج فائض القيمة) (18). وكانت الفكرة هنا هي أنه من أجل إضفاء الشرعية على الرأسمالية، يجب توسيع الرعاية الاجتماعية بطريقة تجعل تراكم رأس المال يتوسع في نهاية المطاف - وتتجلى الأزمة نفسها عندئذ إما في الافتقار إلى الشرعية في رأسمالية الرفاه أو في انهيار مالي يهدد نظاماً يتطلب رأس مال أكثر من أي وقت مضى - ولكن مما يزيد من صعوبة رفعه أو كليهما.

على المستوى النظري، هناك جزء يتحدث عن هذا المنظور، لكن كوصفة لرأسمالية الرفاهية الاجتماعية لبعض البلدان الاسكندنافية، بحيث يبدو أنه غريب بعض الشيء عن الواقع، اذ ان الميزانية العامة تؤثر بقوة.

كما أن بعض عمليات خصخصة الرفاه قد تعرضت ، في جميع الاحوال الى هبوط في تراكم رأس المال الذي حدث منذ سبعينات القرن العشرين ، وبالتالي هبوط وتائر النمو الاقتصادي للرأسمالية على المستوى العالمي، ومن بينها الدول الاسكندنافية .

في ضوء النجاحات النسبية التي حققتها دولة الرفاهية الاجتماعية من حيث معادلة الدخل والضمان الاجتماعي لأعداد متزايدة من السكان العاملين ، فإن الانتقاد من "اليسار الجديد" باتجاه دولة الرفاهية من السبعينيات وما بعدها جاء في المقام الأول مركزا على "قمع دولة الرفاهية"، وعادة ما يتم وضعه على هامش المجتمع: الخدمات الاجتماعية، ورعاية السجون، والإدمان على المخدرات والكحول.

كان هناك الكثير من الانتقاد الجيد والموجه، ولكن المشكلة الحاسمة، بعد كل ذلك، هي أن النقد الماركسي لرأسمالية الرفاهية الاجتماعية جاء لتمريره إلى هوامش المجتمع، وليس الى جوهره: التهميش، وليس الفقر النسبي، والسلطة مقابل عجز السلطة، وليس التركيز على الاستغلال، وهي العناصر التي أصبحت تمثل جوهر النقد. لقد أصبحت القدرة الكلية على النقد القائم لتطور دولة الرفاهية الاجتماعية، في اطار غياب البدائل الماركسية الناضجة، أكثر صعوبة. وبدلا من ذلك، كانت تدور حول كيفية انهيار دولة الرفاه الاجتماعي، والتخلي عنها، والتآمر ضدها وما إلى ذلك.

لا ينظر إلى مشاكل الرفاه على أنها قيود متأصلة في دولة الرفاهية، ولكن كدليل على التخلي عن دولة الرفاه. لا يمكن لأحزاب الحركة العمالية والنقابات العمالية، إلا أن تكرر في تحليلها "المسار الاجتماعي السياسي نحو الاشتراكية" - ولكن لا تتجاوزه.

كما أن هذا المنظور يخاطر اليوم بالرهان على قضيتين: الاولى تلك التي تبالغ في نجاحات دولة الرفاه السابقة من الناحية الاشتراكية (علما ان بلدان الرفاهية ومنها البلدان الاسكندنافية مثلا لم تكن يوما اشتراكية أبداً). والثانية المبالغة في المساواة - ولن تكون كذلك أبداً، بل فقط أقل تفاوتاً من البلدان الأخرى - وبالتالي فقد بالغت جزئياً في نطاق التغييرات المعاصرة في دولة الرفاهية الاجتماعية.

وعلى الرغم من وجود عدد من التغييرات الواضحة في تصميم نموذج الرفاهية (الانفاق على التعليم، ونظام التقاعد الجديد، والتغييرات النقدية، وما إلى ذلك)، فإن أبحاث الرفاه متفقة - إلى حد ما - على أن التغييرات في مبادئ دولة الرفاه الاجتماعي وتنظيمها كانت محدودة بشكل ملحوظ. وليس هناك الكثير مما يوحي بأن نماذج الرفاهية المختلفة أصبحت متشابهة أكثر فأكثر، بل العكس هو الصحيح.

وباختصار، لا ينبغي توجيه انتقاد دولة الرفاهية إلى القضايا الهامشية، ولا أن يتم تهميش أهمية العيوب التي تكشف عنها التغيرات الاجتماعية اليوم. إن التحدي النظري والعملي للحركة العمالية في بلدان الرفاهية

اليوم - في مجمله - هو أن تكون هذه الحركة قادرة على دمج الدفاع الفوري عن تقدم الرفاه في الرأسمالية بمنظور نقدي يتجاوز إطار الرأسمالية.

وهناك حاجة إلى تغيير التركيز، فضلا عن رؤية أوضح لتطور الرفاهية والخطوط التقسيمية الحقيقية والعملية للانقسام في الحركة العمالية بين "التعاون الطبقي" و"الصراع الطبقي". والسؤال الحاسم من وجهة النظر الماركسية هو ليس في ما إذا كان نموذج الرفاه وخاصة المتبنى من طرف الاجتماعيين الديمقراطيين ينجو أم لا وهو يواجه ازمته، بل هل تطابق ذلك مع الأهداف الاشتراكية ام لا. هنا، لا يبدو الأمر واضحا، ففي المقام الأول يجب ان نتذكر دوما ان دولة الرفاهية هي دولة رأسمالية، ولكن بدلاً من ذلك، فإن الحقيقة الأكثر إشكالية هي أن وراء هذه المسألة تكمن كيفية رؤية التعاون الطبقي المهيمن، المستند الى "المساومة التاريخية" التي حصلت في دول الرفاه الاجتماعي بين العمل ورأس المال. إن الفهم الأساسي للفوارق الملموسة بين "التعاون الطبقي" و"الصراع الطبقي"، بالإضافة إلى التحليلات التاريخية للسياسة العملية للرفاهية، من شأنه أن يعزز هنا المنظورات الماركسية في هذه القضية.

ولكن هناك عمل كبير ما زال يتعين القيام به، فالانقسام الحاصل متمثلا في "الإصلاح مقابل الثورة" هو، اليوم، عقبة حاسمة بالنسبة للتحليل الماركسي وفي الحركة العمالية بشأن قضايا الرفاهية الاجتماعية. وفي الوقت الحاضر، حاول "اليسار الثوري" ويحاول عادة ان يحل هذه المشكلة عن طريق رفض السياسة الاجتماعية بشكل كامل باعتبارها غير مهمة بل وضارة بالهدف النهائي الاشتراكي، الأمر الذي ترك المجال مفتوحا أمام "الإصلاحيين" لقيادة الحركة العمالية في قضايا الرعاية الاجتماعية.

وكما جرت الاشارة سابقا الى الأزمة في قضية الرفاهية: إن دولة الرفاهية ليست اشتراكية، لكن إصلاحات الرفاهية التي روجت لها الطبقات العاملة وناضلت من أجلها تشكل في العديد من البلدان مجالات إستراتيجية مهمة لتعبئة وتوحيد الحركة العمالية بأكملها، هذه الحركة التي تشكل الشرط المهم لتحقيق الاشتراكية.

وبالتالي، فإن سياسة الرعاية أو الرفاهية الاجتماعية ليست الهدف النهائي، ولا حتى جزءا من الهدف النهائي ولكن على الأكثر طريقة أو سياسة تستخدمها الطبقة العاملة وحلفاؤها لتعزيز مواقعها، اجتماعيا واقتصاديا، في المعركة الضرورية ضد منطق رأس المال.

ولا بد من التأكيد هنا على أن النضال من أجل الرفاهية الاجتماعية في بلدان الرفاه هو في غاية الأهمية بالنسبة للحركة العمالية، وبالتالي لا يمكن رفضه.

منذ أوائل الثمانينات من القرن العشرين والعالم الرأسمالي يعيش في حقبة الهجوم النيوليبرالي مقابل حركة عمالية ضعيفة نتيجة جملة عوامل موضوعية وذاتية، لذا يبدو ان الانتقال الى الاشتراكية الآن يبدو أبعد مما كان عليه في حُقب سابقة.

لكن ولهذا السبب بالتحديد، من المهم أيضا ألا تُخلق أوهام ولا يأس بشأن سياسة الرفاهية ودورها في النضال من أجل الاشتراكية. ومن المهم كذلك لممارسة سياسة ناجحة في الحركة العمالية والاشتراكية أن تدعم باستمرار وبصورة لا لبس فيها النضال الشرعي للطبقة العاملة وأغلبية الناس لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من "الرفاهية"، ولكن في نفس الوقت يجب تجنب اية أوهام من قبيل الرؤية بشأن "التعاون الطبقي" الذي علق طويلا في الحركة العمالية.

باختصار، يتمثل التحدي الاستراتيجي اليوم في حث إصلاحات الرفاه الاجتماعي على التحول من كونها، أي الاصلاحات، شيئا يتم

القيام به كبديل عن الاشتراكية، الى أن تصبح شيئا يجري القيام به من أجل الاشتراكية. وبمزيد من الوضوح، من الضروري رؤية الخط الفاصل في الحركة العمالية من حيث "التعاون الطبقي" مقابل "الصراع الطبقي". لقد عبرت روزا لوكسمبورغ عن هذه النقطة الرئيسية في عملها الموسوم "إصلاح اجتماعي ام ثورة؟"

بالقول: ان من يتحدث عن أسلوب الإصلاح القانوني بدلاً من ذلك وعلى النقيض من الاستيلاء السياسي على السلطة فانه في الواقع لا يختار الاختلال الاجتماعي مسارا أكثر هدوءا وأكثر أمانا وأبطأ لنفس الهدف، ولكن بدلا من ذلك يختار هدفا آخر، وهو حدوث تغييرات غير مهمة في النظام الاجتماعي القديم بدلا من نظام اجتماعي جديد كليا (19).

وهنا تطرح على جدول الاعمال قضية الهيمنة والسلطة والاستيلاء عليها. والسؤال المطروح هو: كيف يمكن تحويل الرفاهية الاجتماعية من كونها شيئا يتم القيام به كبديل عن الاشتراكية (ليس خيارا مؤديا الى مجتمع خال من الاستغلال)، الى ان تصبح شيئًا يجري القيام به من أجل الاشتراكية (طريقا يمهد الى الاشتراكية)؟... انه سؤال استراتيجي تواجهه الطبقة العاملة وهي تسعى لإقامة بديلها الخالي من العسف والاستغلال الطبقي، والقائم على العدالة الاجتماعية وديمقراطية المنتجين الحقيقيين وخالقي الثروة الاجتماعية.

بمعنى انه بديل يتجاوز حدود الرأسمالية كنظام اقتصادي اجتماعي قائم على الاستغلال، والانتقال من مملكة الضرورة ومنطق السوق وصنمية السلعة، الى مملكة الحرية.

الهوامش:

(1) لمزيد من التفاصيل قارن:

Ankarloo, Daniel (2008), "Valfardens ontology Perspektiv pa skiljelinjerna inom arbetarrarelsen i valfardsfragan", Manus for konferens: Arbetarrorelsens forskarnatverk 17-18 maj, Stockholm.

(2) عالجتُ هذه الاختلافات بمزيد من التفصيل في عمل آخر. للمزيد من التفاصيل قارن، صالح ياسر حسن، روزا لوكسمبورغ وإشكاليات التحليل الاقتصادي للرأسمالية (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2009).

(3) لمزيد من التفاصيل قارن: إدوارد برنشتاين، مبادئ الإشتراكية. قضايا الإشتراكية الديمقراطية. لفوف 1901 (باللغة البولندية).

(4) قامت روزا لوكسمبورغ بإنجاز هذه المهمة من خلال نشرها سلسلة مقالات صدرت خلال الفترة من 21 الى 28 أيلول/ 1898 على صفحات جريدة Leipziger Volkszeitung. لمزيد من التفاصيل أنظر

روزا لوكسمبورغ، إصلاح إجتماعي أم ثورة؟. كتابات مختارة، المجلد الأول، وارشو 1959 : باللغة البولندية). والكتاب مترجم الى الانكليزية كذلك، انظر (

Rosa Luxemburg (2007), "Reform or Revolution and The Mass Strike". Chicago: Haymarket Books.

(5) Ankarloo, D. (2005), "Kris i valfardsfragan: vanstern, valf?rden och socialismen", Nixon forlag, Linkoping.

(6) لمزيد من التفاصيل قارن:

Daniel Ankarloo, Valfardens ontology Perspektiv ..., op, cit.

(7) لمزيد من التفاصيل قارن:

Esping-Andersen, Gosta (1990), The Three Worlds of Welfare Capitalism, Polity Press, Cambridge.وفي كتابه اعلاه ، أكد Esping-Andersen على أنه ينبغي النظر إلى إزالة التسليع على أنها إمكانية عيش المرء مستقلا عن قوى السوق البحتة. ولكن بما أن فكرة "قوى السوق الخالصة" هي في حد ذاتها مجرد خيال آيديولوجي، وفي ضوء الوظيفة الحقيقية للرعاية الاجتماعية (التأمين الاجتماعي) في الرأسمالية حيث لا تكون أجورا، فأن بعض الباحثين يشددون على أن فك التسليع هو مصدر رزق الفرد بغض النظر عن العمل المأجور.

لمزيد من التفاصيل قارن:

Ankarloo, Daniel (2008), "Valfardens ontology ...", op, cit.

بالمقابل هناك من ينظر نظرة انتقادية لهذه الاشكالية. قارن على سبيل المثال:

Room, Graham (2000), "Commodification and decommodification: a developmental critique", Policy and Politics, V. 28, N. 3, July, pp. 331-351.

(8) Esping-Andersen, Gasta (1990), The Three Worlds ..., op, cit.

(9) وقد قام اندرسن (مع باحثين اخرين) بذلك بعد 12 عاما من صدور كتابه الأساسي الذي جرت الإشارة اليه. ولمزيد من التفاصيل قارن:

Esping-Andersen, Gasta; Gallie, Duncan; Hemerijck, Anton; Myles, John (2002). "Why we need a new welfare state". New York: Oxford University Press.

(10) توجد هنا استثناءات في هذا المجال. لمزيد من التفاصيل قارن:

B. Fine (2002), "The World of Consumption", 2:a uppl Routledge, kap. 10.

(11) D. Ankarloo (2004), "Den svenska modellen och globaliseringen", L. Plantin & F. Magnusson (red) "M?ngfald och f?r?ndring i socialt arbete", Studentlitteratur.

(12) Comp: D. Ankarloo (2005), Kris i valfardsfragan..., op cit.

(13)D. Ankarloo (2005), Kris I valfardsfragan..., op. Cit.

(14) Walter Korpi (1979), "The Working Class in Welfare Capitalism: Work, Unions and Politics in Sweden", (London and Boston: Routledge & Kegan Paul).

(15) ورد الاقتباس عند Sjoberg.

لمزيد من التفاصيل انظر:

Sjoberg, Stefan (2003)"Lantagarfondsfrogan - en hegemonisk vandpunkt. En marxistisk analys", Uppsala universitet, s. 135.

(16) Gunnarsson, G (1971), "Socialdemokratins idéarv, utopism, marxism, socialism". Tiden, s. 151.

(17) يجادل Esping-Andersen و Korpi وغيرهما من "منظري مصادر السلطة" عن حالة الرفاهية ، "الانقسام ضد الأسواق" باعتباره الأساس الفعلي لنظام الرفاه الاجتماعي الديمقراطي.

(18) انظر على سبيل المثال:

Sjostrom, K. (1979), "Socialpolitik eller socialism? ", Arkiv, s. 184; O'Connor, J. (1973). "The Fiscal Crisis of the State....", op, cit.; Gough, Ian (1979), "The Political Economy ...", op, cit.

(19) Luxemburg, R. (1966), "Jag var, jag ar, jag blir" (I urval av Bo Gustavsson), Bo Cavefors f?rlag, s. 83.

الحرية والتاريخانية

تصور عبد الله العروي لمفهوم الحرية

محمد مستقيم

محمد مستقيم من مواليد مدينة الجديدة - المغرب، استاذ فلسفة متقاعد، اهتماماته الثقافية: الكتابة الشعرية - السرديات - البحث الفلسفي - النقد الثقافي.
له العديد من الانشطة الجمعوية .
اصدر العديد من الكتب الفردية والجماعية ونشر العديد من المقالات في مختلف الجرائد والمجلات المغربية والعربية الورقية والإلكترونية.

يكتسي مفهوم الحرية أهمية مركزية في المشروع الفكري التاريخاني عند المؤرخ والمفكر المغربي عبد الله العروي بل هي من المفاهيم المنهجية التأصيلية التي تبوأت مكانة أساس في سلسلة المفاهيم التي خصصها لتعميق النظر في منطق الفكر الحديث الذي هو منطق النقد والمساءلة والمراجعات التي لابد منها للخروج من حالة التأخر التاريخي التي تعاني منه المجتمعات العربية المعاصرة وقد رفع هذا المسعى إلى درجة الثورة الكوبير نيكية التي لا يكفي الكلام عليها بل يجب الكلام بها (1).

هذه الورقة محاولة لموضعة هذا المفهوم ضمن المشروع الفكري التاريخاني الذي بدأ مع الكتاب العمدة "الإيديولوجيا العربية المعاصرة" في نهاية ستينات القرن العشرين.

أصدر عبد الله العروي سلسلة من المفاهيم تضمنت خمسة كتب خلال 16 سنة بدءا من "مفهوم الأدلوجة"1980، و"مفهوم الحرية" و"مفهوم الدولة" 1981. و"مفهوم التاريخ" (في جزئين) 1992، و"مفهوم العقل" 1996. يقول العروي في كتاب مفهوم العقل: "إن ما كتبته إلى الآن يمثل فصولا من مؤلف واحد هو "مفهوم الحداثة"، ويستطيع القارئ النبيه أن يجتهد لنفسه ويتنبأ بما سيقال في الفصول الأخيرة، إذ هو أمعن النظر في الأولى" (2) . للإشارة فإن اهتمام العروي بالمفاهيم ونقدها ليس شيئا جديدا في مشروعه الفكري أو كما يقال مرحلة جديدة في تطور فكره، ففي كتاب الإيديولوجيا المعاصرة يقول:" فحينما نعي حق الوعي أن تحليل المفاهيم هو وسيلة لتنوير الذهن وتقويم المنطق نكون قد قطعنا شوطا بعيدا نحو التقريب بين الفكر والعمل، أو نحو الرفع من مردودية نشاطنا اليومي، حيث إن الكلمات تجسد مجالات مفهومية تشير إلى تجارب والتجارب لا تترجم إلى الواقع الاجتماعي إلا إذا تم التعبير عنها بطرق مستساغة لدى الجميع"(3). معنى ذلك أن هذه المفاهيم تجد أصولها في كتاب الإيديولوجيا العربية الذي يعد النواة الأولى للمشروع التاريخاني في الفكر العربي المعاصر، كما أن هذا كلام يدل على أن هذه المفاهيم متداخلة فيما بينها، ولا سبيل إلى إدراك أحدها دون الأخرى، فكل مفهوم يحيل على مفهوم آخر، مادام الهدف الذي يسعى إليه المؤلف هو تشخيص الأعطاب التي أصابت المجتمعات العربية المعاصرة بسبب التأخر التاريخي الذي طال أمده والذي لا سبيل للخروج منه سوى بالانتقال إلى منطق العصر الحديث بدل الاستمرار في العيش وفق المنطق التقليدي.

يعتبر العروي بأن النقد المفاهيمي يهدف إلى التخلص من الأسئلة الزائفة التي يعاني منها الفكر والمجتمع العربيين، وهي الأسئلة التي تؤدي إلى مفارقات كثيرة التباعد القائم بين الواقع والذهنية السائدة. لذلك ينبغي العمل على تدقيق الكلمات والمصطلحات والمفاهيم والكشف عن تناقضاتها ومعانيها الضائعة. يقول الدكتور كمال عبد اللطيف في كتابه" أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب":" إن وظيفة كشف المفارقات تتجاوز الموقف النقدي المجرد في اتجاه مواقف أكثر إيجابية، حيث تعمل كتب المفاهيم على تأسيس تصورات ومعطيات نظرية عامة بهدف الدفاع عن مقتضيات التوجيه التاريخاني الذي يرى في البلبلة الحاصلة في الفكر السياسي العربي بمجرد تردد مكرس للتقليد وخادم له، أما الموقف المطلوب في هذا الباب فهو العمل بأساليب متعددة على توطين مفاهيم الفكر السياسي المعاصر في ثقافتنا، بالصورة التي تعمق أوليات الحداثة، وتعد الوسائل التي تمكننا من انخراط فاعل في العالم المعاصر"(4). يقول العروي في مفهوم الحرية:" نحن لا نبحث في مفاهيم مجردة لا يحددها زمان ولامكان، بل نبحث في مفاهيم تستعملها جماعة قومية معاصرة هي الجماعة العربية"(5).

يعرف العروي الحرية بأنها شعار ومفهوم وتجربة:

- كشعار تهتف به المجتمعات، فيرفعه جميع الناس بدءا من الطفل الصغير داخل أسرته، والمرأة أمام زوجها وأفراد العائلة ككل من اصغر سلطة على الذي أكبر منه، فكلهم يلفظون كلمة أنا حر، فشعار الحرية يرفعه كل فرد ليعبر عن إرادته ليكون حرا بالفعل. اي أن الحرية هنا وسيلة للتعبير عن تحقيق هدف معين . لكن حسب العروي هناك دوافع وأهداف تدفع الفرد لرفع هذا الشعار ليحقق ما بداخله، فالشعار يخفي أهدافا متباينة، كأنه يطرح كمسلمة لا تحتاج إلى تبرير أو تأصيل، فالشعار هنا يكفي التعبير عنه بالكلام.(6).

- كمفهوم: فالحرية هنا لا تحد بفرد ما أو بطبقة ما بل الحرية بالنسبة للإنسانية جمعاء. ولهذا يطرح العروي مفهوم الفلاسفة العرب والمعاصرين لمفهوم الحرية وفلاسفة الماضي الذين يتصورونها أنها قدرة واستطاعة وكسب، فالحرية شيء مطلق ولهذا فالبحث الفلسفي وعلى حسب العروي لا يبرهن ولا يمكن أن يبرهن بحال عن الحرية الواقعية والتي هي المراد في بحث العروي عن مفهوم الحرية. فهو يرى أن

هذه التحليلات الفلسفية لا تساوي شيئا عند القارئ العربي في ظروفه القاسية فالحرية هنا ليست موجودة في الثقافة العربية الإسلامية (7).
- كتجربة. فالعروي يتحدث عن الحرية الواقعية النابعة من واقع الفرد وجراء ظروفه القاسية فالإنسان يعيش الحرية على حسب تجربته الواقعية، إما متحررا وإما مستعبدا، فالفرد الاجتماعي يعيش الحرية إما كتحرر وانعتقا وإما كخضوع وعبودية. وهذا معناه أن الفرد يعيش الحرية لكن الحرية كعمل تحرري أي ممارسة أو فقط شعار يحمله ويريد منه التحقق، فيكون بهذا تحت ضغط وعبودية، فكلما كانت لدى الفرد القدرة على المواجهة كسب حريته وكلما ضعف وعجز ضاعت حريته.
لقد طرح العروي مسألة الحرية في المجتمع العربي المعاصر بمعنيها الثلاث كشعار وكمفهوم وكتجربة، لأن الدعوة للحرية "ناتجة قبل كل شيء عن حاجة متولدة في المجتمع العربي".
إن المجتمع العربي في حاجة لرفع هذا الشعار وممارسة هذه التجربة وتحليل المفهوم لأن الحرية الحقيقية التي يبحث عنها العروي هي الحرية السياسية والاجتماعية وليست الحرية النفسانية الميتافزيقية التي يتناولها الفكر الإسلامي بالتحليل، اي ممارسة الحرية كعملية تحررية، وليس فقط رفع شعارها فقوله" يجب علينا أن نتحرر فكريا ونواجه مشاكلنا في العمق وأن نتخطى على الأقل نظريا منظور الغير فعليا، أن نقفز فوق حدود الزمن والمكان" (8).

طوبى الحرية في المجتمع الإسلامي

يرى العروي بأن الحرية في المجتمع العربي الإسلامي تتجلى بصورة أوضح خارج نطاق الدولة ومن خلال أربعة مجالات:

1- البداوة:

باعتبارها رمزا من رموز الحرية خارج هيمنة الدولة، حيث يجسد البدوي نظريا المثل العليا في الفصاحة والبداهة والشجاعة، ولو أن هذا التوصيف يتناقض مع الواقع حيث يفسر الجغرافيون الحياة البدوية في ارتباطها بالجهل والفقر والتقشف والمرض، حيث الفرد خاضع للعادات وقيود العشيرة وليس للقوانين الإنسانية(9). يستشهد العروي بنص لابن خلدون يشير فيه إلى أن البدوي يعيش بعيدا عن أحكام السلطان وتعلم الآداب، وفي هذا إشارة إلى أن البداوة كرمز تمنح للفرد حرية نفسية من خلال بعده عن سلطة الدولة وإحساسه بالتحرر من هيمنتها.

2- العشيرة:

هي مجموعة من الناس تجمعهم قرابة فعلية أو متخيلة، وتجسد مجموعة من العادات التي تفرض على الفرد وتحميه من أذى الغير. ولكن في نفس الوقت تجعله بعيدا عن سيطرة السلطان وأوامره، وهذا ما يجعل قوانين العشيرة معارضة لقوانين الدولة (10). إذن العشيرة تحمي الفرد وتطمئنه على حياته فيستطيع بذلك مواجهة السلطان دون خوف، لأنه يعيش في ظل حرية تتقابل مع عبودية الدولة (11).

3- التقوى:

يرى العروي بأن التقوى تساعد الإنسان المؤمن من عبودية الجسد والعادات، مادام يلبي نداء داخليا وليس أمرا خارجيا ، على المستوى الاجتماعي يحصل الفرد على رضى العشيرة فيكسب بذلك جاها ويصبح له تأثير في المجتمع، فيكتسب وبالتالي مجالا واسعا في التصرف "فتجربة القرون الماضية تؤكد لنا أن التقوى تحرير للوجدان وتوسيع لنطاق مبادرات الفرد وبهذا فالتقوى رمز للحرية." (12).

4- التصوف:

إذا كان التصوف هو أحد تمظهرات الثقافة الإسلامية ،فإن إحدى خصائصه هي أنه يقوم على تحرير من العقل والتجربة الحسية حيث تتجسد الحرية في المطلق في الإسلام، حيث نجد المتصوف يكون منعزلا عن المجتمع الذي يرى فيه ضوابط تحد إحساسه بالحرية، ولهذا يرى في الابتعاد عنه نوعا من التحرر، إن انسلاخ المتصوف عن كل قيود المحيط الخارجي يجعله يشعر بالحرية (13) .
تجسد هذه المجالات الأربع باعتبارها رموزا ثقافية الشعور بالحرية عند الإنسان العربي

المسلم مادام يعيش وفقا لمقتضياتها بعيدا عن سلطة الدولة وهذا ما يجعل الحرية في هذه المجتمعات عبارة عن طوبى تتجلى بصورة واضحة في مجال حرية الفرد داخل المجتمع أوسع بكثير مما يشير إليه نظام الدولة الإسلامي التقليدي (14) .

الدعوة إلى الحرية
(عهد التنظيمات)

خلال القرن الثامن عشر عرف المجتمع العربي الإسلامي تحولا ملحوظا، حيث اتسع نطاق الدولة في مقابل اضمحلال اللادولة وبالتالي اتسع مجال الوعي بضرورة الحرية المجردة المطلقة، تراجع دور البدو السياسي والعسكري والاقتصادي وغاب عن المشهد البدوي كحامل مشعل الحرية ومحافظ على الأصالة والمروءة. كما تراجعت العشيرة وتقلص نفوذها على السلطان وعلى قدرتها على حماية أعضائها، كما ضعف ميل الناس إلى التصوف كتحرر من الاستبداد الذي زادت شموليته وإطلاقيته. وكان العامل الرئيس وراء هذا التحول الخطر الأجنبي على الدول الإسلامية من طرف الاستعمار الغربي (15) .

في القرن التاسع عشر ظهرت حركات سياسية تسعى إلى تحرير الشعوب الإسلامية من الأوربيين، وحركات دستورية تدعو إلى الانعتاق من الاستبداد وحركات أدبية تهدف إلى التحرر من الأساليب العتيقة و القوالب الموروثة، حركات نسائية لتحرير المرأة من العادات الفاسدة وحركات تربوية لتحرير العقول من المناهج التعلمية القديمة والعقلية الخرافية.

إن هذه الحركات التحررية ولدتها حاجات نابعة من صميم المجتمع، وهي في نفس الوقت مظاهر للحرية داخل الدولة (16).وهذه الحركات كما يقول العروي تستعير مفاهيمها من تيارات مختلفة، أوربية وعربية إسلامية لكنها لا تهتم بالتماسك الفكري والتناسق المنطقي، وهذا يخلق نوعا من البلبلة في الفكر ،فهي تستعير تحليلات ليبرالية غربية وتزكيها بأخرى فقهية سنية وأخرى كلامية اعتزالية واخرى فلسفية إشراقية.

وهذا دليل على أن قيمة تلك الحركات لا تكمن في عمقها الفكري بل في فعاليتها الإصلاحية (17) .

الحرية الليبرالية

تحدث عبدالله العروي في الفصل الثالث من كتاب "مفهوم الحرية" عن المنظومة الليبرالية باعتبارها نظاما فكريا تكون في القرنين السابع عشر والثامن عشر، يقوم اساسا على تقدير قيمة الفرد الحر باعتباره أصلا للمجتمع كما بين بأن هذه المنظومة قد عرفت في تطورها أربعة مراحل كبرى، وهي مرحلة التكوين التي كانت وجها من وجوه الفلسفة الغربية القائمة على مفهوم الفرد ومفهوم الذات، ثم مرحلة الاكتمال حيث كانت الأساس الذي شيد عليه علمان عصريان هما: علم الاقتصاد وعلم السياسة، بعد ذلك جاءت مرحلة الاستقلال حيث نزعت الليبرالية من أصولها كل فكرة تنتمي إلى الاتجاه الديموقراطي بعد أن أظهرت تجربة الثورة الفرنسية أن بعض أصول الليبرالية قد تنقلب عند التطبيق إلى عناصر معادة لها. أخيرا مرحلة التقوقع حيث أصبحت تعتبر أنها محاطة بالأخطار وأن تحقيقها صعب إن لم يكن مستحيلا، لما تستلزم من مسبقات غير متوفرة لدى البشر في غالب الأحيان.(18). يقول العروي بأن العرب قد تعرفوا على الليبرالية في مرحلتها الأخيرة وهي مليئة بالعناصر المتناقضة، وكان من الصعب عليهم أن يتلقوها بعقل ناقد ومتفحص، وقد عرج العروي على احد أهم الكتب التي تعرف عليها العرب في هذا الموضوع وهو كتاب "في الحرية" لجون ستيوارت ميل، الذي يعبر عن هموم المرحلة الرابعة وإن كان وفيا لأفكار المراحل السابقة في كل ما لم يعارض أطروحته العامة. وقد قام العروي بعرض مشوق لهذا الكتاب مبينا خلفياته الفكرية والسياسية، وتأثيره الكبير في الدراسات الليبرالية الحديثة والمعاصرة.س

لقد توصل العروي إلى نتيجة مهمة تفيد بأن الليبراليين العرب لم يستطيعوا التمييز بين المراحل المذكورة، ولم يجروا عليها فحصا نقديا بل اتخذوها كشعار كان موافقا لحاجات المجتمع

العربي، عدم الاستيعاب هذا أثر تأثيرا سلبيا في الفكر العربي المعاصر سواء عند أنصار الليبرالية أو معارضيها(19).
لقد كان المجتمع العربي إذن في حاجة إلى الحرية ونشرها الدعوة إليها أكثر من حاجته إلى تحليلها والتفكير فيها.

استنتاجات عامة:

يختم العروي هذه الدراسة المهمة بتسجيله أن الدارسين العرب المختصين يؤكدون بأن مؤشرات مدى تحرر المواطن العربي ضعيفة جدا وأن المجتمع لم يلج بعد مراقي التحرر التي كشفت عنها تجارب مجتمعات أخرى معاصرة.
وإذا كانت كلمة حرية جارية على ألسنة عرب اليوم فمفهومها غير واضح ولا راسخ في أذهانهم وواقعها غير محقق في سلوكهم.(20) .
كما يلاحظ الباحث الأجنبي أن ذيوع الشعار لا يتوافق مع الإهمال النسبي للمفهوم على المستوى الفكري الخالص، وهي مفارقة ظاهرية أكثر منها حقيقية. وهذا يوازيه أمر آخر وهو أن المسؤولين العرب يرحبون بعلم الاقتصاد وبالعلوم التطبيقية عموما بينما يتنكرون للعلوم النفسانية السلوكية، وإذا تذكرنا أن الأوضاع هي التي تجعلهم ينظرون إلى الفرد كعامل منتج لا كشخصية، فهنا سر هذه المفارقة الظاهرية(21).
كما أن انشغال مجتمع ما بقضايا المساواة والتنمية والأصالة لا يدل على التقدم بل على التخلف وعلى ضرورة اختزال تجارب أمم أخرى. فالمساواة والتنمية والأصالة هي وسائل للحرية التي لا تتحقق بكيفية مطلقة في سلوك بشري متميز. إن مسألة الحرية مطروحة باستمرار في جميع الأحوال والظروف، وطرحها المستمر هو أكبر ضامن لتحققها التدريجي.(22).
ومهما تنوعت الحرية، كشعار وكمفهوم وكسلوك، يبقى البحث، في أي مستوى من هذه المستويات الثلاثة وسيلة لتعميق الوعي بمسألة الحرية والاحتفاظ بها على رأس جدول الأعمال لأن الوعي بقضية الحرية هو منبع الحرية.

الهوامش:

(1) عبد الله العروي، مفهوم العقل، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996،ص12
(2) نفس المرجع، ص14س
(3) عبد الله العروي الإيديولوجيا العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995، ص59
(4) كمال عبد اللطيف، أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003، ص58
(5) عبد الله العروي، مفهوم الحرية، الطبعة السادسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002،ص5
(6) نفس المرجع، ص5
(7) نفس المرجع، ص5
(8) عبد الله العروي، خواطر الصباح، المغرب المستحب أو مغرب الأماني، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2007 ، ص21
(9) عبد الله العروي، مفهوم الحرية، ص18
(10) نفس المرجع، ص20
(11) نفس المرجع، ص20
(12) نفس المرجع، ص22
(13) نفس المرجع، ص22
(14) نفس المرجع، ص24
(15) نفس المرجع، ص30
(16) نفس المرجع، ص36
(17) نفس المرجع، ص36
(18) نفس المرجع، ص39
(19) نفس المرجع، ص52
(20) نفس المرجع ، ص105
(21) نفس المرجع، ص106
(22) نفس المرجع ، ص107

تأثيرات الحرب الروسية - الأوكرانية على الاقتصاد الروسي

أ.د. سناء عبد القادر مصطفى

توطئة :

على الرغم من العقوبات الغربية التي تستهدف انهاك واضعاف الاقتصاد الروسي. إلا أن الروبل الروسي ارتفع إلى أعلى مستوى منذ 7سنوات مقابل الدولار الأمريكي.

إذ تواصل العملة الروسية ارتفاعها أمام العملتين الأمريكية والأوروبية. فقد انخفض سعر صرف الدولار واليورو مقابل الروبل إلى مستويات هي الأولى منذ آذار/ مارس العام 2020

ويعد قرار البنك المركزي الروسي باتخاذ مجموعة من الإجراءات لتحقيق الاستقرار المالي والاقتصادي في البلاد. الأمر الذي حد من الطلب على العملات الأجنبية في السوق المحلية. أمرا صائبا والذي يتضمن تغيير طريقة الدفع من الدولار الأمريكي إلى الروبل الروسي في صادرات الغاز إلى الدول غير الصديقة. بما في ذلك إلى دول الاتحاد الأوروبي مع إلزام المصدرين في روسيا ببيع 80% من عائدات النقد الأجنبي في بورصة موسكو. وان انخفاض واردات البضائع إلى روسيا كما توقع تقرير لموقع "Rt arabic" الاقتصادي أن فائض ميزان المدفوعات الروسي قد يصل هذا العام إلى مستوى تاريخي يتراوح بين 200و 300 مليار دولار. وصرح "بنك روسيا" إن الرصيد في الحساب الجاري لميزان المدفوعات الروسي ارتفع في النصف الأول من العام 2022 ما قيمته 138,5 مليار دولار وهو ما يزيد 3,5 مرات عن الفترة نفسها من العام 2021 التي بلغت 39,5 مليار دولار.

وأضاف أن ميزان التجارة الخارجية في السلع والخدمات الروسية ارتفع في النصف الأول من العام 2022 بمقدار 2.6 مرة إلى 158.4 مليار دولار، مقارنة بـ 60.5 مليار دولار في نفس الفترة من العام 2021. وطالبت روسيا الدول الأوروبية بتسديد مدفوعات الطاقة بالروبل، وقطعت إمدادات الغاز عن العملاء الذين رفضوا القيام بذلك. ولهذا يطبق البنك المركزي الروسي سياسات لمنع المستثمرين والشركات من بيع العملة وغيرها من الإجراءات التي تجبرهم على شرائها.

واكد دميتري بيسكوف المتحدث باسم الكرملين، في نهاية شهر تموز 2022، أن الحكومة الروسية تناقش مسألة ربط العملة الروسية الروبل بالذهب، الأمر الذي سيدعم العملة الروسية ويضمن استقرارها، إذ استقر في الأشهر الأخيرة، رغم التأثير المبكر للعقوبات، فقد فشلت إلى حد كبير في شل الاقتصاد الروسي، حيث أدى ارتفاع أسعار الطاقة إلى زيادة أرباح روسيا .في غضون ذلك، ارتفعت العملة الروسية إلى أعلى مستوى في 7 سنوات مقابل الدولار الأمريكي، بفضل جهود الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بدعم الروبل، وعلى الرغم من أن روسيا تخلفت عن سداد ديونها الخارجية في يونيو/ حزيران، إلا أن الأسواق العالمية بالكاد تأثرت، حيث كانت هذه الخطوة متوقعة على نطاق واسع، وكانت السوق تستعد بنفسها.

الروبل يأخذ مكان الصدارة بين العملات وعلى مستوى أسعار الصرف

أصبح الروبل العملة الأفضل أداءً في العالم هذا العام، نتيجة الخطوات المتخذة لحماية النظام المصرفي والنقدي الروسي من العقوبات الغربية، وكذلك الإجراءات الروسية بمنع مغادرة الأموال الى خارج البلاد، إلى جانب الارتفاع الكبير في أسعار الوقود الأحفوري، عملت كلها على خلق الطلب على الروبل ورفع قيمته.

وقد ساهمت هذه الإيرادات، التي تصل روسيا في الغالب بالدولار واليورو عبر آلية مبادلة الروبل المعقدة في دعم سعر صرف الروبل، وان "روسيا حققت فوائض قياسية في حسابها الجاري من العملات الأجنبية، بسبب هذا الوضع".

وكان فائض الحساب الجاري لروسيا من كانون الأول/ يناير إلى مايس/ مايو من العام الجاري 2022 يزيد قليلاً عن 110 مليارات دولار، وفقا لإحصائيات البنك المركزي الروسي. وتعتبر روسيا أكبر مصدر للغاز وثاني أكبر مصدر للنفط في العالم، ومن أكبر المصدّرين للقمح، وأحد كبار منتجي الحبوب على مستوى العالم، وأحد كبار منتجي المعادن النادرة كذلك المستخدمة في عديد من الصناعات المتقدمة، وزبائن موسكو الأوروبيون كانوا يشترون بمليارات الدولارات الطاقة الروسية أسبوعيًا خلال الأيام الأولى من الحرب، بينما حاولوا في الوقت نفسه فرض عقوبات عليها. هذا الموقف غير الثابت ، وضع الاتحاد الأوروبي، في موقف حرج، حيث تمكنت روسيا من جني أموال ضخمة من مبيعات النفط والغاز والفحم بشكل مضاعف.

نستنتج مما سبق ان الاستراتيجية الاقتصادية المتبعة في روسيا أظهرت مدى قوة الاقتصاد مع الإجراءات الصحيحة والخطط الاقتصادية القيمة، للحفاظ على الدولة الاقتصادية والعسكرية، وعلى الصعيدين المالي والاقتصادي تعتبر موسكو أن ارتفاع قيمة الروبل دليل على فشل العقوبات الغربية في إضعاف الاقتصاد الروسي، حيث قال الرئيس الروسي فلاديمير بوتين خلال منتدى سانت بطرسبرغ الاقتصادي الدولي السنوي: "كانت الفكرة واضحة: سحق الاقتصاد الروسي بعنف"، ثم تابع: "لم ينجحوا.. من الواضح أن ذلك لم يحدث ".

وأصبح الروبل قويًا لدرجة أن البنك المركزي الروسي أصبح يتخذ إجراءات لمحاولة إضعافه، خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى جعل صادرات البلاد أقل قدرة على المنافسة. منها خفض سعر الفائدة ثلاث مرات لتصل إلى 11 بالمئة في أواخر أيار/ مايو، وذلك على الرغم من رفعها في بداية الحرب بأكثر من الضعف إلى 20 بالمئة من 9.5 بالمئة سابقا.

وجاءت أكثر من نصف هذه المكاسب من الاتحاد الأوروبي، بنحو 60 مليار دولار. وفي حين أن العديد من دول الاتحاد الأوروبي عازمة على خفض اعتمادها على واردات الطاقة الروسية، فقد تستغرق هذه العملية سنوات. وفي العام 2020، اعتمد الاتحاد الأوروبي على روسيا في 41% من واردات الغاز و36% من وارداته النفطية، وفقًا لذات المصدر.

الشراكة الاستراتيجية بين روسيا والصين

تشكل الشراكة الاستراتيجية بين روسيا والصين عقبة لا يمكن التغلب عليها أمام النخبة الحاكمة الأميركية. وتعتمد قوة هذه الأخيرة على قضية المال العالمي، الذي تحد من إمكانياته الإرادة السياسية للدول ذات السيادة القادرة على إنشاء واستخدام عملاتها الوطنية في التعاون الدولي. وإذا تمكنت الصين وروسيا، جنبا إلى جنب مع الهند وإيران، من تشكيل نظام نقدي ومالي مستقل عن الدولار، على الأقل بالنسبة لمنظمة شانغهاي للتعاون، فإن نتيجة الحرب الهجينة العالمية ستكون محددة سلفا.

ومن دون تغذية ميزان مدفوعاتها وعجز ميزانية الدولة بقضية العملة العالمية التي لا نهاية لها، فإن الإمبراطورية الأميركية سوف تفقد قوتها العسكرية والسياسية بسرعة.

إن ما يثير قلق النخبة الحاكمة الأميركية هو عملية التكامل الاقتصادي الأوراسي، فضلا عن تطوير تعاون روسيا مع إيران والهند ودول الهند الصينية، على الرغم من تراجع شكلها. منذ بداية تشكيل الاتحاد الجمركي في إطار EurAsea ذكر المدافعون الأمريكيون عن احتواء روسيا، وأن القيادة الروسية تسعى بالتالي إلى إحياء الاتحاد السوفيتي.

دعونا نتذكر فقط كلمات وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة هيلاري كلينتون في مؤتمر صحفي في دبلن في 6 كانون الأول/ ديسمبر 2012، والتي تنقل بإيجاز معنى السياسة الخارجية الأمريكية: "يتم اتخاذ خطوات لإعادة سوفييتية المنطقة. وسوف يطلق عليه بشكل مختلف الاتحاد الجمركي والاتحاد الأوراسي وما إلى ذلك. ولكن دعونا لا ننخدع. نحن نعرف ما هو الغرض من ذلك ونحاول إيجاد طرق فعالة لإبطائه أو منعه".

تقع روسيا الاتحادية في الوعي الملتهب للنخبة الحاكمة الأمريكية، وهي مركز التجمع لعالم مستقل عن الولايات المتحدة، وبالتالي يجب، كما يقول قادة الرأي الأمريكيون، تدميرها وتقطيعها ومحوها. إن الجمع بين الخوف من روسيا (روسيا فوبيا) المزمن من التأريخ الأنجلوسكسوني والعلوم السياسية مع الرغبة في الهيمنة العالمية يحدد مسبقا التوجه المعادي لروسيا للحرب الهجينة العالمية التي أطلقتها النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة. إن روسيا بتقاليدها الإنسانية الأرثوذكسية، هي، وفقا للاستراتيجيين السياسيين الأنجلوسكسونيين، العقبة الرئيسة أمام تأسيس هيمنة الأوليغارشية الرأسمالية على العالم، التي تسيطر بالفعل على بلدان الغرب.

يجب القول إن هذا الرأي يتوافق مع قناعة الوعي الأرثوذكسي نفسه بدور روسيا كقوة أخيرة تمنع العالم من مجيء المسيح الدجال.

والواقع أن تصاعد الخوف من روسيا بدأ في الغرب بعد أن حددت القيادة الروسية مسارا للحفاظ على المؤسسات التقليدية للأسرة والعقيدة، وعلى نطاق أوسع، لحماية القيم الأخلاقية العالمية المتأصلة في الأديان

العظيمة. فالذين يسعون إلى تدمير البوصلة الأخلاقية وحرمان المواطنين من أي هوية - حتى الجنس، أينما تغلغلت منظمة حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي اللذان تسيطر عليهما واشنطن، تتكشف عملية التحرش بالشباب وتجريد المجتمع من إنسانيته، ولم تكن أوكرانيا استثناء من ذلك.

ومن أجل معرفة الظرف الذي يمر به الاقتصاد الوطني لروسيا الاتحادية في ظل الحرب الروسية - الاوكرانية يجب الاطلاع على ما هو موجود من تحليلات وتقارير وأبحاث ودراسات مختبرية لبعض من مراكز الأبحاث العلمية الاقتصادية في روسيا الاتحادية التي تستند في أبحاثها على معلومات مهمة تفيد الباحث في الخروج باستنتاجات مفيدة ومهمة.

الصناعة تفقد بعض من استيراداتها في العام 2022

أظهرت حسابات معهد غايدار (IEP) للدراسات الاقتصادية في موسكو أن تزويد الصناعيين بالمواد الخام والمواد نصف المصنعة الضرورية للإنتاج الصناعي في تموز 2022 من قبل الشركات المصنعة الروسية ارتفع إلى79%، نسبة إلى متوسط مستوى السنوات السابقة. وانخفض توفر المواد الخام المستوردة والمواد الضرورية للانتاج الصناعي إلى20% مقابل31% في حزيران من نفس العام. وتم تسجيل أكبر انخفاض في عجز الواردات الوسيطة في صناعة الأغذية - من 79 % إلى 48 % (انظر جدول رقم 1). "ترتبط هذه النتيجة بجهود الشركات نفسها وبالدعم النشط من الدولة. في الوقت نفسه، يعاني المنتجون الأجانب المرتبطون بصناعة الأغذية الروسية، على الأرجح، من ضغوط سياسية متواضعة من حكوماتهم". ويعكس لنا الجدول رقم (1).

مقدار عدم كفاية القطاعات الصناعية من المواد الخام المستوردة.

ومع ذلك حقق ممثلو الصناعات الخفيفة نجاحا أقل أهمية في ذلك، ولا تحظى مشاكل استبدال الواردات بأولوية عالية لكل من الشركات نفسها والسلطات، كما يعتقد الاقتصاديون في معهد Gaidar وخصوصا سيرغي تسوخلو أن التغيرات الملحوظة في توافر المواد الخام والمواد والمكونات المستوردة غير مرئية في الهندسة الميكانيكية. ويرجع ذلك إلى حقيقة أن "الشركاء السابقين تمكنوا من وقف جهود الشركات والسلطات إلى حد كبير"، في هذا الاتجاه.

الجدول (1) مقاييس عدم كفاية توفير الفروع الصناعية بالمواد الخام بالنسبة المئوية:

اسم الفرع الصناعي	حزيران	تموز
الغذائية	79	48
الخفيفة	70	62
الثقيلة	67	63
الكيميائية	63	68
البناء	58	71
قطع الأشجار والأثاث	38	60

المصدر: سيرغي تسوخلو. الصناعة تواصل الحرمان من الاستيراد. معهد غايدار. موسكو 2022-8-1

ونظرا لانخفاض توفر الاستيرادات، فإن شركات صناعة البناء غير قادرة الآن على تلبية النمو الموسمي في الطلب. الوضع صعب في صناعات النجارة واللب والورق - ليس لديهم مشاكل مع المواد الخام الرئيسية، لكن هذه المنتجات لا يمكنها الاستغناء عن المواد الكيميائية المستوردة والورنيش والدهانات والاكسسوارات.

احتفظ نقص المواد الخام والمواد نصف المصنعة بالمركز الخامس في أعلى 5 قيود لنمو الإنتاج، وسجل نتائج الدراسات الاستقصائية في معهد غايدار .IEP وكما لاحظ الباحثون، فإن "الخروج المتأخر من أزمة العقوبات البطيئة، والدعم الرسمي للواردات الموازية، واستخدام احتياطيات استبدال الواردات غير المستخدمة سابقا، سمح للصناعة بتقليل حدة النقص في المواد الخام والمواد نصف المصنعة".

الصناعيون يأملون بالعودة إلى العلاقات التجارية مع الغرب

نشرت صحيفة كوميرسانت باللغة الروسية بيانات عن مراقبة الوضع في الصناعة الروسية، أعدها سيرغي تسوخلو ، رئيس مختبر مسوحات السوق في معهد غايدار.

سجلت نتائج الدراسات الاستقصائية لمعهد غايدار في القطاع الصناعي في شهر آب/ أغسطس 2022 ديناميكيات سلبية معتدلة للطلب، إذ انخفضت المبيعات بحلول شهر تموز / يوليو بشكل طفيف.

هذه التغيرات مستمرة منذ شهر نيسان و بدأت تخيب آمال الصناعة، التي تمنع توقعات الطلب الايجابية، كما قال مؤلف الدراسة سيرجي تسوخلو. ولأن حصة تقديرات الطلب العادية بعد شهر نيسان والانتعاش الطفيف في مايس بدأت تتراجع ببطء الى51% مقابل53% في تموز. واستمر الانخفاض في الإنتاج، الذي سجله معهد غايدار في تموز بعد نمو شهر حزيران/ يونيو.

وعلى الرغم من أن خطط الإنتاج المدني قد عادت إلى النمو، يبدو أن فترة النقص في مخزونات المنتجات النهائية، التي عملت الصناعة بموجبها على مدى الأشهر الـ 24 الماضية والتي تقترب من نهايتها. كما أظهرت تقديرات مخزونات المواد الخام والمواد نصف المصنعة اتجاها إيجابيا. تم الجمع بين انخفاض طفيف في العرض العادي للمواد نصف المصنعة والمواد الخام الروسية من79% إلى74% مع زيادة في توافر الواردات من20% إلى29% ، مما دعم التحسن في ديناميات الإنتاج الصناعي في تموز. وأظهرت نتائج الدراسة أن المستجيبين في معهد غايدار للشهر الثالث على التوالي خفضوا أسعار البيع، وكانت خططهم الاستثمارية ناقصة للغاية. أولا وقبل كل شيء، يمكن تحسينها من خلال إمكانية التنبؤ بتحسن الوضع الاقتصادي(68% من الاجابات)، ونهاية حرب العقوبات والعودة إلى العلاقات التجارية والاقتصادية مع الغرب(51%) وانخفاض أسعار المعدات والبناء(50%).

وأشار سيرغي تسوخلو، بعد حساب مؤشر التكيف الصناعي، إلى تدهور حاد في وضع الشركات الروسية في الربع الثاني من العام الجاري 2022. أدت الشركات الروسية إلى تدهور حاد في تقييم مؤشراتها الرئيسية على خلفية تأثيرات الحرب الروسية - الأوكرانية وحرب العقوبات الغربية والأمريكية. ويتبع ذلك من بيانات مؤشر التكيف (الطبيعي) للصناعة، والذي يتم حسابه كل ثلاثة أشهر من قبل معهد Gaidar بناء على نتائج مسح للشركات. يقيم المشاركون في الدراسة الوضع الطبيعي في عملهم من خلال 6 مؤشرات: حجم الطلب، ومخزونات المنتجات النهائية (المنتجات الجاهزة للتسويق) والمواد الخام، وعدد الموظفين، والقدرة الإنتاجية والوضع المالي. انخفض المؤشر في الربع الثاني

2022 من74% إلى63% وفي المرة الأخيرة التي انخفض فيها المؤشر كثيرا كان في أزمة 2008 - 2009 ، ولكن الأهم من ذلك كله حدث في الربع الثاني من العام 2022، إذ تدهور تقييم الوضع مع مخزونات المواد الخام. فقد بلغت نسبة الشركات التي اعتبرت الوضع في هذا القطاع طبيعيا62% مقارنة بـ68% في الربع الأول. بدأ الوضع في الاستقرار تدريجيا في شهري تموز وآب، لكن على حساب المكونات المحلية، إذ بلغ مستوى رضا الشركات عن مخزونها76%.

تعويض الخسائر الناجمة عن العقوبات الغربية

تمكنت روسيا من تعويض الخسائر الناجمة عن العقوبات المفروضة من قبل الدول الغربية، حسبما قال الرئيس فلاديمير بوتين في مقابلة مع وكالة تاس: "بسبب التدابير التقشفية خسرت البلاد حوالي 50 مليار دولار، لكنها "كسبت نفس المبلغ".

حيث أجبرت إجراءات العقوبات روسيا على "تشغيل أدمغتها"، بما في ذلك البدء في إنتاج منتجات وتقنيات لم تكن لدى البلاد من قبل.

وأضاف بوتين: "هذا يفيدنا بالتأكيد، إنه ينوع اقتصادنا، في الواقع، يساعدنا على حل مهمة رئيسية ".

وقال رئيس فرنسا مانويل ماكرون: "إنه لا يوجد شيء إيجابي في العقوبات السياسية المفروضة على روسيا. ساعدت القيود المتبادلة التي فرضتها روسيا البلاد على تطوير الزراعة وتحرير السوق المحلية.

لذلك، وفقا له، أصبحت روسيا مصدرا رئيسيا للقمح وبدأت في تزويد نفسها بالحليب واللحوم.

إذ فرضت روسيا حظرا على استيراد أنواع معينة من المنتجات الغذائية من الولايات المتحدة والنرويج وأستراليا وكندا ودول الاتحاد الأوروبي في العام 2014 ردا على العقوبات الغربية، والسبب في ذلك هو ضم شبه جزيرة القرم والوضع في اقليم الدونباس". في وقت لاحق، تمت مراجعة القائمة مرارا وتكرارا، في حزيران 2019، مددت الحكومة الحظر الغذائي حتى نهاية العام2022.

لقد حسن صندوق النقد الدولي بشكل كبير توقعات الاقتصاد الروسي. لكن التعبئة العسكرية يمكن أن تربك الطاقات الانتاجية. إذ تمكنت روسيا من إعادة توجيه جزء كبير من صادراتها النفطية إلى آسيا كما تؤكد وكالة أنباء تاس الروسية.

واستنادا على هذه الخلفية، يبدو تقييم الوضع في روسيا متفائلا للغاية، إذ رفع صندوق النقد الدولي توقعاته بمقدار 2.6 نقطة مئوية مقارنة بتقديرات تموز/ يوليو ويتوقع الآن انخفاضا بنسبة3.4% هذا العام و2.3% في العام المقبل (تم تحسين التوقعات بمقدار 1.2 نقطة مئوية).

وقال صندوق النقد الدولي إن إمدادات النفط والصادرات غير المتعلقة بالطاقة لا تزال قوية، وإن الطلب المحلي يظهر علامات على الاستقرار بفضل الدعم المقدم من القطاع المالي، الذي ساعد في تخفيف تأثير العقوبات.

الولايات المتحدة ستتوقف عن تزويد أوكرانيا بالأسلحة بعد افلاس أوروبا

يعتقد العالم السياسي مراد بشيروف أن الولايات المتحدة ستتوقف عن تزويد أوكرانيا بالأسلحة ولن تبدأ المفاوضات مع روسيا إلا بعد إفلاس المنافسين الصناعيين الرئيسيين في أوروبا. وتجد الدول الأوروبية نفسها بالفعل على وشك كارثة اقتصادية بسبب العقوبات المناهضة لروسيا.

وقال الخبير بشيروف ان الأوروبيين اضطروا بالتالي إلى نقل العديد من المنتجات الصناعية إلى الولايات المتحدة. وقال في مقابلة مع موقع ukraina.ru بمجرد أن تلتهم الولايات المتحدة كل الهامش، أي الإنتاج المربح في أوروبا، بمجرد أن تنتقل مرافق الإنتاج هذه، إلى جانب العمليات المصرفية، إلى أراضي الولايات

المتحدة، ستنتهي هذه القصة بأكملها".

على الروس معرفة المنتجات الجديدة لإختيارها في الظروف الجديدة

يعتقد سيرغي زوبوف Sergei Zubov كبير الباحثين في مختبر الدراسات المالية في معهد غايدار Gaidar Institute for Economic Policy أن التخطيط اليوم أصبح أكثر أهمية من أي وقت مضى، ولكن يجب أن يلبي الحقائق الجديدة التي ينغمس فيها المجتمع، لأن كل ثانية يمر بها المجتمع الروسي لا ترقى إلى مستوى الخطط طويلة الأجل وسوف تؤدي الى أخطاء لا تحمد عقباها ، حسبما ذكرت Nezavisimaya Gazeta نقلا عن بيانات المسح من المنصة المالية عبر الإنترنت Webbankir.قد تبدو بعض افتراضات محو الأمية المالية، التي غرستها وزارة المالية والبنك المركزي في الروس، بعد أحداث فبراير/ شباط 2022 منفصلة عن الواقع. لا عجب في ذلك لأن استطلاعات الرأي التي أجريت بين الروس كشفت عن انقسام حول هذه القضية. ما يزيد قليلا عن50% من المجيبين الآن إما لا يضعون خططا على الإطلاق، أو يخططون لمدة أقصاها شهرين إلى ثلاثة أشهر. وحتى أقل بقليل من النصف إنه لا يزال لديهم استراتيجية طويلة الأجل. ومع ذلك، بالنسبة للعديد من الروس، من الصعب للغاية وضع خطط طويلة الأجل - خاصة الآن، لأن السكان غير متجانسين ولذلك أصبح التخطيط أكثر أهمية من أي وقت مضى. "على الرغم من الطبيعة الأساسية للتحول المستمر، فإننا نرى أن المجال المالي والاقتصادي يستمر في العمل والتطور بنشاط. وبالتالي، يجب على الناس التكيف مع الظروف الجديدة. بالطبع، في الوقت الحالي، يتم تحديث مهمة الضمان بالنسبة للكثيرين. ولكن يجب ألا ننسى أن الحالة، مهما بدت حرجة هي مؤقتة وأن العودة إلى الحياة الاقتصادية النشطة ستؤدي حتما إلى استراتيجيات جديدة في المجال المالي. واليوم، يقدم السوق المالي الذي تمثله البنوك والتقنيات المالية منتجات وخدمات جديدة يجب على المواطنين إتقانها، قدر الإمكان، من أجل التنقل في ظروف جديدة".

عواقب تأثيرات الحرب الروسية - الأوكرانية على العالم

وفي الوقت نفسه، فإن عواقب تأثيرات الحرب الروسية - الأوكرانية تؤثر على العالم بأسره، كما يلاحظ صندوق النقد الدولي. لذلك، في أوروبا، أدت إلى زيادة في أسعار الطاقة، وتقويض ثقة المستهلك، وتفاقم الوضع في قطاع التصنيع. ويشير الصندوق إلى أن الدول المجاورة في أوروبا الشرقية ودول البلطيق عانت أكثر من غيرها.

ووفقا لتقديرات صندوق النقد الدولي، سيتباطأ نمو الناتج المحلي الإجمالي العالمي من6% في العام 2021 إلى3.2% في العام 2022 و2.7% في عام 2023، وهو أدنى معدل نمو منذ العام 2001 باستثناء حالتين - في العام 2009 بسبب الأزمة المالية العالمية في 2008 والعام 2020 بسبب جائحة كورونا. وبالمقارنة مع تقييم تموز للصندوق، لم تتغير التوقعات للعام الحالي، وبالنسبة للعام التالي انخفضت بنسبة 0.2 نقطة مئوية.

يتم تفسير العديد من المشاكل من خلال تباطؤ كبير في النمو في الاقتصادات الرائدة:

الانخفاض في الولايات المتحدة في النصف الأول من العام 2022 ؛

الانكماش المتوقع في منطقة اليورو في النصف الثاني من العام الجاري 2022؛

تباطؤ النمو في الصين بسبب تفشي كورونا والحجر الصحي وتفاقم الأزمة في سوق العقارات.

ووفقا لتوقعات صندوق النقد الدولي، سوف يتسارع التضخم العالمي مرتين تقريبا -

إلى8.8% هذا العام مقابل4.7% في العام الماضي، لكنه سيتباطأ إلى6.5% في العام2023 .

كيف ستؤثر مشاكل الطاقة على الصورة الأوسع للتضخم؟

وتعتمد أوروبا بشكل كبير على الغاز القادم من روسيا ولن تكون قادرة على التحول بسرعة إلى إمدادات بديلة إذا تم إغلاق خطوط الأنابيب. ولذلك مع اقتراب فصل الشتاء وارتفاع مستوى احتياطيات الغاز في أوروبا عما كان متوقعا، أصبحت مشكلة إمدادات الغاز أقل حدة. ومع ذلك، إذا استمرت الأزمة هذا العام، فإن المشكلة ستنشأ مرة أخرى.

ومن المسائل الأكثر أهمية تأثير الأزمة على أسعار النفط والغاز والسلع الأساسية الأخرى. سيؤدي الارتفاع الحاد في الأسعار إلى زيادة أخرى في التضخم والإضرار بالمستهلكين. وأنه في أسوأ التوقعات، يمكن أن ترتفع أسعار النفط إلى 120 - 140 دولارا للبرميل.

وإذا استمر النمو حتى نهاية العام الجاري2022 ، وشهدنا زيادة في أسعار الغاز الطبيعي في أوروبا ، فسوف يضيف حوالي نقطتين مئويتين إلى التضخم في البلدان المتقدمة - أكثر في أوروبا، وأقل في الولايات المتحدة.

وهذا سيضع ضغوطا إضافية على الدخل الحقيقي. ويمكن أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية محمية نسبيا، ولكن المزيد من الزيادات في الأسعار التي يفرضها منتجو النفط والغاز الصخريين، سوف تضرب في وقت واحد جيوب المستهلكين الأمريكيين.

الخاتمة:

يتعزز الاقتصاد الروسي في حين يقع الاقتصاد الأوروبي في الركود. هذا ما كتبته الطبعة البريطانية من مجلة الإيكونوميست والتي تؤكد أن الوضع الاقتصادي في روسيا يتحسن، على الرغم من العقوبات الغربية، وتكلفة المعيشة في روسيا أرخص بكثير من أوروبا ".

هناك جانب حساس للحرب الاقتصادية بين موسكو والغرب. وفي حين تتأرجح أوروبا على شفا ركود عميق، فإن الوضع الاقتصادي في روسيا آخذ في التحسن. ما يمكن أن يكلف مئات اليورو في بيوت برلين أو باريس هذا الشتاء، يكلف بضعة روبلات في موسكو. لذا فإن كل هذه مقاطع الفيديو المنشورة على الإنترنت، والتي تظهر كيف تعمل أفران ومطابخ الغاز في البيوت الروسية طوال اليوم (دليل على وفرة الغاز ورخصه في روسيا. سناء مصطفى)، ليست مزحة، لكنها تلميح واضح للأوروبيين"، كما تكتب الصحيفة.

كما تستشهد مجلة الإيكونوميست بأرقام محددة، على سبيل المثال، مؤشر للنشاط التجاري، يحسبه بنك جولدمان ساكس.

وهذا يدل على أن الوضع في روسيا أفضل مما هو عليه في أكبر الدول الأوروبية - ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والمملكة المتحدة.

ويشير المنشور إلى بيانات بنك Goldman Sachs الذي يحسب "مؤشر النشاط الحالي" ، ويحلل الوضع في الاقتصاد كل شهر.

ووفقا للبنك، فإن نشاط روسيا يتجاوز هذا الرقم بشكل كبير في أوروبا.

فقد انخفض مؤشر الإنفاق الاستهلاكي، الذي حسبه سبيربنك Sparbank بعد المرسوم المتعلق بالتعبئة العسكرية في روسيا، ولكن بعد ذلك ارتفع قليلا مرة أخرى. هناك أيضا انتعاش ونمو في أحجام الإنتاج في صناعة السيارات. وهذا يشير إلى أن الشركات المصنعة كانت قادرة على استبدال الإمدادات من الدول الغربية.

المصادر:

1. Interfax. 11/7/2022.
   ttps://worldexpo.pro/peterburgskiy-mejdunarodnyy-ekonomicheskiy-forum-spief2022/06/15 .
   ندوة الاقتصاد العالمي في بطرسبورغ . روسيا. 2022/06/15
2. 15.06.2022 · **Петербургский** международный **экономический форум** (ПМЭФ) (англ. St. Petersburg International Economic **Forum** (SPIEF)..
   ندوة الاقتصاد العالمي في بطرسبورغ . روسيا. 2022/06/15
3. Сергей Глазьев. Что происходит в 2023. Аналика и Прогнозы. Россия. Москва. 08.09.2022.Стр.3.
   سيرغي غلازييف. ماذا يجري في 2023؟ تحليل وتوقعات المستقبل. روسيا. موسكو. 2022/9/8. صفحة 3.
4. Сергей Цухло .Промышленость продолжает лишаться импорта, Института Гайдара (ИЭП).Москва. Россия.202/08/01.
   سيرغي تسوخلو. الصناعة تستمر في عدم الاستيراد . معهد غايدار. موسكو، روسيا. 2022/08/01
5. Института Гайдара (ИЭП).Москва.Промышленная активность обновила минимум санкционного кризиса. Россия.2022/7/15.
   معهد غايدار. موسكو. روسيا. أصلحت الصناعة الحد الأدنى من آثار أزمة المقاطعة الغربية.
6. Сергей Цухло .Промышленость продолжает лишаться импорта, Института Гайдара (ИЭП).Москва. Россия.2022/8/15
   سيرغي تسوخلو. الصناعة تستمر في عدم الاستيراد . معهد غايدار. موسكو، روسيا 2022/08/15
7. ТАС.Экономика , Путин оценил влияние санкций на российскую экономику .Владимир Путин. 16 мар 2020.
   تاس. الاقتصاد، تقييم بوتين لتأثير المقاطعة على الاقتصاد الروسي. فلاديمير بوتين. 2020/03/16.

8. Политика , 15 фев 2020 Макрон заявил об отсутствии позитива в санкциях против России

موقع السياسة، 15شباط2020. تصريح ماكرون عن عدم وجود ايجابيات في فرض العقوبات على روسيا.

9. راجع مقالتنا عن تأثير العقوبات على الاقتصاد الوطني الروسي :

- د. سناء عبد القادر مصطفى: كيف نجحت روسيا في عكس العقوبات الاقتصادية الأمريكية والأوروبية لصالح تنمية وتطوير اقتصادها الوطني؟ . شبكة الاقتصاديين العراقيين. 21/12/2018.
- د. سناء عبد القادر مصطفى: ردة فعل القطاع الزراعي في روسيا الإتحادية ازاء العقوبات الأمريكية والاوروبية . شبكة الاقتصاديين العراقيين.2019/2/27.

10. Sergei Zubov. Nezavisimaya Gazeta. Webbankir. 13/10/2022.
سيرغي زوبوف. الصحيفة المستقلة، فيبانكير. 2022/10/13

11. Юрий Смитюк / ТАСС. России удалось перенаправить значительную часть экспорта нефти в Азию.
يوري سميتوك/وكالة أنباء تاس. نجحت روسيا في توجيه قسم كبير من تصدير النفط الى آسيا. 11/10/2022

12.13. See more at https://english.pravda.ru/news/russia/149340-putin_energy_marke.6/10/2022

13. Марат Баширов.Ukraina. ru. 5/10/2022.
مراد بشيروف. موقع أخبار Ukraina.ru . 2022/10/5

14. Sergei Zubov. Nezavisimaya Gazeta. Webbankir. 13/10/2022.
سيرغي زوبوف. الصحيفة المستقلة، فيبانكير. 2022/10/13

15. Британский The Economist: Ситуация в экономике России улучшается на фоне рецессии в Европ. ТАСС, 13/10/2022
مجلة الايكونوميست البريطانية. تحسن وضع الاقتصاد الروسي في ظل تدهور أوروبا. وكالة أنباء تاس، 2022/10/13.

سطوة المال السياسي
بين الأمس واليوم

د. مجيد إبراهيم خليل

مقدمة:

شـــهد العراق وعبر مســـيرة طويلة من النضالات منذ عشـرينات القـرن الماضي إلى تسـعيناته في انتفاضة آذار المجيدة 1991 نضالات متلاحقة سعت إلى وطن لا يتحكم فيه الأجنبي ويعيش أبناؤه بحرية وسلام وسعادة. وقد وصلت ممارسات النظام الديكتاتوري الشمولي حدا بالغا من القسوة والعنف وإلى إسـكات أي صوت ينادي بمطالب عادلة وفرض تحكم الحزب الواحد والرأي الواحد الذي يؤله الطاغية.

إن الأزمة المستفحلة بين سلطة القهر والاستبداد وبين الجماهير المكتوية بالعسف لم تكن بعيدة عن تأثير الغرب أوربا وأمريكا على مجرياتها وذلك بوقوفهما إلى جانب النظام الديكتاتوري ودعمه.

بادرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى التدخل المباشر في أوضاع البلاد بذريعة امتلاك النظام لأسلحة الدمار الشامل إلى احتلال البلاد وإسقاط النظام الديكتاتوري.

ولم يكن الدافع لإسقاط النظام تسلطه ووحشيته في قمع معارضيه واستهتاره بحقوق الإنسان بل مواصلة الهيمنة والتحكم بمصائر العالم وإظهار الغطرسة خصوصا بعد الضربة التي تلقتها الولايات المتحدة في أيلول 2001 على يد الإرهاب الذي صنعته ودعمته.

إن إسقاط الأنظمة بالقوة العسكرية الخارجية، وتقديم الديمقراطية كوصفة جاهزة في بلد صودرت فيه ومنذ عقود من الزمن أبسط الممارسات الديمقراطية لم يكن أمرا صحيحا، حيث دعمت الولايات المتحدة القوى التي تناهض الديمقراطية، وهذه القوى وإلى وقت قريب كانت تعادي الديمقراطية وتكفرها. إن ما حصل يمكن اعتباره استباقا لما قد يحصل؛ وهو أن تبادر الشعوب إلى صنع مستقبلها بأيديها، فالولايات المتحدة وقفت وتقف ضد طموحات هذه الشعوب في قيام أنظمة ديمقراطية سليمة. وشهدت البلاد منذ الغزو العسكري في 2003 أكثر من دورة انتخابية لمجلس النواب ومجالس المحافظات في بادرة من المحتل ومن القوى المهيمنة المتحكمة بالسلطة لإضفاء الطابع الديمقراطي على الحياة السياسية. وتركزت الممارسة الديمقراطية على العملية الانتخابية، وأصبح الصندوق الانتخابي هو معيارها دون منظومة آليات وقيم الديمقراطية التي تم انتهاكها في ممارسات مفضوحة.

وإن القوى المشتركة في تقاسم كعكة السلطة والمتنافسة والمتصارعة في ما بينها، حتى في القائمة الواحدة تشتكي دوما بعد كل دورة انتخابية من شبهات تلاعب وتزوير بنتائج الانتخابات واستخدام للمال السياسي للتأثير على الناس وتزييف إرادتهم. وقد شاع استخدام تعبير المال السياسي متجاوزا المحلية فأصبح عالميا، تتداوله الأدبيات السياسية والإعلامية، خصوصا في العقود الثلاثة الأخيرة. وقد تعمقت الفوارق الطبقية في المجتمع العراقي، ما بين الغنى الفاحش والفقر المدقع، إلى الدرجة التي يضطر فيها البعض إلى العيش على مخلفات القمامة وما تجلبه من أمراض، ويقيمون في مساكن عشوائية تنعدم فيها أبسط الشروط الصحية، وهذا ما ولد بيئة سياسية صالحة لتأثير المال في حياة الناس، وهو يؤشر غياب الحد الأدنى من معايير العدالة الاجتماعية. إن العوامل والظروف التي أشاعت استخدام المال السياسي هي نفسها التي صنعت كثيرا من المفاسد في الحياة السياسية، فهو يعكس صورة للتشويه والخراب الاجتماعي الذي حل بالبلاد، وانهيار منظومة القيم الأخلاقية، التي بدأت بوادرها في عهد النظام الدكتاتوري السابق، وتواصلت بعد الاحتلال بمديات واسعة. فالمال السياسي هو المال المستخدم للفساد والإفساد، كشراء الأصوات والذمم، أو التزوير، أو الرشوة، أو التأثير على الخصوم السياسيين ومحاربتهم، أو لتفتيت قوى المعارضة، أو لبيع المناصب والدرجات الوظيفية والعقود، كما يساهم المال في تمرير قوانين معينة من خلال شراء النواب أو رشوتهم. وأنشأت بعض الأحزاب المتنفذة مكاتب اقتصادية تهدف إلى الكسب المالي لتوظفه في أهداف سياسية، كذلك انعدام الشفافية في مصادر تمويل الحملات الانتخابية. كما استخدم المال إعلاميا، بشكل واسع، عبر الكلمة المطبوعة والمسموعة، والفضائيات والبرامج وشبكات التواصل الاجتماعي، بمنحه للإعلاميين والمثقفين الذين يروجون توجهات وآراء الأحزاب المعادية للديمقراطية.

ولا شك أن المال يلعب دورا مهما في حياة الناس، وله تأثير في مختلف مناحي الحياة السياسية، ويتكامل دوره مع وسائل أخرى لتسييس الناس، من الإغراء واللين إلى العنف والإرهاب. ولم يقتصر وجوده وتأثيره في بلد معين، حيث يمكن أن نتلمس تأثيره في كيان الدول، في الأحزاب الحاكمة وفي الأحزاب المنافسة لها. إن استخدامات المال السياسي اقترنت بالصراع على السلطة والنفوذ في مختلف العهود التاريخية التي شهدها الحراك الاجتماعي في مختلف بلدان العالم.

المال السياسي في فترتي الخلفاء الراشدين والدولة الأموية

ورغم حداثة التسمية، ومن خلال تقليب صفحات الماضي، يمكن الإشارة إلى بعض استخدامات المال في التاريخ الإسلامي، ففي عهد الخلفاء الراشدين، وفي الصراع على

السلطة بعد مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان (35 هجري)، عين الخليفة الإمام علي (عبدالله بن عباس) واليا على اليمن، فوليها، وخرج واليها المعين من قبل الخليفة عثمان وهو (يعلى بن منبه) "وأخذ ما كان حاصلا من المال ولحق بمكة وصار مع عائشة وطلحة والزبير وسلم إليهم المال"(1). ويحدد ابن العربي مقدار المال "وأعطى يعلى لطلحة والزبير وعائشة أربعمائة ألف درهم"(2). وهذا المال وإن اتخذ مظهر المطالبة بالثأر لمقتل الخليفة عثمان، فقد كانت وراءه نيات سياسية واضحة تتأكد من خلال توجههم للبصرة، بعد أن نصحهم والي البصرة، الموالي لعثمان (عبدالله بن عامر) بعدم الذهاب إلى الشام لأنها مضمونة من قبل معاوية .وبعد مقتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب، ومن خلال المراسلات بين الحسن بن علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان حول النزاع على الخلافة، يعرض معاوية على الحسن "أن يجعل له خراج الأهواز مسلما في كل عام، ويحمل إلى أخيه الحسين في كل عام ألفي ألف (مليونان)، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس"(3). أي المال مقابل تنازل الحسن عن الخلافة، وقد حرص معاوية على أن يكون هذا الأمر من شروط الصلح، وترد رواية في مصدر آخر تنص على عرض مختلف وتعرض شروط التنازل بصيغة أخرى، فبعد أن كتب الحسن إلى معاوية "دع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فإنك تعلم أني أحق لهذا منك عند الله وعند كل أوّاب حفيظ". فكتب معاوية كتابا، يرفض طلب الحسن، وعرض فيها أهليته ومميزاته وتجربته وخبرته السياسية، وطلب منه أن يدخل في طاعته "فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك في بيت مال العراق من مال بالغا ما بلغ، تحمله إلى حيث أحببت، ولك خراج أي كور العراق شئت معونة لك على نفقتك، يجبيها لك أمينك ويحملها إليك في كل سنة"(4).

في رسالة الحسن دعوة مبايعة إلى معاوية، أما جواب معاوية فهو عرض واضح للرشوة. وفي الصراع الذي دار بين بين معاوية بن أبي سفيان والحسن بن علي، أرسل معاوية إلى قيس بن سعد (كان قائدا في جيش الحسن) يريد أن يأخذ البيعة منه قائلا "على طاعة من تقاتلني وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك (أي الحسن بن علي) فأبى قيس أن يلين له حتى أرسل إليه معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله فقال اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك" وقد نجحت خطة معاوية واشترط قيس فيه (أي في السجل) له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل معاوية في سجله مالا وأعطاه معاوية ما سأل(5).

ويورد اليعقوبي أن (قيس بن سعد) رفض عرضا ماليا قدره مليون درهم من معاوية، بينما قبل عبيدالله بن عباس العرض نفسه، فانحاز بسبب المال إلى معاوية وخان الحسن "وجّه معاوية إلى قيس بن سعد يبذل له ألف ألف درهم (مليون) على أن يصير معه أو ينصرف عنه، فأرسل إليه بالمال، وقال له: تخدعني عن ديني! فيقال: إنه أرسل إلى عبيدالله بن عباس وجعل له ألف ألف درهم، فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه، وأقام قيس على محاربته"(6).

ويؤكد مؤرخ آخر قبول عبيدالله بن عباس لرشوة المليون بالصيغة الآتية؛ كتب معاوية إليه "فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعا، وإلا دخلت وأنت تابع، ولكنك إن جئتني الآن أعطيك ألف ألف درهم، يعجل لك في هذا الوقت النصف، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر، فانسل عبيدالله ليلا، فدخل معسكر معاوية، فوفى له بما وعده"(7). وهكذا نجح الإغراء المالي في تفتيت قوة الخصم، وكسبه إلى جانب معاوية .كما استخدم المال لتصفية الخصوم السياسيين، فقد أعطى معاوية مائة ألف درهم إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس، لأنها دست السم في طعام الحسن بن علي، وكان قد وعدها كذبا أن يزوجها ابنه يزيد(8). ومثال من العهد الأموي، حيث استخدم المال للتأثير على بعض مواقف القوى السياسية، أو كسب موقفها

بواسطة الإغراء المالي، فبعد موت مروان بن الحكم (ت65 هجرية) حصل تنازع على السلطة ثم اتفق على أن يكون الخليفة هو عبدالملك بن مروان، وبعد موته يخلفه عمرو بن سعيد بن العاص، وكتبا في ذلك كتابا وأشهدا أشراف الشام عليه، ولكن عبدالملك كان يتحين الفرصة للغدر بعمرو، فدخل عمرو على عبدالملك يوما، وقد استعد عبدالملك للغدر به "فأخذ وأضجع وذبح ولف في بساط" وأحس أصحاب عمرو بالمكيدة، وهم بالباب، فنادوا صاحبهم، فأخذ عبدالملك خمسمائة صرّة، في كل صرة ألفا درهم (المجموع مليون درهم) وأمر أن تلقى من أعلى القصر على أصحاب عمرو بن سعيد، فترك أصحابه الرأس ملقى وأخذوا المال وتفرقوا. وهذا الحادث يوضح لنا كيف استخدم عبدالملك بن مروان سلطان النقود لعزل أنصار عمرو، وجعله يواجه مصيره وحده، ويكشف لنا أيضا سلوك الخليفة في الغدر بما يتنافى وأبسط القيم الإنسانية. ومع ذلك وفي صباح اليوم التالي أخذ عبدالملك خمسين رجلا من أصحاب عمرو ومواليهم فضرب أعناقهم وهرب الباقون فلحقوا بعبدالله بن الزبير (9).

ويلخص الدكتور محمد الطيب النجار سياسة العطاء في العصر الأموي فيرى أن "الدولة الأموية جعلت الغاية هي تمكين الأمر لها وتثبيت دعائمه، واستخدمت الأموال، واستغلت العطاء لتحقيق هذه الغاية، فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء" و"الأمويون كانوا لا يبخلون بمال في سبيل القضاء على قوة المعارضة وإحباط أغراضها"(10).

المال السياسي والشعر

ونجد في التراث العربي، وخصوصا في الشعر، وقبل التطور المذهل في وسائل الاتصالات والإعلام، حيث كانت الكلمة المسموعة والمقروءة تمارس تأثيرها القوي، نماذج لاستعمال المال السياسي، أغدق فيه الخلفاء والسلاطين وأولو الأمر على مادحيهم ومروجي تبرير تسلطهم، وإشاعة ما ليس لهم من الصفات الحميدة؛ فتصرفوا بالمال العام وأهدروه بحسب المزاج والأهواء.

ونظرة عابرة إلى العصر الأموي (41 - 132هجري) ترينا بعض نماذج هدر المال العام، حيث لجأت السلطة إلى الشعر لتبرر شرعيتها، في خضم الصراع الذي دار بين الأمويين والقوى المعارضة لهم، وعلى امتداد تاريخهم. لقد امتهن الأدب، وأصبح سلعة تباع في سوق أصحاب الأمر والنهي، وظهر مجموعة من الشعراء هم نتاج لتلك الظروف وتلك البيئة وتأثيراتهما، فأصبحوا يقفون على أبواب الأمراء ينتظرون جوائزهم، والأمراء يملؤهم الغرور لسماع كلمات المديح، فيتصرفون بالمال كما يشاؤون دون حسيب أو رقيب. إن توظيف الشعر في الصراع السياسي ليس وقفا على الأمويين، بل شهدته العصور اللاحقة، كما أن القوى المعارضة للسلطة استخدمته أيضا، وربما هذا يفسر لنا وقوف الشعراء بجانب ثم تحولهم إلى الجانب الآخر حسب تقلبات الأحوال، مثلا من مدح خصوم الأمويين إلى مدح الأمويين أنفسهم، أو مدح العلويين بعد زوال سلطة الأمويين. وتحفل مصادر الأدب والتراجم والتاريخ والتراث عموما بأسماء كثير من الشعراء الذين وقفوا إلى جانب بني أمية، يبررون لهم سلطتهم وأحقيتهم بالخلافة، ويضفون عليهم صفات البر والتقوى.

وأدناه بعض النماذج كأمثلة: فإذا أخذنا منطقة (خراسان وسجستان مثلا) "وجدنا الولاة والعمال هناك يكيلون الأموال والعطايا للشعراء كيلا، ولعل أسرة لم تحظ بما حظيت به أسرة المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة (الخوارج) في فارس". وقد مدح الشاعر (كعب الأشقري) المهلب، فقال:

براك الله حين براك بحرا
وفجّر منك أنهارا غزارا
ملوك ينزلون بكل ثغر
إذا ما الهام يوم الروع طارا (11).

والشاعر زياد الأعجم مدح عبيدالله بن معمر

والي فارس قائلا :
سألناه الجزيل فلما تأبى
وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا
فأحسن ثم عدت له فعادا

ويروى أن ابن معمر عد أبيات هذه القصيدة، فأعطاه على كل بيت ألفا (12).

وقدم الشاعر على عبدالله بن الحشرج (كان واليا) وهو بسابور، وقال فيه:

إن السماحة والمروءة والندى
في قبة ضربت على ابن الحشرج
لما أتيتكم راجيا لنوالكم
ألفيت باب نوالكم لم يرتج

فأمر له بعشرة آلاف درهم(13).

أما الشاعر أبو عطاء السندي فقد كان مع ابن هبيرة (والي أموي) وهو يبني مدينة على الفرات، فأعطى الناس صلات ولم يعطه شيئا فقال:

قصائد حكتهنّ ليوم فخر
رجعن إليّ صفرا خاليات
فيا عجبا لبحر بات يسقي
جميع الخلق لم يبلل لهاتي

فقال له يزيد بن عمر بن هبيرة: وكم يبلل لهاتك يا أبا عطاء؟ قال: عشرة آلاف درهم، فأمر ابنه بدفعها إليه (14). والسندي من مخضرمي الدولتين، مدح بني أمية وبني هاشم. وكان من شعراء بني أمية ومداحهم، وأدرك دولة بني العباس، فلم تكن له فيها نباهة فهجاهم (15).

ومثال على تقلب المواقف والولاء من الأمويين إلى العباسيين: الشاعر أبو نخيلة لما خرج إلى الشام اتصل بمسلمة بن عبدالملك، فاصطنعه وأحسن إليه وأوصله إلى الخلفاء واحدا بعد واحد، فأغنوه. وكان بعد ذلك قليل الوفاء لهم. انقطع إلى بني هاشم فمدح الخلفاء من بني العباس، وهجا بني أمية فأكثر (16).

المال السياسي في فترة الدولة العباسية

ويمكن الإشارة إلى بعض أمثلة استخدام المال لأغراض سياسية في العصر العباسي الأول (132 - 232 هجرية) إن استخدام هذا المال في هذا العصر هو امتداد لاستخدامه في العصر الأموي؛ فالصراعات التي كانت قائمة في العصر الأموي استمرت وظهرت تحالفات جديدة، ومارس العباسيون سياسة الأمويين التي كانوا ينتقدونها، وهم في المعارضة. فالقوى السياسية التي قامت بالثورات ضد الخلافة الأموية نازعت الأمويين سلطتهم باعتبارهم مغتصبين لها ومتصرفين بالمال بغير الحق. وبعد قيام الدولة العباسية التي ساهم في التمهيد لقيامها العلويون والعباسيون؛ انفرد العباسيون بالسلطة، مستخدمين أساليب الأمويين في العنف واستخدام المال في محاربة العلويين.

وقد استخدمت القوى المعارضة للسلطة الدين والشعارات الدينية لنشر أفكارها والترويج لها، والمحاربة من أجلها سواء في العصر الأموي أو العباسي. وليس جديدا القول باستخدام الدين في السياسة أو السياسة في الدين، فهو موجود منذ زمن، وليس وقفا على دين معين واستخدمته الفرق المختلفة في الدين الواحد، بادعاء كل فرقة أنها على الحق وغيرها على الباطل.

ففي عهد الخليفة المنصور (136- 158 هجرية) ثار محمد النفس الزكية (في المدينة) وأخوه إبراهيم (في البصرة)، وهما من سلالة الحسن بن الإمام علي سنة 145 هجرية. قمع المنصور الثورة بالعنف، دارت معركة بين الطرفين في (المدينة) هزم محمد، وبعث (عيسى بن موسى) وهو ابن أخ الخليفة برأس محمد إلى المنصور. أما إبراهيم فقد دعا إلى بيعة أخيه محمد قبل أن يبلغه مقتله في المدينة، وبايعه جماعة منهم الفقهاء وأهل العلم حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف. وتحصن أمير البصرة (سفيان بن معاوية) في دار الإمارة وطلب الأمان من إبراهيم فأمنه. دخل إبراهيم القصر ووجد في بيت المال مليوني درهم فاستعان بها، وفرض لأصحابه خمسين خمسين، وبعملية حسابية قدم لأصحابه 200،000 درهم، مستخدما المال لضمان ولائهم له (17). وقد حصلت مراسلات بين

محمد والمنصور. بادر فيها الخليفة إلى استخدام الإغراء المالي فكتب إلى محمد "لك عليّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج....." وردّ عليه محمد برسالة منها "وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليّ فإن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم بشيعتنا وإن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء" ثم كتب المنصور رسالة طويلة منها "....ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه"(18). ويتضح من الرسائل المتبادلة أن كلا الطرفين يستخدمان المال لتحقيق غرض سياسي من خلال عرض مبلغ مغر. كما أن المنصور يعير العلويين بأنهم تنازلوا عن السلطة وباعوا حقهم بالخلافة مقابل المال في إشارة إلى صلح الحسن ومعاوية.

وفي سنة 147 هجرية خلع الخليفة المنصور عمه "عيسى بن موسى" من ولاية العهد، وكان السفاح قد عهد إليه بالخلافة بعد المنصور. ثم عهد المنصور بولاية العهد إلى ولده المهدي بتفضيل ابنه على عمّه(19). وكان المنصور قد حاول قتل عمه عيسى للتخلص من عهده بالخلافة، فدس إليه شربة سم، لكنه نجا منها. وبعد فشل محاولة الاغتيال سلّم عيسى أمر الخلافة إلى المهدي بن المنصور، وصار بعده في ترتيب ولاية العهد، فوهب له المنصور مالا عظيما وأقطعه قطائع نفيسة وولّاه الكوفة والأهواز وطساسيجها، وكان هذا هو الثمن الذي أخذه عيسى ليؤجل حقه في الخلافة.

وعندما تولى المهدي (158-169هجرية) الخلافة، استخدم أسلوب الإغراء المالي لإبعاد الخلافة عن عيسى وجعلها لولديه الهادي والرشيد. وكان ابتياع البيعة (من عيسى) والحنث في اليمين ثمنها عشرة ملايين درهم كما أشار الفقهاء. قبل عيسى ذلك، وبقي منذ فاوضه المهدي على الخلع إلى أن استجاب، حبيسا عنده في دار الديوان، فخلع وبايع للمهدي وللهادي من بعده. فالصراع على السلطة والمال يجري داخل العائلة الحاكمة ويتدخل الفقه لتسخر نصوصه في تسعيرة البيعة والحنث في اليمين (20). وفي عهد الخليفة الهادي (169-170 هجرية) حدثت ثورة الحسين بن علي، سليل الحسن بن الإمام علي 169 هجرية. اقتحم الثوار المسجد، وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار، وقيل سبعون ألفا. تقاتل العباسيون وأنصار الحسين يوم التروية في (فخ) قرب مكة، فانهزم الحسين واحتز رأسه ورؤوس أصحابه، واختلط المنهزمون بالحجاج. وأغرى العباسيون أصحابهم بالقتال برصد مكافأة قدرها خمسمائة لمن يأتي برأس قتيل. وعندما علم والي المدينة بمقتل الحسين بن علي، هجم على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممن خرجوا معه، فهدمها وأحرق النخل وصادر ما لم يحرق وجعله في الصوافي والأموال المصادرة. فاستخدام المال هنا لكسب الأنصار بالمكافأة وللتنكيل بقوى المعارضة ومصادرة أموالها وجعله جزءا من مال الدولة كما أن المعارضة لم تتوان عن نهب المال (21). وأفلت من هذه المعركة، المعروفة بوقعة (فخ) يحيى وإدريس، ابنا عبدالله (من سلالة الحسن). إدريس هرب إلى مصر ومنها إلى المغرب، حيث تأسست دولة الأدارسة. أما يحيى فقد هرب إلى بلاد الديلم، وفي عهد الخليفة الرشيد (170- 193هجرية) ثار يحيى، فأرسل الخليفة جيشا لمحاربته بقيادة الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، وزوده بأموال كثيرة، منح منها نصف مليون درهم لأحد قواده الذي ولّاه جرجان كما منح أموالا كثيرة للشعراء الذين امتدحوه.

راسل (الفضل) (يحيى) واستماله وحذره،

وكاتب صاحب الديلم وجعل له مليون درهم كمكافأة على أن يسهل له استسلام يحيى، وحملت إليه، استجاب يحيى للصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه. كتب الرشيد الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة، وعند قدوم يحيى إلى بغداد أمر الرشيد له بمال كثير. وبهذه الطريقة تمت استمالة الثائر الذي آثر السلامة، ويتضح أن الدوافع السياسية تتراجع أمام إغراء السلامة، وأن حب السلطة والمال متبادل بين الحكومة ومعارضيها. وفيما بعد نقض الرشيد كتاب الأمان الممنوح ليحيى، فقد سأل الخليفة القاضي أبا البختري عن رأيه في الأمان فأجاب أن الأمان منتقض، فمزق الرشيد الأمان، وكافأ أبا البختري بتعيينه قاضيا للقضاة.

هكذا لم يحترم الخليفة كلمته وما يترتب عليها من اعتبارات أخلاقية، فقد كان همه البحث عن منفذ لإبطال الأمان كما أن موقف أبي البختري يمالئ السلطة سعيا إلى مرتبة أرفع (22). وفي صراع الرشيد مع منافسيه على السلطة والمال، بطش الخليفة بالبرامكة الذين تحكموا بمفاصل الدولة وتصرفوا بالأموال وقصدهم المحتاجون ومدحهم الشعراء. فقتل جعفر البرمكي وسجن أبوه وإخوته إلى الممات، فلا مجال للمساومة أو العواطف في مسائل السلطة والمال، حتى لو كانوا أصدقاء مقربين. وقد قبض الرشيد من سائر أموالهم 30،660،000 ثلاثين مليون وستمائة وستين ألف درهم إضافة إلى ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورباعهم ورياشهم (23).

وقد عهد الرشيد بالخلافة إلى أولاده الثلاثة، الأمين والمأمون والقاسم.

وكان تقسيم المملكة والثروة بين ابنيه الأمين والمأمون سببا في اندلاع الحرب بينهما، وكان الرشيد قد كتب على لسان الأخوين كتابا، حدد فيه صلاحياتهما وحدود منطقتيهما، وأودعها الكعبة بعد أن أشهد بني العباس عليها، وأخذ عليهما العهود والمواثيق، إلا أن الصراع اندلع بينهما وتطور إلى حرب ضروس. وتعتبر الحرب بينهما تجسيدا للصراع على المال (24). ومن تتبع مجريات الصراع بينهما، نرى أن أنظار الأمين توجهت إلى ما يملكه المأمون واعتبره فائضا عن حاجته وأن فضول الأموال يجب أن ترد إليه، لا إلى أخيه. وطمعا في السلطة ألغى الأمين عهد أخويه وعهد بها إلى ولديه. وقد كان للحاشية ومصالحها دور في تأجيج الصراع. وكان المال محركا لمواقف الجنود وانحيازهم إلى هذا الطرف أو ذاك، فهو الذي يخلق الولاء ويغري بالانتقال من هذه الجبهة إلى الجبهة المعادية. لقد كان هؤلاء الجنود وقودا لحرب لا مصلحة لهم فيها وكان همهم الحصول على الأرزاق كائنا من يكون وليّ نعمتهم. ولم تتورع الحاشية عن استغلال المواقف الصعبة التي وصل إليها الصراع وتغير مواقفها طمعا في الحصول على المكاسب.

المال السياسي في العراق اليوم

وما يجري في العراق الآن من صراع حاد بين قوى تصرّ على إدامة نظام المحاصصة، وبين قوى تدعو إلى قيام نظام مدني ديمقراطي، وبفعل تعمق الصراع الاجتماعي، بازدياد أعداد العاطلين عن العمل، وغياب التنمية في الزراعة والصناعة، وتدهور مستويات الصحة والتعليم والنقل، وانعدام الخدمات؛ يتزايد استخدام المال السياسي بمديات واسعة، وتؤدي استخداماته إلى مزيد من الفساد في مفاصل الدولة.

ويصبح جزء من منظومة الفساد، يساهم في انتشار العنف وتكوين فصائل مسلحة لاستخدامها ضد القوى الرافضة لنهج المحاصصة والفساد، ويقدم صورة مشوهة عن الممارسة الديمقراطية وقيمها . ومن أغراض استخدام المال السياسي منحه للمثقفين والإعلاميين للترويج لسياسات ومواقف أحزاب السلطة، وتتصدر الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي إشاعة مواقفها وأفكارها، وتشويه مواقف الخصم، ولهذه الأهداف تنفق الأحزاب المهيمنة المتسلطة ملايين الدولارات على وسائل الإعلام وعلى المثقفين الذين

يؤازرونها. ولم تغب قضية استخدام المال السياسي عن الأحزاب المدنية الديمقراطية، فنبهت إلى مخاطره. وقد أقر الحزب الشيوعي العراقي في مؤتمره الحادي عشر في تشرين الثاني 2021، الوثيقة المعنونة "قدما نحو التغيير" وورد من ضمن المهام المطروحة فيها: "إبعاد العملية الانتخابية عن سطوة المال السياسي". وفي الموقف من الانتخابات تؤكد قوى التغيير الديمقراطية في وثيقتها السياسية الصادرة في تشرين الثاني 2022 على "منع استخدام المال السياسي وكبح جماح أي محاولة لشراء الذمم والأصوات، والتزوير".

إن منع استخدام المال السياسي لا يتم إلا عبر محاربة منظومة الفساد.

والنظام السياسي القائم على المحاصصة الطائفية والإثنية هو السبب في الفساد وقرينه، وهو بالتالي يعرقل سيرورة الديمقراطية وقيام نظام ديمقراطي سليم، يرتكز على المواطنة والحريات وحقوق الإنسان، ولا حل إلا بالتغيير، وهو الشعار الذي رفعه الحزب الشيوعي في مؤتمره الحادي عشر "التغيير الشامل: دولة مدنية ديمقراطية وعدالة اجتماعية"، وأكد عليه في وثائقه اللاحقة، وهذا التغيير يستلزم تكاتف جهود القوى المدنية والديمقراطية وخوض كفاح صعب وطويل الأمد لإحلال بديلها المدني الديمقراطي.

الهوامش:

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر. المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، 1325 هجرية، ج1، ص 172
(2) ابن العربي، العواصم من القواصم. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1996، ص179
(3) الدينوري، الأخبار الطوال. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ص 218
(4) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1949، ص56 - 58
(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. ج4، ص125
(6) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي. دار صادر بيروت، 1995، ج2، ص 214
(7) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص72 - 73
(8) الدينوري، ص280 - 281
(9) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص80
(10) محمد الطيب النجار، الموالي في العصر الأموي. دار النيل للطباعة، القاهرة، 1949، ص61 - 62
(11) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، 1997، ص227،218
(12) المصدر نفسه، ص.228
(13) الأصفهاني، الأغاني. تحقيق إحسان عباس وآخرين. دار صادر، بيروت، 2008، ج 1، ص265
(14) المصدر نفسه، ج 17، ص 239
(15) المصدر نفسه، ص، 236،234
(16) المصدر نفسه، ج 20، ص 251
(17) أبو الفداء، ج 2، ص 4
(18) الطبري، ج 6، ص 195 - 198
(19) السيوطي، تاريخ الخلفاء. دار الكتاب العربي، د. ت، ص 202
(20) الطبري، ج 6، ص 359
(21) المصدر نفسه، ص 411 - 417؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير. دار الكتاب العربي، 2012، ج 5، ص 260 - 263
(22) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة. دار الأضواء، بيروت، د. ت، ص225-226
(23) الطبري، ج 6، ص 450 - 454
(24) اليعقوبي، ج 2، ص 416

الوطن ذاكرة لا تغفو

قراءة في دور المرجعية الدينية في الحياة السياسية

أحمد الناجي

ثمة - في نظرنا - مسألة لم تحظ بدرس كاف تلك التي تنطوي على تبيان طبيعة العلاقة بين السلطة السياسية والسلطة الدينية (المرجعية)، ومن المفيد الإشارة الى أن التاريخ لا يمكن أن نعيشه مرة أخرى ولا نملك سوى أن نتصوره بمعنى أنه يحدث مرة واحدة ويكتب عدة مرات. وبالنظر لاتساع اشتغال الإنسان في التعرف إلى ماضيه بالاتساق مع طبيعته الاجتماعية راح يعتني بدراسة التجربة الإنسانية على الأرض دراسة شاملة ويعيش دوماً هواجس تشكيل تصوراته عنها، بعين تفيض بالضوء وبصيرة نافذة تهجس أن تصل الى خفايا الأمور. تتشكل الرؤية الثاقبة التي تلتقط كل صغيرة وكبيرة. يأخذنا الباحث عدنان الحسيني في رحلة شيقة بكتابه الموسوم (مائة عام من ذاكرة وطن) الصادر سنة محاولاً تسليط الأضواء فيها على أبرز المواقف السياسية للبعض من المجتهدين منذ الحرب العالمية الأولى حتى منتصف سنة. يضم الكتاب بين دفتيه 316 صفحة معتمداً على مصادر بلغت نحو 114 وقد اشتمل على مقدمة وتمهيد بالإضافة الى خمسة فصول.

وانطوى التمهيد على تقديم ملامح عن أحوال الشيعة أواخر العهد العثماني فضلاً عن العلاقة بين مكونات الشعب العراقي.

فتوى تحريم التنباك..
الدين أداة لتوجيه الرأي العام

اهتم المؤلف بتسليط الضوء نحو حياة بعض المراجع ممن تعاقبوا على (زعامة) الحوزة الدينية أواخر العهد العثماني من أمثال: الشيخ جعفر الجناجي كاشف الغطاء في مدينة النجف، والميرزا محمد حسن الشيرازي الذي ارتبط اسمه بالحوزة الدينية في سامراء، وهو صاحب فتوى تحريم التنباك(2) (التبغ) سنة 1891 ذات الأثر الكبير في استحضار العصيان المدني لمواجهة تغلغل النفوذ الأجنبي، التي أفضت الى ثورة التنباك المشهورة في إيران، وأدت الى افشال منح امتياز زراعة وتجارة التبغ للشركة البريطانية. وبذلك تجلى بوضوح دور الدين في توجيه الرأي العام الذي انعكس في العراق على تعزيز مكانة المرجعية الدينية وابراز دورها. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الحركة الدستورية في إيران المعروفة بالمشروطة سنة 1905 وتركيا التي عرفت بالمشروطية سنة 1908 حيث أسهمت في دفع أعداد من علماء الدين نحو الاهتمام بالشأن السياسي(3). ويرجح في ظني أن المؤلف تقصد الانتقائية في استعراض حوادث بعينها، وكان من الأفضل تقديم نبذة عن كافة المراجع الدينية ممن سبقوا الشيرازي، لاسيما الشيخ محمد حسن النجفي صاحب كتاب (جواهر الكلام)، الذي أوصى قبل موته بتعيين المرجع الأعلى من بعده لأحد تلامذته، وهو الشيخ مرتضى الأنصاري، وكانت سابقة تختلف عما درجت عليه تقاليد المرجعية، علماً أنها لم تتكرر ثانية(4).

الجهاد ضد الاحتلال البريطاني..
استجابة لفتوى شيخ الإسلام في الاستانة

اشتمل الفصل الاول على مرحلة الاحتلال البريطاني، حتى تأسيس الدولة العراقية في آب 1921، لقد ابتدأت حملة القوات البريطانية باحتلال الفاو بتاريخ 6 تشرين الثاني 1914، وواصلت مسيرها نحو بغداد، وانتهت الى احتلال الموصل بتاريخ 10 تشرين الثاني 1918(5)، وتعّد هذه الفترة الزمنية حافلة بوتيرة من الأحداث المتسارعة، ولعل أبرزها كان الاستجابة السريعة من قبل كبار المراجع الشيعية لفتوى شيخ الإسلام بالجهاد ضد الاحتلال البريطاني التي جعلت لهذه الدعوة صدى واسعاً بين مختلف مكونات المجتمع العراقي، مما ساعد على تحشيد أعداد كبيرة من المجاهدين. والحقيقة أن حركة الجهاد مثلت درساً بليغ المعاني، أفصح عن دور شيوخ ورؤساء وأفراد العشائر في مؤازرة توجهات المرجعية الدينية. وليس ثمة أكثر دلالة على ذلك الترابط من مشاركة غالبية العشائر في الفرات الأوسط بأحداث ثورة العشرين، التي حرص المؤلف على تقديم لمحة وافية عنها، وعلى رأسها تشكيل وزارة عراقية برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب، كإحدى المقدمات التي سبقت تأسيس الدولة، واستتبع ذلك بوقفة توضيحية سارداً نبذة موجزة حول (النقيب) أول رئيس وزراء لحكومة عراقية.

التدافع السياسي يفضي الى تحييد دور المرجعية الدينية

تكرست وجهة الفصل الثاني نحو دراسة العهد الملكي (1921-1958)، وسعى فيه المؤلف الى تتبع مواقف علماء الدين من مختلف المذاهب، سيما الشيعة، واختلاف آرائهم المتباينة حول مستقبل الحكم في العراق، التي تجلت خلال الأحداث السياسية، وفي مقدمتها بعض المفاصل التاريخية الهامة مثل انقسام وجهات النظر حول: سياسة المندوب السامي البريطاني، ترشيح فيصل ملكاً للعراق، المعاهدة العراقية-البريطانية، فتاوى منع أبناء الشيعة من دخول المدارس الرسمية وتحريم الانخراط في الوظائف الحكومية، مقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي، التي تمخضت عن تسفير علماء الدين الشيعة (الأربعة) وابعادهم الى إيران(6)، مما أدى في المحصلة الى ابتعاد المرجعية الدينية عن الشأن السياسي مرغمة (بتقديم تعهدات)، وبذلك جسدت فكرة فصل الدين عن السياسة،

وبالتالي التخلي عن دورها على مدى سنوات زادت على ثلاثة عقود، إلا ما ندر، حيث تدخلت في (انتفاضات عشائر الفرات الأوسط، وحركة مايس)، وظلت بعيدة بالرغم من توالي الأحداث المفصلية، ومنها: دخول العراق عصبة الأمم، انقلاب بكر صدقي، مقتل الملك غازي، معاهدة بورتسموث، وثبة كانون، الانتفاضات الجماهيرية، العدوان الثلاثي على مصر، وغيرها.

المرجعية الدينية تعود الى الخوض في غمار السياسة

عني الفصل الثالث بتسليط نظرة فاحصة نحو ثورة 14 تموز، متقصياً عن ردة فعل حلف بغداد، وأحداث كركوك، ومحاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم 7 تشرين الأول 1959، وتدهور العلاقة بين الزعيم والشيوعيين، والصراع بين الأحزاب السياسية في الشارع حول مطلب الوحدة الفورية مع مصر أم الاتحاد الفدرالي، ومن ثم وجه النظر نحو المرجع الديني السيد محسن الحكيم، للإحاطة بسيرته، وتقديم نبذة موجزة عن أجواء تصديه للمرجعية، وعلاقته الودية مع البلاط الملكي التي شابها شيئاً من البرود أواخر العهد الملكي، ومن ثم العلاقة بينه وبين الزعيم قاسم، مشيراً الى أن السيد الحكيم بعدما بارك ثورة 14 تموز في البدء، عاد واتخذ منها موقفاً متشدداً وعمل جاهداً على اسقاط تجربتها الوليدة. الأمر الذي أفضى الى أجواء عدم الاستقرار واحتدام المواجهات بين الموالاة للثورة ومعارضتها في سائر أنحاء البلد. ودفعت المرجعية الدينية مؤيديها الى معاداة الثورة، وتعزيز نشاطها السياسي في مواجهة المستجدات من الأحداث عبر سياقات تنظيمية، فقامت بتشكيل أول تجمع يضم عددا من رجال الدين وطلاب الحوزة الدينية أطلقوا عليه (جماعة العلماء)، وبادروا بعد فترة قصيرة الى تأسيس أول حزب سياسي شيعي بمباركة السيد الحكيم، أطلقوا عليه (حزب الدعوة الإسلامية). وبالمقابل، سعى مؤيدو ثورة 14 تموز من المراجع الدينية ورجال الدين، على الجانب الآخر الى تأسيس (جماعة علماء الدين الأحرار)(7)، حتى بلغ التناحر أشده، ولا يفوتنا التذكير هنا بالإشارة الى ما ورد في أهم كتب المؤرشفين العراقيين حول مادة تنتصر للثورة كتبها أحد القائمين على تأسيس هذه الجماعة وهو الشيخ عبد الكريم الماشطة بعنوان (الشيوعية لا تتصادم مع الإسلام ولا مع القومية(8).) توضح الاستقطاب الطبقي لما اتسعت دائرة معارضة توجهات ثورة 14 تموز التقدمية، التي ضمت كلا من الإقطاعيين والقوى الرجعية وعناصر الأحزاب السياسية القومية، بتعزيز نشاطها في مختلف المجالات، سيما التحشيد الجماهيري باستغلال المناسبات الدينية، على شاكلة: مولد الإمام الحسن (ع) في مختلف المدن الشيعية، ففي بغداد، "تبنى حزب البعث الاحتفال السنوي بذكرى المولد النبوي الشريف، ووزع تعليماً صارماً بضرورة ظهور البعثيين مظهر الحريص على الدين والقائمين بفروضه"(9). وراحت تكبر أفعال المعارضة بموازاة أخطاء مؤيدي الثورة، وبمساندة بعض الدول الإقليمية والدولية، فأتسع الصراع التناحري بين القوى السياسية المختلفة في التوجهات داخل البلد، وتبدى ذلك الصراع بأشكال عنيفة، وتعاظمت الأهوال التي أحاطت بالبلد وثورته الفتية.

فتاوى التكفير واهدار دماء الخصوم السياسيين

يأخذنا المؤلف عدنان الحسيني في كتابه الى جولات ممتعة ومثيرة للاهتمام بين مجريات الحوادث التي تتداخل فيها شجون السياسة مع الدين، يقلب صفحات التاريخ، ينتقل بين فضاءات ذلك الزمن من صفحة الى أخرى، يتقصى، يحلل ويناقش هذا الرأي، ويسأل ذاك، ويسائل نفسه، واضعاً بصمته في آخر المطاف بما يسطره من آراء واستنتاجات على ضوء معلومات غزيرة مسنودة الى مصادرها. ويتوقف في هذا الخضم بعناية متأنية عند قضية

حساسة هي (فتوى التكفير) ضد الشيوعيين التي أصدرها السيد محسن الحكيم وآخرون، يتفحص الأجواء قبل صدور الفتاوى، ويرى أن مرجعية الحكيم ذهبت في حربها ضد الشيوعية حدها الأقصى في تلك الفتوى الشهيرة، الآتي نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا يجوز الانتماء للحزب الشيوعي، فان ذلك كفر والحاد أو ترويج للكفر والالحاد، اعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك، وزادكم ايماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته). وهي مؤرخة بتاريخ 17 شعبان 1379هـ المصادف 12 شباط 1960 (10).وينقل عن لسان السيد طالب الرفاعي تفاصيل الكيفية التي صدرت بها الفتوى، موضحاً تحول منطوقها بفعل فاعل من (حرمة الانتماء الى الحزب الشيوعي) الى (الشيوعية كفر وإلحاد)، وكيف تحولت من فتوى (خاصة) تنطوي على (تحريم الشيوعية كفكرة)، معني بها موجه السؤال فقط الى فتوى (عامة) على حد قول الرفاعي نفسه، وجرى توزيعها على نطاق واسع، وقد تمترست وراءها القوى السياسية المناوئة للثورة، بحيث "تحول البعثيون الى اتباع مخلصين يحملون بيد صورة الفتوى وبالأخرى صورة المفتي"(11). وكتبت على يافطات ملأت كافة الأمكنة من الشوارع والأسواق، وخطت على الجدران، حتى جدران الأزقة الضيقة، استغلت على نحو من البشاعة في تأجيج التناقضات والصراعات الداخلية. وينظر اليها الكاتب عادل رؤوف بقوله: "بغض النظر عن الأسباب التاريخية التي أدت الى المواجهة مع الشيوعيين، إلا أن الملفت هو ما يرتبط بتوقيت الفتاوي التي صدرت ضد الشيوعيين، فهذا التوقيت لم يكن توقيتاً عفوياً، الأمر الذي يشير الى اختراق هذه المؤسسة في بعض قراراتها وخطواتها التي قد تكون لها أثار في إذكاء حدة التناقضات الداخلية" (12).

ظلت مرجعية السيد الحكيم الدينية تسير في الاتجاه المعادي للثورة، حيث اتخذت موقفاً مناوئاً من القرارات الثورية التي نظرت أولاً الى مصالح أغلبية الشعب، وأسهمت في احداث تغييرات جذرية في طبيعة المجتمع العراقي، وأبرزها: أولاً: إلغاء قانون دعاوي العشائر الذي أصدرته قوات الاحتلال البريطاني سنة 1916. وجاءت هذه الخطوة المهمة بحسب المرسوم الجمهوري رقم (56) في 27 تموز 1958، والهدف منه تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين(13). ثانياً: قانون الاصلاح الزراعي رقم (30) الذي شرع في 30 ايلول 1958(14)، الذي نشد القضاء على الإقطاع وازالة نفوذهم ورفع مستوى الفلاحين بما يؤمن معيشة كريمة لهم، الى جانب رفع الانتاج الزراعي. ثالثاً: قانون الأحوال الشخصية المرقم 188 لسنة 1959(15)، وكان خطوة متقدمة على صعيد تنظيم العلاقات الأسرية، والتقريب بين المذاهب الإسلامية، وتوحيد العمل القضائي في العراق. وغير ذلك الكثير من الانجازات، ولا بد من الأخذ بنظر الاعتبار عامل آخر، يتمثل في العلاقة المتدهورة بين الحكومة العراقية وإيران التي كان لها تأثير على موقف المرجعية(16)، بحكم كون البرقية التي أرسلها شاه إيران للسيد الحكيم معزياً بوفاة المرجع الديني السيد حسين البروجردي (1875-1961)، لها أكبر الأثر في تعزيز مكانته واختياره لتولي الزعامة المطلقة للحوزة الدينية، كما ذكر شاه ايران ذلك في لقائه مع الدكتور عبد الرزاق محيي الدين (وزير الوحدة خلال الحكم العارفي)(17). ومادام الشيء بالشيء يذكر، دعونا نتأمل ما أفاد به هذا الوزير القومي، حين قال: "للسيد الحكيم الدور الكبير في إسقاط حكومة عبد الكريم قاسم ومجيئ البعث للسلطة، فقد كان هناك تنسيق عالي المستوى بين السيد وبين القياديين في البعث فاتك الصافي ومحسن الشيخ راضي، وما تلا ذلك من إعدامات لآلاف العراقيين بحجة انتمائهم للحزب الشيوعي بفتوى الشيخ الخالصي وتأييد السيد الحكيم"(18). ويرى باقر إبراهيم، وهو أحد قادة الحزب الشيوعي آنذاك: "كان من نتائج الفتوى تقسيم المجتمع لا توحيده، وترجيح كفة قوى الردة. لهذا فأن وسطاً مهماً من الشخصيات

الدينية، قد نأت بنفسها عن تأييدها"(19). ولا يخفى أن المواقف المتباينة في التوجهات بين مولاة الثورة ومعاداتها، كانت تستبطن الصراع على زعامة المرجعية العامة في النجف بين اثنين من كبار المراجع الدينية، هما كل من: السيد محسن الحكيم والسيد حسين الحمامي(20)، الذي تبنى موقفاً رافضاً لاصدار فتوى ضد الشيوعية(21).

انقلاب 8 شباط الدموي..
ثمرة مُرّة لفتاوى التكفير

ينطوي الفصل الرابع، على توجيه إضاءة نحو العهد العارفي، مشيراً في البدء الى أن الانقلاب الدموي 8 شباط 1963، واجه مقاومة في مناطق متفرقة من مدينة بغداد، وبعض المدن العراقية الأخرى، لكن المواجهات حسمت خلال يومين لصالح الانقلابيين. وانعكست فتوى التكفير في بيان رقم (13) سنة 1963 الصادر عن الحرس القومي، وكان ذلك ايذاناً ببداية فترة كارثية سوداء، حيث شنت منذ اللحظات الأولى حملات الاعتقال والتصفية الجسدية، وطالت الاعدامات نخبة من قيادات ثورة 14 تموز، في مقدمتهم الزعيم عبد الكريم قاسم، فضلاً عن أعداد كبيرة من الشيوعيين والأبرياء.

واصل المؤلف مباحثه ملقياً إضاءات وافية على دور مرجعية كل من الشيخ محمد مهدي الخالصي في الكاظمية والسيد محسن الحكيم في النجف خلال تلك الفترة، مبيناً في البدء موقف الشيخ الخالصي الذي تبدى جلياً في مساندة الحرس القومي، وهي قوات شعبية مساندة للانقلاب الدموي، وأنه كان على علم بالانقلاب، وشارك في كل الأعمال والانتهاكات التي ارتكبت بحق المعارضين المدنيين بتهمة الشيوعية، وحظيت مدرسة الخالصي الدينية في الكاظمية سنة 1965 بزيارة الرئيس عبد السلام عارف، وتبرعه بمبلغ مالي لدعمها.

يولي المؤلف عناية فائقة بتمحيص الوقائع في تلك المرحلة الزمنية، فمر على حركة حسن سريع بتاريخ 3 تموز 1963، وهو شيوعي برتبة نائب عريف في الجيش العراقي، وجاءت ردة فعل قادة انقلاب 8 شباط الدموي بعد فشلها تحمل غرابة التفنن في تهيئة مجزرة بشرية رهيبة، يعدها المؤلف واحدة من المعطيات التي شرعت لها فتاوى التكفير، عرفت بـ(قطار الموت)، وهو مشهد تراجيدي اقترب الموت فيه الى رجال من خيرة أبناء البلد، من الضباط والكوادر المدنية، بلغ عددهم نحو (550) سجينا سياسيا، مصفدة أياديهم بالقيود، حيث جرى نقلهم في الصيف الملتهب يوم 4 تموز 1963، بعربات قطار شحن البضائع، الى مدينة السماوة، لإيصالهم من هناك الى سجن نقرة السلمان الصحراوي، وكانوا جميعاً مهددين بالموت اختناقاً، لولا مغالبة سائق القطار الراحل (عبد عباس المفرجي) مع الريح في اسطورة بطولية نادرة. ويعود المؤلف الى إلقاء نظرة سريعة نحو مرجعية السيد محسن الحكيم، وهو يتقصد بمراميه الاستبيان ثانية عن حقيقة فتاوى تكفير الشيوعيين من خلال عنوان فرعي (التكفير يتجدد)، والخلاصة أنه نقل عن عدة مصادر، ما أفاد به الضابط عبد الغني الراوي، أحد قادة انقلاب 8 شباط 1963 الذي ترأس المحكمة الشكلية في دار الاذاعة، والمسؤول عن تنفيذ أحكام الاعدام بحق قادة ثورة 14 تموز يوم 9 شباط، أنه استحصل على فتاوى جديدة من: السيد محسن الحكيم والشيخ محمد مهدي الخالصي، والسيد نجم الدين الواعظ مفتي العراق، كانت تجيز القتل، تطبيقاً للشريعة الإسلامية بحق الآلاف من الشيوعيين ممن وقعوا في قبضة السلطات الأمنية، وعلى وجه التحديد في سجن نقرة السلمان، ولم يجر تنفيذ تلك الأحكام الكارثية آنذاك بفضل طه جابر العلواني إمام جامع حسينية الباجه جي بمحلة أبو أقلام في الكرادة الشرقية، الذي أسدى نصيحة الى عبد الغني الراوي، وأشار عليه أن لا يذهب لتنفيذها(22). وأود هنا الإشارة الى كون الاستاذ عدنان الحسيني مؤلف الكتاب لم يصرف النظر عن وجهة نظر السيد طالب الرفاعي المغايرة عما هو شائع، حيث ينفرد بها عن بقية

المصادر في تكذيب عبد الغني الراوي، بل وضعها على طاولة النقاش، يتفحص الآراء التي تناقضها وتختلف معها، مبيناً كافة وجهات النظر، مرجحاً المعلومة التي أدلى بها الراوي حول حصوله على تلك الفتاوى من المراجع.

يعرج المؤلف في سياق مشواره البحثي هذا، بالاعتماد على بعض المصادر، حيث تنقل ما يفيد أن السيد محسن الحكيم بعث وفداً ضم الشيخ علي الصغير ونجل الحكيم السيد مهدي الى بغداد يطالب فيه بوقف القتل والعنف ضد الشيوعيين وإلغاء قانون الأحوال الشخصية. واستمرار المجازر دفع المرجع السيد الحكيم عندما زار بغداد وهو في طريقه الى سامراء الى التعبير عن انزعاجه حول ذلك أمام رشيد مصلح الحاكم العسكري العام. ويرد المؤلف على هذه المعلومة بأن هذا التحرك كان متأخراً الى أبعد مدى، حيث أزاح عبد السلام عارف حزب البعث عن السلطة بعد عشرة أيام من عودة السيد الحكيم من تلك السفرة الى النجف، إذ استغرق البعث ما ارتكبه من مجازر أمداً بلغ تسعة أشهر، ولكن المؤلف راح مستدركاً في تعليقه، قائلاً: أن تأتي متأخراً خير من أن لا تأتي أبداً، والمفارقة المثيرة استمرار مسلسل القتل بحق الشيوعيين، عبر تنفيذ أحكام اعدام سياسية صادرة في عهد البعث. ثمة تفصيلات أخرى في الحياة السياسية جاءت ضمن مباحث هذا الفصل، يمكن للقارئ متابعتها، مثل طائفية عبد السلام عارف، رفض السيد الحكيم اصدار فتوى تدين الجرائم التي ارتكبها الحرس القومي، واقاويل محاولة إسقاط نظام الحكم بعد نكسة حزيران 1967، فشل رجال الدين في تأسيس جمعية العتبات المقدسة، كذلك الاتهام الفاضح بالنفاق الذي وجهه (محسن الشيخ راضي) أحد القادة البعثيين آنذاك في مذكراته، وطال بعض رجال الدين، ممن كانوا في خصومة مع الشيوعيين واندفعوا للانتقام منهم، بل والأزيد من ذلك، حدد مرجع ديني بعينه كان يتلقى تموينا أجنبيا من مشروع النقطة الرابعة الأمريكي(23). عند ذلك المفصل التاريخي، وبعد استيلاء عبد السلام عارف على السلطة وطرد البعثيين ساءت العلاقة أكثر بين الحكومة ومرجعية النجف، بسبب الميل الطائفي لعارف، ومحاولات المرجعية فرض إرادتها على السلطة الجديدة لذلك مرت العلاقة بين الشد والجذب، وتخللتها مواجهات. ولعل أبرزها تلك التي غفل عن ذكرها المؤلف للأسف، وهي الموقف من قرارات التأميم للشركات الخاصة التي صدرت منتصف سنة 1964، واستهدفت الرأسمال الشيعي حصراً بحسب فهم المرجعية الشيعية(24). اتفقت أغلب المصادر على أن العلاقة بين عبد الرحمن عارف والمرجعية كانت جيدة وأنه كان متساهلاً، ولم تحدث اصطدامات مع السيد محسن الحكيم، بل أظهر شكره وتحياته لعبد الرحمن عارف لرعايته رجال الدين واهتمامه بشؤون المسلمين. إلا أن ذلك كله لا يمنع من القول بوجود بعض الخلافات، منها مثلاً: حول حرب الجيش العراقي ضد الأكراد العراقيين(25). ولهذا خلص المؤلف في ختام هذا الفصل الى أن العلاقة قد تحسنت بين حكومة عبد الرحمن محمد عارف ومرجعية الحكيم، مشيراً الى وصف السيد مهدي الحكيم بكونها من أفضل الفترات التي مر بها العراق بعد ثورة 14 تموز 1958. مما ساعد على بناء جسور الثقة بين الحكومة والسلطة الدينية، نافياً ما تردد في بعض المصادر من ادعاء تلفيقي حول الحراك الإسلامي الذي أعقب نكسة حزيران 1967 للإطاحة بنظام الحكم.

عودة البعث للسلطة وتجليات زيف تحالفه مع المرجعية الدينية

تناول الفصل الخامس والأخير من هذا الكتاب الفترة من (1968-1979)، (عودة البعث) ابتدأت (الجمهورية الرابعة) بانقلاب 17 تموز 1968 الذي نفذ من قبل تحالف بين حزب البعث مع جناح من القيادات العسكرية في نظام عارف، تمكن البعث من اقصاء هذا الجناح عن السلطة في 30 تموز، ويشير المؤلف الى أن السيد مهدي نجل المرجع الحكيم، قد ذكر: كان

لدينا علم حقيقي بأن البعثيين سوف يأتون للحكم(26). والمعروف أن البعثيين قبل استيلائهم على السلطة أرسلوا من يمثلهم الى السيد محسن الحكيم، كما جرى في اتصال مماثل قبل انقلاب 8 شباط 1963. وفي هذا الصدد، أجد أن من المهم ذكر كون السيد مهدي نجل المرجع على علاقة وطيدة بالبعثيين، وعلى العموم بقوى الاتجاه القومي قاطبة، وهناك تنسيق على وجه الخصوص مع القيادات البعثية، وقد شهدت الأشهر الأولى من عمر البعث زيارة كل من البكر وعماش الى المرجع الحكيم في النجف، وكانت مساعيهم تتجه للحصول على دعم المرجع لمنع ايران من دعم الحركة الكردية، لكن السيد الحكيم رفض اصدار مثل تلك الفتوى لاعتبارات دينية. بدأت العلاقة بين حكومة البعث والمرجعية تأخذ شكلاً جديداً، بعدما ظهر الوجه الحقيقي للبعث ساعياً الى فرض الهيمنة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فتعددت المواجهات بينهما، وقد حاولت المرجعية توظيف المناسبات الدينية في شجبها، ذلك ما جرى في الاجتماع الجماهيري المنعقد بتاريخ 13 أيار 1969 في الصحن الحيدري، وتضمن خطاب السيد مهدي الحكيم نيابة عن والده، تبيان مآخذ المرجعية على الحكومة. والشيء نفسه حصل من المرجع السيد الحكيم نفسه، لما توجّه الى بغداد بتاريخ 30 أيار 1969، أثناء لقاءاته بالمسؤولين الحكوميين. والمفارقة اللافتة جاءت بعد مضي أسبوع على تلك الزيارة، حين بث تلفزيون بغداد اتهاماً للسيد مهدي الحكيم بالتجسس لصالح المخابرات الأمريكية الذي كان خارج العراق حينها، وقد جاء ضمن اعترافات أدلى بها مدحت الحاج سري، أمين العاصمة، من دون أن يغفل المؤلف عن التشكيك بصدقية تلك الاعترافات، والتنويه الى أنها جاءت تحت التهديد بانتهاك العرض، وهذه الوسيلة مورست سابقاً، إذ يمتد صداها الى أيام انقلاب 8 شباط 1963، وقد فتحت المجال أمام المؤلف -لا أظنّ أن أحداً سيختلف معه - على سرد أساليب الأجهزة الأمنية المعروفة في التعذيب لانتزاع الاعترافات، كما تناولتها المصادر العديدة من قبل النظام البعثي الاستبدادي. ومن ثم ذهب الى المرور مرة أخرى على أحد أساليب الحكم البعثي في مواجهة خصومه بـ(سلاح الفتاوى الدينية)، حيث جرى في تلك الآونة تسويق فتوى السيد محمد الحسني البغدادي ضد السيد مهدي وآخرين التي جاء فيها (هؤلاء جواسيس تقطع أيدهم وأرجلهم من خلاف)... وإزاء هذه التطورات يصبح من الضروري أن نوضح أصداء التهمة الموجهة الى نجل الحكيم بالعمالة للأجنبي على كل من المرجع الأعلى والشيوعيين، فقد احتجب السيد محسن الحكيم الناس وتوقف عن الصلاة في الصحن الحيدري، بينما نكأت هذه التهمة جراحات الشيوعيين العراقيين، وحفزتهم على استحضار صور المئات من الشهداء بعد انقلاب 8 شباط، وليس مستغرباً استعادة أجواء (فتوى التكفير) المقترنة بتعاون السيد مهدي وميله الى كفة من نصبوا أعواد المشانق وأقاموا المجازر في كافة أنحاء العراق، ومثولها فوق طاولة اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المنعقد في كانون الأول 1969، والحزب آنذاك لا يزال يمارس العمل السري، فتضمن تقرير ذلك الاجتماع ما يشير الى أن السيد مهدي أحد أقطاب الرجعية، وأحد المحرضين البارزين على اقامة المذابح ضد الشيوعيين والديمقراطيين. ويرى المؤلف بصرف النظر عن قناعة الشيوعيين بكون التهمة ملفقة تماماً، إلا أنها كانت فرصة مناسبة للرد المتأخر على توجهات المرجعية في تلك الحقبة. يمضي المؤلف في تفحص حوادث مطلع سنوات السبعينيات بدقة، فيتوقف ملياً عند محاولة عبد الغني الراوي الانقلابية (كانون الثاني 1970)، والتي تمتد خيوط التخطيط لها الى إيران، حيث مكان الاجتماعات كان البيت المخصص للسيد مهدي الحكيم في طهران، والأمر الذي لاشك فيه وجود علم مسبق عند المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم الذي خطفته يد المنون بعد أشهر معدودة في بغداد بتاريخ 1 أيار 1970، وينقل -دون ذكر المصدر- ما شاع في أوساط الحوزة الدينية في النجف حول ندم

السيد الحكيم أواخر حياته على اصدار فتواه بتكفير الشيوعية والشيوعيين، وهكذا فقدت عائلة السيد الحكيم الزعامة الدينية بعد أن كان المرتجى أن ينال آية الله السيد يوسف الحكيم خلافة والده، وذلك بسبب وجود من هو أعلم منه، وعلينا أن لا ننسى القول بأن السيد مهدي الحكيم قد اغتيل سنة 1988 في السودان من قبل المخابرات العراقية. سعى المؤلف الى تقديم عرض تاريخي يتتبع فيه أحداث عقد السبعينيات على نحو من التوضيح، فأطال وقفته عند ما جرى من تفصيلات، والشيء المثير للدهشة أنه أغفل النظر نحو تداخلات المرجعية الدينية والتحولات الحاصلة في زعامتها، وفي مقدمتها السيد أبو القاسم الخوئي (1899-1992) الذي برز دوره بقوة عقب رحيل السيد الحكيم، فاصبح هو المرجع الأعلى. ولكنه حرص على الاهتمام بتسليط الضوء على حركات الإسلام السياسي (حزب الدعوة الإسلامية). وبدأ في هذا المشوار بالقرارات الثورية (التقدمية) التي اتخذتها حكومة حزب البعث منذ سنة 1968، في محاولة للتبرؤ من أثام الماضي، تجلت في اطلاق سراح السجناء السياسيين، واعادة المفصولين للوظائف وتحويل العسكريين منهم الى وظائف مدنية، والاعتراف بألمانيا الشرقية، ومعاهدة الصداقة العراقية السوفيتية 1972، وتفاهمات حول العمل الوطني المشترك التي أفضت الى بيان 11 آذار 1970، ومن ثم اتفاق الجبهة الوطنية 1973، وقوانين مستوحاة من تجربة البلدان الاشتراكية تخص التعاونيات الزراعية وتعديلات على قانون الاصلاح الزراعي والتجارة الداخلية والخارجية والقطاع العام (الاشتراكي) متوجة بقرار تأميم أعمال شركة نفط العراق في 1 حزيران 1972، وبموازاة تلك الانجازات تقصى أيضاً عن التوجهات البعثية لتعزيز سلطة الحزب الواحد والتفرد بالحكم في جميع مفاصل الدولة، متناولاً سياقات التبعيث التي طالت التعليم وبقية المرافق الهامة، وتشكيل منظمات مهنية لكافة قطاعات المجتمع العراقي يسيطر عليها حزب البعث، وعسكرة المجتمع. وتناول خلال هذا الاستعراض، فشل محاولة ناظم كزار بتاريخ 30 حزيران 1973 في التخلص من الصف الأول من القيادة البعثية، واغتيالات طالت كوادر متقدمة في الحزب الشيوعي من أمثال: محمد الخضري وستار خضير، فشل المحاولة المخابراتية في اغتيال الملا مصطفى البارزاني بتاريخ 29 أيلول 1971 عبر تفخيخ الزي الديني للوفد الاسلامي المؤلف من مجموعة من علماء الدين، والذي ذهب بغية تكريس العلائق الودية مع كردستان، واعدامات ناشطين شيعة على أثر صدامات مع أجهزة السلطة في منطقة (خان النص) خلال زيارة الأربعين في شباط 1977، كل تلك الممارسات الاستبدادية، وغيرها التي حولت حزب البعث من حزب عراقي الى حزب مناطقي ثم عائلي. وفي نهاية المطاف يهيمن شخص واحد على السلطة بصورة فردية، ويتحكم بمقدرات البلد وفق اهوائه، سيما نزعة إلغاء الآخر المختلف، حيث اتجهت الاجهزة الأمنية وجلاوزة النظام بالحديد والنار الى تحييد الناس عن العمل السياسي معززة بتشريعات قانونية (قانون رقم 200)، وشن حملات اعتقالات وتصفيات جسدية لأعضاء كافة الأحزاب السياسية في العراق. ويتحتم علينا التذكير هنا، بأن الفرصة قد فاتت على المؤلف بتبيان الأجواء الحوزوية الحافلة بالمواقف السياسية بعد مجيء السيد الخميني الى العراق، والذي تواجد للمدة من 5 تشرين الأول 1965، حتى مغادرته الى باريس في 6 كانون الأول 1978، وهي فترة حافلة باتخاذه عديدا من المواقف تجاه الأحداث والتطورات الداخلية والخارجية في الحياة السياسية.

وأجدني ملزماً بعيداً عن المحاباة بالإشادة فيما بذله المؤلف من جهد لإظهار كتابه بما يليق، وكان واضحاً في موقفه النقدي، مستقلاً في فكره السياسي، ولهذا ظل محايداً وموضوعياً، وتبقى دعوتي مفتوحة إلى قراءة الكتاب، لإشراك المتلقي بما نلته من فائدة، وما أحسسته من متعة.

الهوامش:

(1) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج3، مطبعة الشعب، بغداد، 1972، ص95
(2) المصدر نفسه، ص 116
(3) المصدر نفسه، ص 86
(4) أحمد الناجي، من أوراق البريطاني للعراق 1914 - 1918، دار الصادق، الحلة، 2005، ص15، 78
(5) وجاء ذلك بسبب مقاطعة الانتخابات منتصف سنة 1923، واشترطت الحكومة مقابل عودتهم تقديم تعهد بعدم التدخل في السياسة، وعادوا الى العراق بتاريخ 22 نيسان 1924. ينظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، مج1، ج1، منشورات مطبعة دار الكتب، بيروت، 1978، ص169
(6) أحمد الناجي، الشيخ عبد الكريم الماشطة، أحد رواد التنوير في العراق، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2019، ص68
(7) كوركيس عواد، معجم المؤلفين العراقيين، مج2، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1969، ص313؛ حميد المطبعي، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996، ص149
(8) حسن العلوي، العراق دولة المنظمة السرية، ط1، منشورات روح الأمين، إيران، 1426هـ، ص22
(9) محمد سعيد الطريحي، الشيعة والشيوعية مساجلات في الدين والماركسية، مج1، لاهاي، 2011، ص101
(10) العلوي، ص22
(11) عادل رؤوف، عراق بلا قيادة، ط8، دمشق، المركز العراقي للإعلام والدراسات، 2004، ص139
(12) مجموعة من المؤلفين، تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري 1958 - 1968، ج1، ط1، بيت الحكمة، بغداد، 2000، ص128 - 129
(13) طه ناجي، ثورة العراق المجيدة 14 تموز 1958 والرهان على العسكر، دار الفرات للطباعة، بابل، 2009 ص104 - 105
(14) مجموعة من المؤلفين، تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري، ج3، ط2، بيت الحكمة، بغداد، 2005، ص395
(15) المصدر نفسه، ص400
(16) عبد الرزاق محيي الدين، الأعمال الكاملة ج4، ط1، جمع وتحقيق: أوس محيي الدين ومحمد علي محيي الدين، دار الفرات للثقافة والإعلام، الحلة، 2019، ص376
(17) المصدر نفسه، ص377
(18) باقر إبراهيم، مذكرات باقر إبراهيم، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2002، ص92 - 93
(19) رشيد الخيون، أمالي السيد طالب الرفاعي، ط1، دار مدارك للنشر، بيروت، 2012، ص127
(20) الطريحي، ص112
(21) رشيد الخيون، "فتاوى قتل لآلاف السجناء تموز 1963"، جريدة الزمان اللندنية، بتاريخ 4 تموز 2021؛ كذلك: رشيد الخيون، "قصة تعطيل فتاوى كادت تهدر دماء آلاف الخُصَماء السياسيين"، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، العدد 9613، بتاريخ 24 آذار 2005
(22) محسن الشيخ راضي، كنت بعثياً، ج1، تحرير وتقديم: طارق مجيد تقي العقيلي، دار الكتب العلمية، بغداد، 2021، ص220
(23) عبد الرزاق محيي الدين، ص377
(24) المصدر نفسه، ص378
(25) رشيد الخيون، أمالي السيد طالب الرفاعي، ص323
(26) رشيد الخيون، مائة عام من الإسلام السياسي بالعراق (الشيعة)، ج1، مركز المسبار، دبي، 2011، ص109 - 110

نصوص قديمة

لا اشتراكية بدون ديمقراطية

ولا ديمقراطية راسخة دون عدالة اجتماعية *

حمدان يوسف

انتهى الوقت الذي كان يوصف بأنه مرحلة الانتقال الى الاشتراكية، ومرحلة الحرب الباردة والصراع ذي القطبية الثنائية. وفيه لم يكن فهم أي حدث وتفسيره ممكناً إلا من هذه الزاوية.

أما اليوم، بعد عقد على انهيار المعسكر الاشتراكي، وهيمنة القطب الأوحد ونظامه العالمي الجديد، الذي أعلن الرئيس بوش قيامه مع عاصفة الصحراء لتحرير الكويت - مع هدف تدمير العراق - فقد اضحت كل الامور تجري تحت شعار العولمة، وأضحت الديمقراطية وحقوق الانسان رايتها. ويراد الإيهام بأن الديمقراطية وحقوق الانسان صنوان ملازمان للرأسمالية بالجوهر، وبأن "الشمولية" ملازمة للاشتراكية. فيقال ان الديمقراطية هي المفتاح السحري لكل القضايا والمشاكل.

فننسى النظر الى الديمقراطية كسيرورة تاريخية، فديمقراطية اثينا غير ديمقراطية اليوم، وهذه الاخيرة ليست هي خاتمة المطاف ولا نهاية التاريخ. وبدون النظرة التاريخية تغيب عنا حقيقة ان حتى الديمقراطية الغربية هي اليوم ليست كما كانت قبل التجربة الاشتراكية الاولى، ولا كما كانت عليه في الخمسينات والستينات، أيام التمييز العنصري ضد الزنوج في امريكا، وأيام المكارثية ومعاداة الشيوعية في ذروة الحرب الباردة.

وهل ننسى السياسة الاستعمارية للديمقراطيات الغربية؟ فبدون هذه النظرة التاريخية نطمس الدور الفعال لنضالات الحركة الجماهيرية، ودور الحركات الماركسية، من اشتراكية ديمقراطية وشيوعية في فرض تطبيق الكثير من الحريات والحقوق الديمقراطية، التي تتباهى بها الدول الغربية اليوم، رغم انها بدأت في التراجع عن الحقوق الاجتماعية الديمقراطية بعد زوال الضغط الذي كان حاصلاً لمجرد وجود المعسكر الاشتراكي. فالبابا بولص الثاني كان له دور كبير جداً في تهيئة الاجواء للقوى المناهضة للمعسكر الاشتراكي. لكنه يعلن اليوم ان التغييرات التي طرأت على الرأسمالية ذاتها انما "يرجع الفضل فيها والى حد كبير الى تأثيرات التفكير الاشتراكي".

وتبدو الحريات الديمقراطية المتوفرة اليوم في بلدان الديمقراطية وكأنها جزء عضوي من النظام الرأسمالي، بينما لم تكن حتى بضعة عقود خلت معترفاً بها في تلك البلدان، مثل حق الانتخاب المباشر المتساوي السري، حق

التجمع في نقابات او احزاب علنية، حق الاجتماع السلمي والتظاهر، حق الاضراب.
فلم ينل الناس هذه الحقوق إلا بفضل نضالات الحركة العمالية. وهكذا صار الاحتفال بالأول من ايار وبيوم المرأة العالمي مثلاً احتفالاً رسمياً أو شبه رسمي، بينما كان لعهد ليس بالبعيد من الاحتفالات الممنوعة في الكثير من البلدان، لأن الاحتفال بهما بدأته الحركة الماركسية الثورية، وبقي لفترة طويلة شكلاً نضالياً تلاحقه قوى القمع في كل البلدان قبل أن يتحول الى ما يشبه الطقوس للحركة الشيوعية وبلدان المعسكر الاشتراكي، ويتحول في البلدان الرأسمالية من يوم نضال الطبقة العاملة لفرض حقوقها الى يوم عيد العمل.
وفي بداية تطبيقات الديمقراطية مع الثورة الفرنسية كانت المطالبة بالمساواة تقتصر على المساواة في الحقوق والحريات السياسية، لكن مع نمو الحركات الاشتراكية اتسعت المطالبة لتشمل المساواة الاجتماعية أيضاً. وانعكس هذا التوسع للمطالب الديمقراطية في تسمية الحركة الاشتراكية باحزابها باسم الحزب الديمقراطي الاجتماعي، يوم لم تعد تستطيع استخدام الشيوعي أو الاشتراكي، والذي ترجم الى الحزب الاشتراكي الديمقراطي.
وهذه الترجمة التاريخية ينبغي الاحتفاظ بها، بدل محاولات ترجمتها مجدداً الى الحزب الديمقراطي الاجتماعي. والى هذه الحقيقة اشار رئيس جمهورية المانيا الغربية عند انهيار المعسكر الاشتراكي بقوله: "ان الكثير من المكتسبات الديمقراطية والاجتماعية في المجتمعات الغربية تحققت بفضل نضالات الحركة العمالية الثورية".
فهي التي رفعت شعار المساواة والحرية والديمقراطية وهي التي ناضلت في سبيل توسيع حق الانتخابات الديمقراطية ليشمل جميع المواطنين، وطالبت بحقوق المرأة وحق الشعوب والقوميات المستعمَرة في الاستقلال وتقرير المصير، كما طالبت بتحقيق الفرص المتساوية للجميع في التعليم والصحة. لقد طالبت بالديمقراطية وبتطوير ما تحقق من ديمقراطية في البلدان الغربية.
كان لينين يدعو لأن تكون الديمقراطية السوفيتية أكثر ديمقراطية من الديمقراطية البورجوازية. وحذر من نشوء وتسرطن البيروقراطية السوفيتية.
كان يعتقد "ان من مستلزمات الشيوعية اقامة سلطة السوفييت باعتبارها جهازاً سياسياً يتيح لجماهير المضطهدين فرصة اتخاذ جميع القرارات بأنفسهم. وبدون مثل هذه الديمقراطية لا يمكن تصور الشيوعية.
فليس مصادفة ان الحركة الشيوعية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقبل بدء الحرب الباردة صار شعارها: (في سبيل ديمقراطية شعبية في سبيل سلم وطيد)"، وكانت التنظيمات التي تأسست بمبادرة او مباركة الحركة الشيوعية أو تبنتها كانت توصف بالاتحادات الديمقراطية: اتحاد الشبيبة الديمقراطي العالمي، اتحاد النساء الديمقراطي العالمي، اتحاد العلماء الديمقراطيين العالمي، وليس ببعيد الزمن الذي كانت فيه القوى الرجعية، وبينها العربية والاستعمارية، ترى في الديمقراطية والشيوعية شيئاً واحداً. فكانت تحارب الحركات الديمقراطية وتتهم الديمقراطيين بالشيوعية لكن تطبيقات المعسكر الاشتراكي بتغييب الرأي العام الديمقراطي باسم دكتاتورية البروليتاريا والمركزية الديمقراطية كشف عن مفارقة صارخة.
فالحركة العمالية الثورية التي كان هدفها ان يحل "بدل المجتمع البرجوازي القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية تجمع يكون فيه التطور الحر لكل فرد فيه الشرط للتطور الحر للجميع"، انتهت الى مجتمع يتحكم فيه جهاز الأمن وتقوده مجموعة صغيرة من العجزة،

تسمرت حتى الموت في المكاتب السياسية.
ومع اشتداد الحرب الباردة من قبل الغرب، ومعها اشتداد الميول الستالينية لفرض النظام السوفيتي شكلاً وحيداً للبناء الاشتراكي، اختفى شعار الديمقراطية الشعبية، بل الديمقراطية، ليحل محله صنم "دكتاتورية البروليتاريا". فتخلى الشيوعيون الألمان مثلاً عن برنامجهم الذي رفعوه بعد انتهاء الحرب مباشرة، واعلنوا فيه خطأ فرض النظام السوفيتي على المانيا لأنه لا يتفق مع ظروف تطور المانيا، وان ما تحتاجه المانيا هو: اقامة نظام ديمقراطي، معادي للفاشية، اقامة جمهورية برلمانية - ديمقراطية تضمن فيها جميع الحريات والحقوق الديمقراطية. وقد تكمن بوادر هذا التراجع لدى لينين نفسه، بعد عامين ونصف من ثورة اكتوبر عندما اعلن، تحت تأثير وقائع الحكم او تأثير الفئة البيروقراطية السوفيتية، ان دكتاتورية البروليتاريا لا تحققها الجماهير وانما أقلية، نخبة من الثوريين، اطلق عليها الطليعة لتكون مقبولة، إذ ان تعبير النخبة يتناقض من حيث الجوهر مع ديمقراطية الفكر الاشتراكي، القائل بالجماهير لا النخبة هي القوة المغيرة في التاريخ.
لقد عاد الى الصدارة شعار النضال في سبيل حقوق الانسان والديمقراطية، الذي ناضلت الحركات الديمقراطية الثورية أساساً من أجله فيما مضى، تحت شعار النضال في سبيل الحريات والحقوق الديمقراطية، قبل أن يتبلور مصاغاً في الاعلان العالمي لحقوق الانسان، بل ان لازمة نشيد الاممية في النص الالماني تؤكد على ان "غد الاممية ينتزع حقوق الانسان"، ونصه العربي يقول "غد الاممية يحرر البشر".
كم من المفيد العودة الى التعرف على ما في تراث الحركة الثورية من نضال في سبيل الديمقراطية وحقوق الانسان كي لا نكتفي برفض الاساليب اللا ديمقراطية التي اتسمت بها دول الاشتراكية البيروقراطية وننسى سوءات الرأسمالية، فننجرف في السيل الغالب اليوم، الذي يريد طمس كل ما في تاريخ الحركات الديمقراطية من ايجابيات، ساعياً بتضخيمه السلبيات فقط الى ان يهيل التراب على كل التجربة التاريخية ويجعلنا نتصرف كأن الرأسمالية المنفلتة هي حقاً نهاية التاريخ، وكأن شرط الديمقراطية وصنوها الملازم على الدوام هو حقاً اقتصاد السوق الرأسمالية، وان لا خطر من ظهور فاشية جديدة فيها.
لم يعد اليساريون "المتحجرون، المتكلسون، العقائديون" وحدهم يرون سوءات النظام الرأسمالي ومخاطره على الديمقراطية نفسها، فتقرير منظمة الأمم المتحدة عن التقدم البشري يكشف ان ثروة ثلاثة أفراد فقط تعادل ستمائة مليون فرد، أي ان تغييرات العولمة تضيف مزيداً من السلطة لافراد، وليس "للافراد عموماً" كما يستخلص فوكوياما. فتلك التغييرات تؤثر على الديمقراطية بعمق سلباً وليس ايجابياً فقط.يضطر حتى فوكوياما ليتساءل عن مستقبل الديمقراطية الليبرالية وعما ان كانت ستبقى مستقرة، وتستطيع التوسع الى الدول التي ما تزال استبدادية، أم انها ستتعرض الى ما تعرض له في الثلاثينيات من القرن الماضي، عندما صعدت الفاشية الى الحكم في اوربا. وكثيرون يرون ان انتقال مراكز اتخاذ القرارات من الحكومات المنتخبة ديمقراطياً، والبرلمان الى المراكز الاقتصادية التي تتحكم فيها الطغمة المالية يشكل خطراً فعلياً على الديمقراطية؛ اذ تتحول السلطات الديمقراطية المنتخبة الى هيئات منفذة لما تتخذه مراكز الاقتصاد من قرارات. ومشاركة المواطنين في الحياة العامة الآخذة بالتضاؤل تنعكس في انخفاض نسبة المصوتين في الانتخابات.
الأمر الذي يتنافى مع جوهر الديمقراطية: نقل

السلطة من حكم أقلية الى حكم الشعب، وحماية حقوق وواجبات المواطنين على السواء. لقد انهار المعسكر الاشتراكي لغياب الديمقراطية السياسية، بالرغم من عدم وجود تناقض بنيوي، بل وحدة عضوية في جوهر النظام. ومن جهة اخرى فإن الديمقراطية السياسية لا يمكن ان تبقى راسخة مع سلب المكتسبات الاجتماعية، مع التنصل من تطبيق الديمقراطية الاجتماعية، والتراجع عما أثبتته مواثيق حقوق الانسان الاقتصادية والاجتماعية. ان العولمة وسياسة اللبرالية الجديدة تنطويان على تناقض بنيوي لا يمكن حله في اطار الرأسمالية. فمثلما أثبتت التجربة ان لا اشتراكية بدون ديمقراطية، وكذلك لا ديمقراطية سياسية راسخة مع بقاء التفاوت الاجتماعي، الآخذ بالاتساع في ظل العولمة، ليس فقط بين الدول الغربية والعالمين الثاني والثالث، بل داخل الدول الصناعية الكبرى نفسها.

الشعب مهيأ للديمقراطية؟

الديمقراطية مصطلح معرّب من اللاتينية، مثل كثير من المصطلحات الاجنبية الاخرى، وهو يعني حكم الشعب، ويتميز عن اشكال اخرى من الحكم، في العلاقات بين الحاكم والمحكوم مرت بها البشرية، كأنواع من حكم الاستبداد تجاه الشعب، السلطة فيها لنخبة من"الاشراف والمالكين. الديمقراطية تتطلب اشراك الشعب دون تمييز في ادارة شؤونه.

ولقد وجد هذا الفهم للديمقراطية سبيله في العراق منذ ثورة العشرين، وبداية تأسيس الدولة العراقية الحديثة، التي شكلت بعد الحرب العالمية الاولى وفق حدود تم الاتفاق عليها بين الدولتين الاستعماريتين، بريطانيا وفرنسا، فوضع العراق تحت الانتداب البريطاني، وبعد عام من ثورة العشرين ووصول فيصل الأول تنفيذاً لخطة بريطانية، اصدر "مجلس الوزراء، بناء على اقتراح رئيس الوزراء، قراراً جماعياً ينادي بفيصل ملكاً على العراق بشرط ان تكون حكومته دستورية، نيابية، ديمقراطية، مقيدة بقانون".

في بيان معاون متصرف (محافظ البصرة) الى وزارة الداخلية حول طريقة الاستفتاء التي اتبعت في البصرة كتب: "بما ان الانتخاب يجري من أجل حكومة ديمقراطية فقد وجدنا من المرغوب فيه أخذ الاصوات من جميع السكان وليس من الاشراف المنفذين. ولهذا "تم تبليغ يوم الانتخاب الى أهالي كل منطقة انتخابية ودعي جميع الرجال الذين يبلغون عشرين سنة من العمر فما فوق للحضور في مكاتبهم الانتخابية للتصويت" (نشأة الدولة - العطية ص 501 -502) .وينطلق البعض من كون المصطلح اجنبياً للبرهان على ان مفهومه غريب ومستورد ينبغي رفضه. لكن فكرة الحرية والعدل - المساواة في التاريخ العربي الاسلامي انما كانت في لب الخلافات التي نشأت حول مفهوم الامامة والخلافة. وكانت المصالح الدنيوية، المادية، وراء الكثير من تلك الخلافات بين المسلمين. يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز: "ان هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها وانما اختلفت في الدينار والدرهم". والشورى هو التعبير عن سيادة الشعب، اذ ان العبرة بالروح لا بالحرفية ولا الشكلية. فالمبايعة، القائمة على الانتخاب، شرط واجب في الخلافة، ورأي أغلبية الفقهاء ان الخلافة لا تكون شرعية اذا استندت الى القهر والغلبة.ان رفض الجديد بحجة انه مستورد، هو عود لذلك المنطق الذي تبناه أصحاب الجاهلية في رفضهم الاسلام بحجة تمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم. وليس صحيحاً ان الديمقراطية لا جذور لها في منطقتنا تماماً، فقبل الاسلام كان على سبيل المثال نظام الحكم في اليمن يتألف من ملك مقيد بسلطة تمارسها مجالس و هيئات نيابية تتألف

من ممثلي القبـــائل، ولا توجد معلومات عن الطريقة التي كان يتم بها اختيار المندوبين في ذلك النظام البرلماني (العلوي - في السياسة الاســـلامية، ص 36). وكانت دار الندوة في مكة، وفي بلاد سومر، كما يذكر صومائيل كريمر في كتابه الموسوم "كل شيء بدأ في سومر" ان أول برلمان يتكون من مجلسين وجد في بلاد سومر، كواحدة من سبعة وعشرين شيئاً يوجد أول مرة في التاريخ، كأول مدرسة، وأول حادث رشوة، وأول ملحمة (ملحمة جلجامش). ان عدم وجود تقاليد ديمقراطية يجعل الأخذ بها صعباً، وتكون معرضة للانتكاس بسهولة لكن ذلك ذريعة للقول ان الشعب غير مهيأ للديمقراطية، فأي شعب لم يمر بمرحلة كانت الديمقراطية معدومة فيها؟ في قلب أوربا دخلت ألمانيا عهد نظام فاشي بعد فترة قصيرة من حكم جمهوري أعقب سقوط القيصرية بالثورة بعد الحرب الأولى، لكن بالنضالات والممارسات ترسخت الديمقراطية. لنتذكر على سبيل المثال ان سكان "واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط"، اسرائيل، كانت غالبيتهم عند تأسيس الدولة ينحدرون من بلدان اوربا الشرقية حيث لم تكن توجد تقاليد ديمقراطية. ولكن رغم انعدام التقاليد الديمقراطية ورغم ظروف الحرب الدائمة ترسخت الديمقراطية البرلمانية في اسرائيل رغم كل ما فيها من علّات، بينما صفي في البلدان العربية ما كان قد نشأ فيها من بذرات الديمقراطية، بحجة حماية مؤخرات الجيوش العربية التي ارسلت الى حرب "انقاذ فلسطين" تحت قيادة كلوب باشا، وما تبع ذلك من عسكرة المجتمعات العربية بحجة العمل من أجل تحرير فلسطين، أو بحجة "الشرعية الثورية" لحماية الأنظمة "الثورية التقدمية"، أو حفاظاً على تقاليدنا العربية الاسلامية السمحة. غير ان الاعلان عن قبول الديمقراطية شيء وتطبيقها شيء آخر. فمثل ما يحدث في الثورات والحركات الشعبية، ينشغل الثوار عن تحقيق الهدف بتوزيع غنائم الحكم الجديد، فيجري توزيع المناصب والادارات وحتى انشاء ادارات ومناصب جديدة ويكتفون بترديد شعارات الثورة بين الحين والآخر. وهكذا بقيت المملكة العراقية حتى بعد انتهاء الانتداب تابعة للاستعمار البريطاني، ولم يبق من الدستور والمجلس البرلماني والقانون سوى أشباح، فأكثر من نصف العهد الملكي سادته الاحكام العرفية، وعندما استطاعت الحركة الوطنية فرض فوز بضعة نواب للبرلمان عام 1954 قام نوري السعيد بحل البرلمان بعد أول اجتماع له، وصار يحكم بالمراسيم مجدداً وتزوير الانتخابات، حتى ثورة تموز 1958 التي أطاحت عن طريق انقلاب عسكري بذلك النظام. هذا الصراع بين القوى الحاكمة الناشئة وبين الجماهير الشعبية من أجل توسيع الديمقراطية ورقابتها على النخب الحاكمة صراع موضوعي، وسيرورة طويلة من أجل ترسيخ التقاليد الديمقراطية وكبح فساد الساسة، الذي قد يصيب بعضاً من ثوريي الأمس، فيتحولون الى لصوص الثورات، وتنتكس الثورة بانتقال السلطة من لصقراطية الى لصقراطية جديدة. ويكون ذلك تأكيداً لما قاله المعري بلزوميته عن ضرورة الحذر من القادة والحركات:

انما هذه المذاهب أسبا
ب لجلب الدنيا الى الرؤساء
غرض القوم متعة، لا يروقو
ن لدمع الشماء والخنساء

العلاقة بين ظروف ووسيلة الوصول للحكم وطبيعة النظام اللاحق

يبدو أن ثمة علاقة عضوية بين ظروف ووسيلة الوصول الى السلطة وأساليب وطبيعة الحكم الذي يقاوم لاحقاً. العهد الملكي جاء به

الانكليز كنظام يخفف العداء الشعبي لحكمهم فأقاموا أولاً نظام الانتداب بدل اعلان العراق مستعمرة، وكان هذا بعد الثورة البلشفية التي فضحت اتفاقية سايكس بيكو ودعت مسلمي الشرق للتحرر والاستقلال، ووجدت صدى لدى المناضلين من أجل الاستقلال.

في رسالة من السكرتير العام لفرع جمعية العهد في الموصل الى المركز في دمشق، أواخر 1930 ينتشر رأي هنا "انه لا خلاص للعرب خاصة، وللاسلام عامة إلا باتفاق العرب والاتراك مع البلاشفة" (الرسالة نشرت في جريدة صدى الاحرار الموصلية عدد3 /4 /1953، نقلاً عن نشأة الدولة، ص 403). لقد أقاموا النظام الملكي عبر استفتاءات شكلية ولعبة برلمانية، فكان النظام يتسم بالتزييف وبشكلية برلمانية هي حقاً أفضل مما لحقها من أنظمة استبدادية فاشية، لكنها لم تكن ديمقراطية، أي حكومة الشعب للشعب. ولم تتح الفرصة لتطوير سلمي، فكانت تلجأ للأحكام العرفية. لذلك تخلت الحركة الديمقراطية عن أساليب النضال الجماهيري والسلمي وارتضت اللجوء الى العنف فأطيح بالنظام بانقلاب عسكري أخذ شكل الثورة الشعبية بفعل التعبئة الجماهيرية قبل الثورة. ولكن رغم كل اخلاص ووطنية عبد الكريم قاسم، ونظراً للاحتراب السريع بين حلفاء الأمس، خاصة بين القوميين واليساريين، وعدم النجاح في التغلب على المكائد الاستعمارية والرجعية، المحلية والاقليمية، أهمل النضال من أجل اقامة نظام ديمقراطي فجرى التركيز على شعار صيانة الجمهورية. وفي غياب الديمقراطية أطاح انقلاب 8 شباط 1963 بثورة تموز، فأحكم العسكر هيمنتهم وتتابعت انقلابات عسكرية حتى وصل الأمر الى المهيب الركن السيد القائد الضرورة. وفي بقية العالم الثالث تم نيل الاستقلال، في الأغلب، بانقلابات عسكرية أو حرب التحرير. وبدل تحقيق الديمقراطية وحكم الشعب قضي حتى على الاشكال المزيفة للديمقراطية وعلى التواءات المجتمع المدني، وعُسكر المجتمع واندلعت حرب أهلية بين الفصائل المسلحة التي ساهمت في نيل التحرر، كما في اليمن، افغانستان وكردستان. هذه هي الصورة العامة، الغالبة، ولم يشذ عن هذا المنهج إلا سوار ذهب واحد في السودان. ولكنه لم يستطع أن يرسّخ نظاماً ديمقراطياً.

الهند كانت الدولة الوحيدة التي نالت استقلالها ليس عن طريق الكفاح المسلح، وانما عن طريق النضال الديمقراطي، وانتهاج سبيل غاندي في المقاومة السلبية. وبقيت رغم كل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، ورغم التنوع الديني والقومي والعرقي والطائفي الهائل بعيدة عن الانقلابات والحرب الاهلية. ان الكثير من الحركات الثورية المسلحة من أجل الاستقلال أو الديمقراطية أخذت في الثمانينات تحقق أهدافها ليس نتيجة الحسم العسكري بل بتعبئة الجماهير في النضال السياسي. وتحققت الحقوق المدنية للزنوج في امريكا عبر النضالات السلمية.

نحو نظام ديمقراطي في العراق

السبيل الذي سيوصل العراق للخلاص مسألة تحتاج الى بحث. فالانقلاب العسكري، بذهنية العسكر الذين تربوا طيلة الثلاثين سنة الأخيرة بروحية الجيش العقائدي والخنوع والخضوع للقائد الضرورة، لم يقد إلا الى دكتاتورية جديدة، والى دورة جديدة من العنف.

ولأن صدام لا يعرف غير العنف سبيلاً، ولا يقر بالحقوق الديمقراطية والحوار، لا يرى الكثير من قوى المعارضة سبيلاً لتغيير نظامه سوى العمل الميداني، فلا يبحثون عن سبيل غيره، ويرفضون، بل يسفهون دون نقاش وتأمل كل دعوة تبحث عن طريق سلمي. ويعتبرون هذا السبيل مستحيلاً، ولا يريدون

أن يروا حقيقة ان طريق العمل الميداني، الذي يدعون اليه لم يحقق هدفه، رغم انهم سلكوه طيلة العقود الثلاثة الأخيرة، ورغم الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيل تخليص الشعب من الطغيان، ورغم الاستعداد للبذل والفداء. فهو سبيل يكاد يكون مسدوداً بسبب تناسب القوى، وضعف وتشرذم المعارضة، وانشغال الناس بما يوفر للعائلة بعضاً من أسباب البقاء على قيد الحياة ليس إلا. ولا يأخذون درساً وعبرة حتى من واقع الاحتراب في كردستان الذي يكشف بجلاء عدم استطاعة أحد الحزبين الحاكمين الانتصار عسكرياً. ان الانتقال السلمي شكل نضالي ثوري يتطلب تنامي حركة جماهيرية واسعة تفرض التغييرات بإسناد الرأي العام العربي والاسلامي والعالمي، وليست نتيجة مفاوضات وتنازلات من قبل المعارضة لهذا النظام.

التنظيمات في الخارج والديمقراطية

نتيجة الحكم الارهابي الفاشي طيلة ما يزيد على ثلاثين عاماً، وزج البلاد في حروب مستديمة داخلية وخارجية، ونتيجة ابادة الجنس التي يرتكبها الامريكان والانكليز عبر مواصلة فرض الحصار، سلاح الابادة الشاملة، على شعبنا تحت راية الأمم المتحدة، تزايد عدد العراقيين في المهاجر والمنافي ليصل حدود الاربعة ملايين، بعد مجازفات خطيرة تعرض لها الكثيرون قبل أن يصلوا المرافئ الآمنة. وقد تكونت في العديد من البلدان الأوروبية واستراليا والامريكيتين جاليات عراقية تتوفر لها امكانية تنظيم نفسها بجمعيات ونواد متنوعة مختلفة، وقد تشكلت بالفعل في العديد من البلدان مختلف التنظيمات الثقافية الاجتماعية، المستقلة عن الاحزاب، رغم انتماء عدد نشطائها الى أحزاب.

وليس من الغريب أن تلجأ بعض التنظيمات الحزبية الى السيطرة على مثل هذه التنظيمات وتحويلها الى توابع للمنظمة الحزبية، فهذا ديدن العمل الحزبي القصير النظر، الذي لا يريد الاستفادة من تجربة المنظمات الديمقراطية في السابق، الأمر الذي حولها الى ميدان للصراعات الحزبية، وأسهم في اضعاف المنظمات الديمقراطية، بانفضاض العراقيين عنها، وأدى بالنتيجة الى خسران المنظمة الحزبية ثقة أفراد الجالية.

ان العمل في هذه المنظمات اسهم في التربية على الروح الديمقراطية، والعمل في مجالات التنظيمات المدنية، اللازمة لاقامة مجتمع ديمقراطي. ليس هذا فقط وانما يمكن لمنظمات الجالية منذ الآن ان تتطور لتشكل رقابة على النخبة السياسية النشطة في المعارضة في الخارج، والتي تتنطع مدعية التحدث بأسم العراقيين في الخارج دون ان تسعى للحصول على تفويض من الجالية، عن طريق السعي للاستفادة من امكانية مساهمة الدول المضيفة في اجراء انتخابات بين صفوف الجالية لانتخاب ممثليها، وقد نظمت الحكومة البلجيكية مثلاً انتخاب ممثلي جالية المسلمين، أو تنظيم مشاركة اليوغسلاف اللاجئين في الاتحاد الأوروبي في الانتخابات الجارية في بلدانهم. كما يمكن أن تلعب الجاليات العراقية دور جماعات ضغط لرفع الحصار الاقتصادي مع العمل على التحقق من تدمير أسلحة التدمير الشامل، ومن أجل تطبيق قرار مجلس الأمن 688 لكفالة حقوق الانسان واجراء انتخابات برلمانية تحت اشراف دولي. ويمكن لتنظيمات الجالية العراقية أن تتهيأ في اعداد المراقبين الدوليين.

نصوص مترجمة

لِنْ پارامور :
ماذا تقمع الرأسمالية؟ من منظور يون

ترجمة: مصباح كمال

أن يعيش المليارات من الناس في ظل الظلم وانعدام الأمن بالكاد يعتبر نظاما عقلانيا. يقدّم علم الاقتصاد نفسه على أنه علم منطقي يتعامل مع المقاييس الموضوعية والمناهج الكمية. لكن المراقبين الأذكياء أدركوا منذ فترة طويلة أنه مليء بالعناصر السحرية والفانتازيا وعناصر غير منطقية لاواعية. وهذا يجعلها أرضا خصبة لأولئك الذين يدرسون علم النفس البشري. تركّز المناقشات المعاصرة للاقتصاد وعلم النفس في الغالب على الاقتصاد السلوكي. في حين أن التحليل النفسي. الفرع المخصص ظاهريا لتعميق المعرفة باللاواعي. لا يجد له إلا حضورا قليلا في المناقشات. منذ أكثر من نصف قرن. اكتسب مفكرون مثل نورمان أو. براون Norman O. Brown وهربرت ماركوزة Herbert Marcuse جاذبية واسعة من خلال غوصهم في الخبايا الخفية والدوافع اللاواعية للاقتصاد. ولكن مع بدء تراجع قيمة سيغموند فرويد بين الأكاديميين في الستينيات. وضعت مناهج التحليل النفسي جانبًا أو تم تغيير صورتها - على الرغم من حقيقة أن قدرًا كبيرا من الأبحاث العلمية الحديثة تدعم مفهوم فرويد عن اللاوعي.

بـــــــــينما نتصارع اليوم مع الأنظمة الاقتصادية التي تبدو أكثر تدميرًا لرفاهية الإنسان، هل حان الوقت لإعادة النظر في ما إذا كان للتحـــليل النفســـي شـــيء مفيد ليقوله عن العلم الكئيب؟ (1)

ربما يبدو اسم الطبيب النفسي السويسري كارل يونغ، الذي تفوح منه رائحة صوفية وبـــاطنية، في غير محـــله في أي مؤتمر اقتصادي. لكن المحلل النفسي وأستاذ علم النفس مايكل فانـوي آدامـز Michael Vannoy Adamsفي كتابه من أجل حب الخيال: تطبيقـــات متعددة التخصصات للتحليل النفسي(2) يبـين كيف أن اهتمام يونغ الخاص بـــالرموز - لجعلها واعية وفهم معناها وتأثيرها - يمكن أن يســاعدنا في استخلاص ما يكمن في ظل الرأسمالية المعاصرة.

نقطة انطلاق آدامز هي صورة آدم سميث عن اليد الخفية invisible hand ذلك التمثيل الأسطوري للقوة غير المرئية التي تنظـم تصرفـات الأفـراد التـي تخـدم مصالحهم الذاتية اقتصاديا، وتحولها إلى منافع جماعية. من وجهة نظر آدامز، فإن اليد الخفية ليست فقـط فكرة أساسـية في الاقـتصاد، ولكنها "الصورة الأكثر أهمية خلال الـ 250 عاما الماضية" - وهي من الأهمية بـمكان للرأسـمالية مثل صورة المطرقـــة والمنجل للشـــيوعية. وفي مصطلـح يونـغ فإنهـا تمثـل النمـوذج الأصلـي(3)archetypal ويؤكـد آدامـز: "لا توجد صورة أخرى تســـود العالم الحديث وتهيمن عليه".

ويشـير إلى أنه في سـياق الصور بشـكل عام، فإن صورة اليد الخفية غريبـــة. لا يمكنك تصور ذلك حـــقا. ومع ذلك، كما يذكرنا آدامز، كانت صورة اليد الخفية قيد التداول قبل وقت طويل من استخدامها من قبل سميث في مؤلفات تبدأ من هوميروس إلى فولتير للإشـارة إلى قـوى شبحـية أو إلهية تتدخل في الشؤون الإنسانية.

سيلاحـظ علماء الأدب أنه في زمن قـريب من اسـتخدام ســميث لها، كانت الأيدي الخفية تظهر في الروايات القـــوطية لإغلاق الأبواب وتحريك الجانب البشري في الحبكة. يشير آدامز إلى نسخة مؤثرة بشكل خاص لليد المذكورة في كتاب أي أو هيرشـــمان(5) A.O. Hirschman المشـاعر والمصالح - حـيث نجد الرسـم التوضيحي المعاد إنتاجه ليد سماوية غير مادية تضغط على قلب بشري تحت شعار "Affectus Comprime" أو، كما فـي ترجمة هيرشمان، "قمع المشـاعر!" إن كانت هناك صورة تحـليلية نفسـية أخرى في أي وقت مضى فهذه هي الصورة.

كما يشـير آدامز، عندما ذكر سـميث لأول مرة اليد الخفية في أطروحـــة حـــول علم الفلك (في مقال لم يُنشر خلال حياته ولكن ربما كُتب قبـل عام 1758)، فإنها كانت صورة أسـطورية - يد كوكب المشـــتري تُحرّك الأجرام السماوية في السماء. في وقـــت لاحـــق، أصبحـــت هذه اليد يدا اقتصادية، وقد ورد ذكرها أولاً في نظرية المشـاعر الأخلاقـية عام 1759 ثم مرة أخرى في ثروة الأمم عام1776.

يفسر سميث اليد الاقتصادية الخفية على أنها التأثير الذي يقود الأفراد الذين يسعون وراء مصلحـــة خاصة لتعزيز الصالح العام دون إدراك ذلك. في كتابـــه نظرية

المشاعر الأخلاقية Theory of Moral Sentiments وعند تحديد الحالة التي ينتهي فيها مالك الأرض الثري بتوظيف العمال من خلال إنفاقه على الكماليات، يوضح سميث أن اليد تساعد الأثرياء على الرغم من "رغباتهم النهمة"، في تقاسم بعض ثرواتهم مع الفقراء. في وقت لاحق، في ثروة الأمم، يصف اليد في فصل عن التجارة، مقترحا أن اليد الخفية توجّه التجار وأصحاب المصانع الذين يعملون لمصلحتهم الخاصة من أجل الربح لتحقيق نتائج إيجابية للجميع من غير قصد.

وهكذا، من خلال بعض السحر الجريء، فإن لمسة اليد الخفية تُحوّل الأنانية إلى فضيلة. وهذا، كما يصفه آدامز، يشكل "انقلابا أخلاقيا" - انقلابا رأسا على عقب لتقليد طويل من النظر إلى الأنانية على أنها واحدة من أقل السمات البشرية المرغوبة. وكما يرى آدامز، كانت آثار هذا الانقلاب على الشؤون الإنسانية عميقة.

من خلال العدسة اليونغية Jungian التحليلية التي استخدمها آدامز، يمكن رؤية اليد الخفية وهي تمسح الشعور بالذنب. فتحت تأثيرها، يمكن لأي شخص أن يشعر بالبراءة أثناء التصرف بجشع والانغماس فيما كان يُعرف سابقا بإحدى الخطايا السبع المميتة.(5) من منظور يونغي، ما يحدث عندما لا ندرك ذنبنا هو أننا نميل إلى إسقاطه على الآخرين كظل، رمز نزاعاتنا الأخلاقية التي لم يتم حلها. في أنظمة السوق الحرة، يعتبر الفقراء مذنبين، ويلامون على وضعهم وفشلهم في التصرف بطرق تزيد ثرواتهم. وهكذا يُحكم على الفقراء بالذنب بسبب تصرفات الأثرياء القائمة على المصلحة الذاتية.

يلاحظ آدامز أن اليد تؤدي وظيفة دينية أيضا، أي في تمثيلها لإله السوق، الإله الذي طالما عبده الاقتصاديون.

إنه ينظر إلى هذا الإله على أنه deus - absconditus إله غير مرئي ومخفي عن عمد، مثل صورة الرب التوراتي يهوه. بمعنى آخر، فإن deus absconditusهو إله غائب عندما يكون الناس في ورطة شديدة. أو إله لا يُدرك أو غامض. لماذا، على سبيل المثل، تكون اليد الخفية ضرورية إذا كان السلوك الأناني ينتج بشكل طبيعي نتائج اجتماعية مفيدة؟

يلاحظ آدمز أن صورة اليد الخفية، مثل الرب يهوه، تمنح ما هو مخفي امتيازًا على حساب المرئي، والمجرد على المتجسد، والعقل على الحواس. يبدو أن هذه الوظيفة منتشرة في علم الاقتصاد، حيث غالبا ما يقع الممارسون في حب النماذج المجردة التي أعمتهم عما يمكن رؤيته بسهولة في الواقع، لا سيما فقر ومعاناة الكائنات الحية المجسدة.

تصبح اليد كإله السوق أيضا قوة خارقة deus ex machina كتلك التي كان يتم إنزالها على خشبة المسرح في الدراما القديمة لتقرير النتيجة النهائية للمسرحية، أو على نطاق أوسع، الآلية التي تحقق حلا لمشكلة تبدو غير قابلة للحل.

وبهذه الطريقة، تتلاعب اليد الخفية بالاقتصاد إلهياً وآلياً. ومهما كانت المشكلة الاقتصادية، ومهما كانت شائكة،

فإن اليد الخفية هي الحل الوحيد: تينا TINA - There Is No Alternative - لا بديل.

لقد صار التحدث ضد إله السوق مصدرا للتشكيك في مصداقيتك، وارتكاب خطيئة الكفر. وبالنسبة لعُبّاد اليد الخفية، فإن السوق تمتلك حكمة لا حدود لها للتصرف بالطريقة التي تتصرف بها فعلاً.

يلاحظ آدمز أن إله السوق هو إله غيور، وكالإله يهوه لن يقبل بوجود آلهة أخرى. إذا كانت الحكومة تسعى للتدخل في السوق الإلهي المطبوع على الخير فلا بد أن تكون الحكومة شيطانا.

هذه الصورة لإله السوق، وفقا لآدامز، تسمح للاقتصاديين بقمع التجربة الفعلية للأزمات الاقتصادية من خلال استدعاء شعار مفاده أن التدخل الحكومي ليس ضروريا أبدًا. وبالتالي، فإن عيوب السوق يتم وضعها في طي النسيان ولما يسميه آدامز "اللاوعي الاقتصادي". يحذر آدمز أن احتكار إله السوق يزاحم الصور الأخرى، وهي الصور التي قد تساعد في توجيهنا نحو قيم مثل نكران الذات.

يشير آدامز إلى أنه بتجنب ضرورة التنظيم الحكومي government regulation فإن اليد الخفية تستغني عن أي مساءلة بشرية عن الاقتصاد. في النهاية، في الرؤية المتطرفة للنيوليبرالية، يصبح كل شبر من المجتمع البشري في قبضة اليد، مع خصخصة كل شيء من الطب إلى التعليم. إن السوق تجعل الحكومات غير ضرورية باستثناء حماية مصالح الرأسماليين، مما يؤدي إلى ضخ أموال ضخمة من الشركات والأثرياء للسيطرة على الدولة وتعزيز سلطتهم. ويبدو أن اليد الخفية في الأسواق غير المنظمة unregulated تفعل عكس ما وصفه سميث - إرشاد النشاط الذي يميل إلى إفادة القلة فقط.

إن جائحة فيروس كورونا، مثل الأزمة المالية العالمية في عامي 2007 و2008، أفقدت المصداقية الآيديولوجية لليد الخفية، وكشفت كيف أن النشاط الأناني الحثيث لا ينتج فوائد اجتماعية، بل تدميرًا اجتماعيًا.

كشفت أزمة كوفيد كيف أن تدهور الخدمات العامة يجعل المجتمعات الرأسمالية أكثر عرضة للاضطراب وأقل صلابة. لقد عادت اليد المرئية للحكومة من خلال التحفيز المالي fiscal stimulus والفوائد للعمال العاطلين عن العمل، والسياسة النقدية.

هناك ردة على قدم وساق، لكن هذا لا يعني هزيمة إله السوق. تشهد على ذلك الموجة الحالية من الحجج القادمة من العديد من الجمهوريين، ومؤخرًا، جيف بيزوس، الذي يلقي باللوم على التضخم المرتفع في خطة الإنقاذ الأمريكية لبايدن وشيكات التحفيز الحكومية، كما لو أن مشاكل سلاسل التوريد والممارسات الاحتكارية لا علاقة لها بها؛ كما لو أن الإيمان بحكمة إله السوق التي لا جدال فيها لا يؤدي إلى معاناة المليارات من البشر من وجود قاس وبائس.

هناك الكثير من الحديث هذه الأيام حول احتمالية حدوث ركود - ربما ينبغي أن نشعر بالقلق أيضًا بشأن القمع المستمر.

في عام 1957، أصدر يونغ هذا التحذير حول الفشل في التعرف على الظل وفهم عمليات اللاوعي:
" يمكن للمرء أن ينظر إلى معدته أو قلبه على أنه غير مهم ويستحق الازدراء، لكن هذا لا يمنع الإفراط في الأكل أو المجهود من أن يكون له عواقب تؤثر على الإنسان بأكمله.
ومع ذلك، نعتقد أنه يمكن التخلص من الأخطاء النفسية وعواقبها بمجرد الكلمات، لأن كلمة "نفسية" تعني أقل من الهواء لمعظم الناس. على الرغم من ذلك، لا أحد يستطيع أن ينكر أنه بدون الروح لن يكون هناك عالم على الإطلاق وعالم إنساني أقل.
عمليا كل شيء يعتمد على الروح البشرية ووظائفها. يجب أن يكون الروح جديرًا بكل الاهتمام الذي يمكن أن نوليه له، خاصة اليوم، عندما يعترف الجميع بأن الفرح والحزن في المستقبل لن يتحدد بهجمات الحيوانات البرية ولا الكوارث الطبيعية ولا بخطر الأوبئة في جميع أنحاء العالم، ولكن ببساطة بالتغيرات النفسية في الإنسان ".
وقبل ذلك جادل المحلل النفسي أوتو غروس Otto Gross (1877-1920) وهو زميل قريب ليونغ وأثر على يونغ، بأن البحوث في اللاوعي هي الأساس الضروري لأي نوع من الثورة أو استعادة القيم الأخلاقية. إنه يوجهنا إلى مشروع تحرير القيم المكبوتة للمساعدة المتبادلة والتعاون التي يولد بها البشر.
عندها فقط يمكننا أن نودع اليد الخفية؟.
1- نشر المقال في موقع معهد التفكير الاقتصادي الجديد، 17 حزيران 2022.
رابط المقال:
What Does Capitalism Repress? A Jungian Perspective. | Institute for New Economic Thinking (ineteconomics.org)
لِنْ بارامور Lynn Parramore هي كبيرة محللي الأبحاث في المعهد
2- للتعرف إلى استخدام عبارة "العلم الكئيب" الذي ينسب إلى الكاتب والمؤرخ والفيلسوف الاسكتلندي توماس كارلايل (1795-1881)، راجع:
Robert Dixon, 'The Origin of the Term "Dismal Science" to Describe Economics,'
https://www.krannert.purdue.edu/faculty/smartin/ioep/dismal.pdf
جادل كارلايل (1795-1881) بأن إعادة تقديم (أو استمرار) ممارسة استعباد السود ستكون من الناحية الأخلاقية أفضل من الاعتماد على قوى العرض والطلب في السوق، ووصف مهنة الاقتصاديين الذين اختلفوا معه، وعلى الأخص جون ستيوارت مي، بأنها "كئيبة". وكان كارلايل يعتقد أن تحرير العبيد سيزيد أوضاعهم سوءًا !
(3) For Love of the Imagination: Interdisciplinary Applications of Jungian Psychoanalysis
4- بالنسبة لكارل يونغ فإن النموذج الأصلي يعني صورة ذهنية بدائية موروثة من أسلاف البشر الأوائل، ويفترض أن تكون موجودة في اللاوعي الجماعي.

حوارات

الثقافة الجديدة تُحاورُ الأستاذ الدكتور:

علي عباس مُراد

حاوره: سوران قحطان

الأستاذ الدكتور علي عباس مراد. مواليد بغداد 1955 حاصل على شهادة البكالوريوس من كلية القانون والسياسة/ فرع السياسة- جامعة بغداد عام 1977 وشهادة الماجستير من كلية القانون والسياسة/ فرع السياسة جامعة بغداد عام1981 وشهادة الدكتوراه من كلية العلوم السياسية جامعة بغداد عام 1990في تخصص الفكر السياسي. درّس المواد السياسية والفلسفية في جامعات بغداد والكوفة وبنغازي (قاريونس سابقا) في ليبيا. ويعمل حاليا تدريسيا في فرع العلوم السياسية في معهد العلمين للدراسات العليا في النجف الأشرف. أصدر العديد من المؤلفات التي أغنت مكتبة الفكر السياسي من بينها: الطبقات والصراع الطبقي في الأيديولوجية العربية الثورية. جدلية الدين والسياسة في الفلسفة الإسلامية: دولة الشريعة عند ابن سينا. الأمن والأمن القومي- مقاربات نظرية. الهندسة الاجتماعية- صناعة الإنسان والمواطن. القديس والقيصر- الفكر السياسي في المسيحية من عصر التبشير إلى عصر الإصلاح. له تحت الطبع الآن كتاب (المفكر والأمير - تحولات الفكر السياسي الغربي الحديث من نظرية الأصل الإلهي للسلطة إلى نظرية الأصل الإنساني للسلطة).

الثقافة الجديدة: في البدء لنتطرق إلى الجانب النظري لمسألة الهوية الجمعية في وقتنا الحاضر، وأعني هنا في العقود الأخيرة من القرن العشرين والربع الأول من القرن الحادي والعشرين. كخلفية فكرية للموضوع، يمكن أن استعير تصنيف أوموت أوزكيريملي الثلاثي لنظريات الأمة والقومية، والذي ورد في كتابه المعنون "نظريات القومية: مقدمة نقدية"، في تصنيف المقاربات النظرية لإشكالية الهويات الجمعية. دون أن ادّعي أنني أتوافق تماما لا مع التصنيف ولا مع الاستعارة، مع ذلك، أرى أن الاستعارة هنا ليست تعسفية، ففي النهاية الأمة والقومية يمثلان أحد تجليات الهوية الجمعية، وإن كانت تجليا متميزا، من الناحية السياسية على اقل تقدير. بحسب تصنيف أوزكيريملي، فإن القسم الأول من المقاربات النظرية، يرى أن الهوية الجمعية مكون طبيعي ومتأصل جوهريا عند البشر، وهو مكون بديهي وأزلي وثابت، وهذه غالبا ما تمثل وجهة نظر حاملي الانتماءات الهوياتية، وممثليهم الأيديولوجيين والسياسيين. القسم الثاني من المقاربات، يرى أن الهوية الجمعية، مع تعبيراتها الثقافية والسياسية، وربما حتى أساسها الاجتماعي، هو في نهاية المطاف منتج حديث، وهذه المقاربات لا ترى فقط أن الانتماء بتجلياته المتنوعة حديث، بل إن الكينونة الهوياتية ذاتها حديثة ومبتكرة وربما متخيلة أساسا. القسم الأخير من المقاربات، يرى أن الكثير من الهويات الجمعية المعاصرة، وإن كانت ظواهر معاصرة أساسا، فإنها تشتمل بكل تأكيد على بذور وأصول قديمة، خصوصا في مجالات الثقافة والتراث والتقاليد.

دكتور علي، كيف تنظر الى الهويات الجمعية المعاصرة، سواء كانت جمعية أم فرعية؟ وهنا نحتاج إلى مساحة رحبة من الأفكار والأطروحات.

د. علي عباس مراد: أوجه التحية أولا لهيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، وأشكرها على إتاحتها لي هذه الفرصة لخوض حوار فكري جاد، كانت من رواده منذ صدورها، وما تزال كذلك في زمن تراجعت فيه الاهتمامات الفكرية أمام الاهتمامات المعيشية، وانشغل أغلب الناس بالتكالب على المكاسب حتى غير الشرعية منها، بل وقبل الشرعية وأكثر منها. واتمنى للمجلة البقاء صامدة ومصرة على نهجها هذا على الرغم مما يشهده الهم والاهتمام الثقافي الجاد من تراجع وانحسار كبيرين ومؤسفين. وأوجه التحية ثانيا للقراء الكرام الذين أرجو أن يحتملوا ثقل دم هذا النوع من الحوارات الفكرية المزدحمة بكثير من الموضوعات والمصطلحات المتخصصة.

مسألة الهويات كانت وما تزال.. مسألة طبيعية

وأود أن أبدأ بالقول إن مسألة الهويات كانت وما تزال تبدو لي مسألة طبيعية، بل وحتى بديهية، ولعل طبيعتها أو بداهتها ترتبط عندي بفكرتين أوضحتهما بتوسع في كتابي (الهندسة الاجتماعية):

الفكرة الأولى، إن الإنسان ليس فقط كائنا عاقلا، بل وكائنا اجتماعيا أيضا، وأنه يولد وهو لا يمتلك شيئاً من الصفات والخصائص الإنسانية، ولا يعرف شيئا عن وسائل وأساليب التواصل مع الأسرة الصغيرة (الأب والأم والأخوة والأخوات) ولا الكبيرة (الفخذ والعشيرة والشعب)، لكنه يولد أيضا وهو يمتلك أمرين أساسيين أوليين فقط هما: الشكل والهيكل الجسماني المادي، والقدرة العقلية والجسدية على التعلم والاكتساب المعرفي والسلوكي، فإذا نشأ في بيئة إنسانية، وتعلم منها واكتسب شيئا من تلك الصفات والخصائص

والوسائل والأساليب، لاحظ بداهة وتلقائيا تشابهه مع أفراد بيئته في الصفات الجسمانية الموروثة أولا، ثم ملاحظته أيضا وتاليا تشابهه معهم في السلوكيات المجتمعية المكتسبة، ومن ثم، حدد كل فرد ماهيته الفردية (هويته الشخصية)، وحدد كل مجتمع ماهيته الجماعية (الهوية الاجتماعية)، بدلالة هذا التشابه والاشتراك مع الآخرين في الموروثات الجينية والمكتسبات الثقافية والسلوكية. اما الفكرة الثانية، إن الفلاسفة القدماء في الشرق والغرب، وجهوا للإنسان ومنذ وقت مبكر من التاريخ الحضاري، دعوة قالوا له فيها (اعرف نفسك)، وهي دعوة مزدوجة من حيث هي:

أولا:

دعوة للإنسان للمعرفة بوصفها ضرورة لازمة له بوصفه كائنا عاقلا، يحتاج إلى المعرفة لتحديد متطلبات الحفاظ على الحياة ووسائل وأساليب تلبيتها وضمان استمرارها.

ثانيا:

دعوة للإنسان للمعرفة بوصفها ضرورة لازمة لتحديد طبيعة وخصائص الذات الفردية أو الجماعية، أي معرفة (الهوية) التي تختصر معناها عباراتُ (من أنا؟) و (من نحن؟).

ولا أجد شرا ظاهرا ولا سوءا كامناً في سؤال الإنسان لنفسه (من أنا؟ أو من نحن؟) ولا في إجابته على هذا السؤال (أنا فلان، أو نحن الفلانيون، بدلالة كذا من الموروثات الجينية المادية والمكتسبات الثقافية والسلوكية المشتركة بيننا)، ولا ينطوي الشكل الأول والمجرد من الغايات والمقاصد لهذه الإجابة لا على نزعة سلبية ولا روح عدوانية ضد الآخرين، فلكل إنسان واقعياً وفعليا، موروثاته ومكتسباته المميزة التي يدركها بفعل إدراكه التدريجي لتشابه موروثاته الجينية ومكتسباته الثقافية والسلوكية مع جماعته الأولية التي يولد ويتربى فيها، بقدر ما يدرك تدريجيا أيضا اختلافها مع موروثات ومكتسبات الجماعات الأخرى. فإذا حدث وانطوت إجابة الإنسان، فردا أم جماعة، على سؤال (من أنا؟ أو من نحن؟)، على أية نزعة سلبية أو روح عدوانية ضد الآخر المختلف، فردا كان أم جماعة، فإنها ليست نزعة طبيعية ولا روح موروثة، ولا أوصت بها عقيدة سوية، ولا دعا إليها دين صحيح، بل هي مكتسب ثقافي لاحق من البيئة الاجتماعية، بفعل عوامل يتقدمها عامل التلقين والتعلم من الآخرين أنها نزعة وروح يتوجب على الإنسان التحلي بها، وتعلل بعلل متنوعة تتراوح بين العقائد الفكرية والمصالح الاجتماعية والاقتصادية والطموحات السياسية.

ولكني أود هنا أن أعود إلى ما أشرتم إليه في سؤالكم بشأن تصنيفات أوزكيريملي للمقاربات النظرية لإشكالية الهويات الجمعية، وأقول إن الظواهر الاجتماعية ذات الطبيعة الممتدة جغرافيا والمتواصلة زمنيا، لا يمكن تفسيرها بعامل منفرد ولا تصنيفها بمقاربة واحدة. وعليه، فإن عيش الإنسان في وسط اجتماعي، صغير أو كبير، بسيط أو معقد، وحتى في حالتي الأنموذجين الافتراضيين لعيش الفرد ونشأته في مجتمع له طبيعة مختلفة عن طبيعته مثل عيش (طرزان في مجتمع الغوريلات) كما حكى مؤلف القصة الأمريكي (إدغار رايس بوروس1875-1950م)، أو عيش (ماوكلي في مجتمع الذئاب) كما حكى مؤلف القصة الانكليزي (روديارد كيبلنغ1865-1936م)، يفرض على هذا الفرد بشكل تلقائي وحتمي، أن يقارن نفسه مع أفراد هذا المجتمع، ويلاحظ بحكم هذه المقارنة، أوجه

التشابه والاختلاف بينه وبينهم، وبدلالة أحدهما سيختار هويته بوصفه منتميا إلى هذه الجماعة أو دخيلا عليها، ومن ثم تصرفه بدلالة هذا التحديد الهوياتي ووفقا له، فإما أن يختار تأكيد انتمائه إلى مجتمعه وتماهيه معها، أو يختار تأكيد اختلافه معها تمهيدا لانفصاله عنها.

وأذكر نفسي والقارئ العزيز، أن الفيلسوف اليوناني القديم (أكزنوفان أو أكزنوفانيز، حوالي 600 ق م) قد لاحظ منذ وقت مبكر أن الجماعات المختلفة عن بعضها في موروثاتها الجينية ومكتسباتها الثقافية، وبقدر ما تلاحظ هذا الاختلاف وتشعر به، فإنها تحرص أيضا على تجسيده حتى في تصورها لأقدس ما لديها (المعتقدات الإلهية)، فقال عن ذلك: "لم يوجد في العالم كله، ولن يوجد فيه، إنسان ذو علم أكيد عن الآلهة...فالآدميون يتصورون أن الآلهة يولدون، ويلبسون الثياب، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم. ولو كان للثيران والآسادِ أيدٍ مثلنا، وكان في وسعها أن ترسم وتصنع صوراً كما يفعل الآدميون، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها هي؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها في صورتها، ولصورت الثيران آلهتها في صورة الثيران، والأحباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف؛ والتراقيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر".

الأمة والقومية بوصفهما تجليين للهوية الجمعية... ولكن!

أما ما وردت الإشارة إليه في المقاربات التي ذكرها أوزكيريملي بشأن (الأمة والقومية)، بوصفهما تجليين للهوية الجمعية، فهما وصفان صحيحان تماما، لكنهما ناقصان، لأنهما يحتاجان إلى استكمالهما بتحديدات أخرى أيضاً.

- مكانية باعتبارهما تجليين أوربيين.
- زمانية باعتبارهما تجليين حديثين (القرن السادس عشر 1500-1600م).
- موضوعية باعتبارهما تجليين عرقيين - لغويين (العرق واللغة الجرمانيان = الألمانيان، العرق واللغة الغاليان = الفرنسيان، العرق واللغة الايبيريان = الاسبانيان).
- سببية باعتبارهما تجليين سياسيين، يتعلقان برغبة حكام الممالك الغربية في عصري النهضة والحداثة في الاستقلال بممالكهم عن الأشكال الثلاثة الأخرى للسلطة في أوربا آنذاك وهي (سلطة الإقطاعيات المحلية، سلطة الإمبراطورية الرومانية المقدسة العالمية، سلطة البابوية الكاثوليكية الكونية).

وكان الارتباط الأول للجماعات الاجتماعية، قائما على أساس القرابة النسبية (العرق أو الأصل)، سواء أكانت قرابة حقيقية أم افتراضية، استناداً إلى الاعتقاد الشائع بأن كل جماعة تكونت في الأصل والابتداء من توالد وانشطار أسرة واحدة. ويعكس هذا الاعتقاد ما تسمى (شجرة الأنساب) التي تظهر فيها الجماعة وأجيالها المتعاقبة في صورة شجرة ذات جذر واحد، وجذع تتفرع منه أغصان، ملاحظين أن موجات التحرك البشري بالغزو والهجرة، كانت عاملا أساسيا في اختلاط الجماعات القرابية، مما تتعذر معه البرهنة على صحة فرضية النقاء العرقي الكامل والدائم لأية جماعة بشرية وعدم اختلاطها بالجماعات الأخرى، باستثناء الجماعات المتعذر عليها عمليا الاختلاط بغيرها (سكان الجزر المنعزلة)، أو التي تحرّم الزواج الداخلي، مما يفرض على رجالها ونسائها التزاوج مع أعضاء الجماعات الأخرى. وإذا كان الارتباط القرابي بين أفراد الجماعة الاجتماعية، ارتباطا موضوعيا فعليا في المراحل الأولى لنشأتها، ولأي سبب كان، فإن هذا الارتباط، يفقد بمرور الوقت أساسه

الموضوعي الفعلي، ويكتسب تدريجيا طبيعة ذاتية افتراضية (تخيلية)، يرسخها المجتمع بأساليب مختلفة، تعوضها عن افتقارها المتزايد للأسس الموضوعية. وإذ اعتقد أن الارتباط القومي بين كل الجماعات البشرية، يظهر عبر التاريخ في ثلاثة مستويات وجودية تطورية متعاقبة، كل منها يحوي الذي يسبقه ويستند إليه وهي:

المستوى الوجودي الشعوري للارتباط القومي:

ويعكس ويعبر عن إحساس كل جماعة اجتماعية بذاتها (هويتها، شخصيتها) وتحديدها لنفسها بـ(الذات/ نحن) وتحديدها لغيرها بـ (الآخر/ هم)، وهو مستوى وجودي تشترك في امتلاكه الجماعات القديمة والحديثة، البدائية والمتحضرة، الصغيرة والكبيرة، ما دامت كل منها مدركة لوحدتها الذاتية واختلافها عن الجماعات الأخرى، وحريصة على عدم فقدان وحدتها ولا اختلافها، ورافضة للاندماج والتماهي في جماعات أخرى. ويترتب على هذا الشعور، وجود فضاءين اجتماعيين وثقافيين، فضاء (الذات/ النحن) الذي تنتمي إليه الجماعة، وفضاء (الآخر/ هم) الذي تنتمي إليه الجماعات الأخرى. ويمنح هذا للمستوى الوجودي الشعوري للارتباط القومي بعدين:

* بُعد الشعور بالوحدة مع الجماعة التي ننتمي إليها ونتشابه معها في موروثاتنا ومكتسباتنا (الذات/ نحن).
* بُعد الشعور بالاختلاف عن الجماعة التي لا ننتمي إليها ونختلف معها في موروثاتنا ومكتسباتنا (الآخر/هم).

المستوى الوجودي الفكري للارتباط القومي:

ويعكس ويعبر عن تقدم بعض الجماعات الاجتماعية خطوة إلى الأمام على طريق الارتباط القومي، بما يوصلها إلى ما بعد المستوى الوجودي الشعوري لتضيف إليه أيضا استخدام بعض أفرادها المتاحَ لهم من الوسائل والأساليب الفكرية الأدبية والفنية والقدرات والخبرات البحثية المنهجية، لإنتاج أعمال يعبرون بها عن وحدة جماعتهم القومية، وتأكيد هويتها وشخصيتها المميزتين، وإعلاء قيمها والدفاع عن مصالحها الجماعية. وإذا كانت كل الجماعات الإنسانية، تشترك في امتلاك المستوى الوجودي الأول الشعوري للارتباط القومي، فان ظروفا خاصة، تمكن بعض هذه الجماعات من امتلاك المستوى الوجودي الثاني الفكري للارتباط القومي، منها بلوغ درجة من التقدم والتعقيد الحضاري، تسمح لها بخلق وتطوير واستخدام وسائل وأساليب التعبير الفكري عن هذا المستوى، الشعر أو القصة أو الرسم أو النحت أو البحث المنهجي، لتؤكد بها ارتباطها القومي، وتدافع عنه، وترد على مخالفيها ومعارضيها.

المستوى الوجودي السياسي للارتباط القومي:

ويعكس ويعبر عن تقدم بعض الجماعات الاجتماعية التي بلغت سابقا المستوى الوجودي الفكري، خطوة أخرى إلى الأمام على طريق الارتباط القومي، لتضيف إلى ما تمتلكه سابقا من المستويين الوجوديين الشعوري والفكري، مستوى آخر للارتباط الوجودي القومي، أكثر عمقاً وتطوراً وتعقيداً، ويتمثل في مطالبة هذه الجماعات بالحقوق الأساسية الثلاثة السياسية - القانونية التي تعتقد أن من حق كل جماعة قومية المطالبة بها وهي:

- حق الجماعة القومية (الأمّة) في تقرير

مصيرها.
- حق الجماعة القومية (الأمّة) في إقامة دولتها القومية المستقلة الموحدة.
- حق الجماعة القومية (الأمّة) في السيادة الكاملة على إقليمها وفي دولتها.
ويعني ذلك: إنّ القومية (المستوى الوجودي الشعوري للانتماء إلى جماعة محددة، ذات هوية مستقلة ومميزة تؤمن بها وتدافع عنها)، مستوى وجودي عرفته وامتلكته كل الجماعات البشرية، ولكن بعضها فقط تقدم خطوة نحو معرفة وامتلاك المستوى الوجودي الفكري للارتباط القومي، وقبل ظهوره في أوربا بقرون كثيرة. ثم تقدم بعض هذا البعض من الجماعات القومية (الامم) خطوة أخرى نحو امتلاك المستوى الوجودي السياسي.
ويعني ذلك، خطأ الرأي القائل باختصاص أوربا الحديثة وانفرادها بنشأة كل مستويات الظاهرة القومية بكل مستوياتها، بقدر ما يعني بالمقابل أن قوميات (أمم) أوربا كانت فقط، أول من عرفت وامتلكت المستوى الوجودي السياسي للارتباط القومي، ثم انتقلت الرغبة في امتلاك هذا المستوى إلى شعوب العالم غير الأوربية، سواء رغبة في التشبه بأوربا وحذو حذوها، أو رغبة في امتلاك ما منح القوة لأوربا، للتمكن من التصدي لسياساتها الاستعمارية التوسعية.
ومن ثم، فإن الظروف التاريخية والعوامل الاجتماعية الداخلية والخارجية مجتمعة ومتفاعلة، هي التي حكمت وتحكم في النهاية، نوعية المستوى الوجودي للارتباط القومي الذي تبلغه كل قومية، ومدى استعدادها أو عجزها عن الانتقال إلى المستوى الذي يليه، من غير أن يجعل ذلك بعض القوميات أرقى من بعضها، أو أكثر قدرة وتفوقاً.
ولكن لا بدّ من الإقرار هنا بثلاث وقائع مهمة تتعلق بالمسألة القومية في العصر الحديث وهي:
* إن الجماعات القومية في أوربا الغربية، سبقت غيرها من الجماعات القومية في عصري النهضة والحداثة إلى امتلاك المستوى الوجودي السياسي للارتباط القومي، بطبيعته الكلية الشاملة للمستويين الآخرين الشعوري والفكري، بتأثير مجموعة من العوامل والخصائص الموضوعية العامة، التي امتاز بها هذان العصران.
* إن سبق الجماعات القومية في أوربا الغربية، غيرها من الجماعات القومية في عصري النهضة والحداثة إلى امتلاك المستوى الوجودي السياسي للارتباط القومي، اقترن بتغير نظام ونمط الإنتاج الاقتصادي فيها من نمط الإنتاج الإقطاعي إلى الرأسمالي، التجاري (الماركنتيلي) أولا، ثم الصناعي - التجاري تالياً.
* إن تغير نظام ونمط الإنتاج الاقتصادي في الجماعات القومية في أوربا الغربية، وقبل غيرها من الأمم في عصري النهضة والحداثة، من نمط الإنتاج الإقطاعي إلى الرأسمالي، التجاري (الماركنتيلي) أولا، ثم الصناعي - التجاري تالياً، اقترن بتزايد قوتها، ما شجعها على تبني سياسات التوسع والنهب الاستعماري التي لفتت الأنظار إلى دور النظرية والوحدة القومية في قوة المجتمعات والحكومات. وبقدر تعلق الأمر بهذه الوقائع الثلاث، فإن ملاحظة الفلسفة السياسية الماركسية لها، وإدراكها للاقتران الواسع والعميق بينها، يبدو لي أنه كان العامل الأساس الذي دفعها، وهي الابنة الشرعية للبيئة الأوربية الغربية، إلى ربط النزعة القومية بالرأسمالية وسياساتها الاستعمارية، وجعلها تتخذ منهما موقفا سلبيا، وليس دافعها إلى ذلك طبيعة سلبية كامنة في النزعة القومية بحد ذاتها. واعتقد أن ذلك يقتضي من الشعوب التي عانت من سياسات التوسع والنهب الاستعماري الأوربية، إعادة قراءة الماركسية،

واستخلاص نتائج ودروس مختلفة منها عن المسألة القومية وكيفية فهمها والتعامل معها والاستفادة منها، بقدر ما تحتاج أيضا إلى إعادة قراءة الماركسية، واستخلاص نتائج ودروس مختلفة منها عن المسألة الدينية التي لطالما تم تشويهها وعرضها عكس ما كان مقصودا بها عند ماركس وانجلز وحتى لينين وباقي المفكرين الماركسيين. ولعل مما عبر عن إعادة قراءة الماركسية في عقد السبعينيات من القرن الماضي، تبني العديد من الأحزاب الشيوعية الأوربية، التوجه المعروف بـ(الأورو شيوعية)، التي كانت من جهة توجها جمع بين تمسك هذه الأحزاب بماركسيتها، ومراعاتها للخصائص واحتياجات مجتمعاتها، وتقليل انحيازها لأفكار وسياسات الحزب الشيوعي السوفيتي، وكانت من جهة ثانية تعبيرا عن تأثرها بأفكار المناضلين الشيوعيين البولندية - الألمانية (روزا لوكسمبورغ1871-1919م)، والايطالي (انطونيو غرامشي1891-1937م)، والتجربة النضالية للحركة الشيوعية النمساوية، والنتائج الفكرية والعملية للتجربة الشيوعية الصينية.

الثقافة الجديدة:

منطلقين من فرضية نتخذها مسلمة في النقاش، وهي أن المنظومة الرأسمالية العالمية ما زالت، كبنية، تتشكل من بلدان مركز وبلدان أطراف أو بلدان تابعة؛ هل يمكن أن تُجمل لقرائنا أهم الاختلافات بين الهويات الجمعية ووظائفها في بلدان المركز وبلدان الأطراف، والاختلافات بين انساق الفعل الاجتماعي التي تؤدي إلى إنتاج أو إعادة إنتاج وتشكيل الهويات الجمعية بين هاتين المجموعتين من البلدان.

وفي هذا الصدد أيضا، هل هناك مميزات إضافية لهذا الفعل الاجتماعي في البلدان الريعية مثل العراق؟

د. علي عباس مراد:

في ضوء ما تقدم قوله، أود أن أشير أولا إلى أن بلدان المركز وبفعل تقدمها العام والشامل، تتمتع بقدر فائق من القدرة والفاعلية والتأثير، بقدر ما أن بلدان الأطراف وبفعل تخلفها وفساد حكوماتها وحكامها، تعاني من قدر فائق معكوس من ضعف إن لم يكن انعدام القدرة والانفعال والتأثر، وآخر وأخطر تأثيرات بلدان المركز على بلدان الأطراف هي (العولمة) التي لا حول لبلدان الأطراف حتى الآن ولا قوة على مواجهتها، ولا بديل لديها مؤهل للحلول محلها، خصوصا وأن الماكينة الإعلامية الجبارة لبلدان المركز كثفت جهودها منذ أكثر من نصف قرن لتلقين بلدان الأطراف فكرة تخلف هوياتها وعدوانيتها، وعدم جدارتها بالتمسك بها، بل لعلها مبعث للخجل وسوء السمعة بما يستدعي التخلي عنها، أو على الأقل إخفاءها والتستر عليها.

وزاد الأمر سوءا وارتباكا على بلدان الأطراف، أن مشكلة الهوية، وكما سبق وقلت في كتابي (مشكلات إعادة بناء الدولة في البلدان العربية.. حالة العراق 2003 - 2018)، اتسعت وتعمقت في العقد الأخير من القرن العشرين والعقود الثلاثة الأولى من القرن الحادي والعشرين، لتغدو مشكلة إنسانية عامة، تعاني منها العديد من الدول الحديثة النشأة، بل وحتى بعض الدول الغربية القديمة النشأة وذات الهويات الراسخة، فقد لاحظ المفكر اللبناني - الفرنسي (أمين معلوف) في كتابه (الهويات القاتلة) أن أوربا وهي على أعتاب القرن الحادي والعشرين (وأكثر منها في الماضي، تُسائل نفسها عن هويتها.. غير واثقة بالأجوبة)، وعلل ذلك

بانتقال الدول الغربية، بعد انتهاء المجابهة بين المعسكرين الشرقي والغربي (من عالم كانت فيه الانشطارات أيديولوجية بالدرجة الأولى.. إلى عالم باتت فيه الانشطارات هووية بالدرجة الأولى.. فراح كل واحد ينادي بانتماءاته في وجه الآخرين، ويُكفّرُ ويحشد أهله، ويؤبلِسُ أعداءه)، وأن ذلك الانتقال، اقترن أيضاً بانقلاب جذري في طبيعة مشكلة الهوية، انقلابا استجلب (عواقب مدمرة على كوكبنا بمجمله، لكن هذا الدمار لم يبلغ في أي مكان القدر الذي بلغه في المحيط الثقافي العربي - الإسلامي) الذي باتت فيه هوية هذا المحيط متهمة صدقا أو كذبا، حقا أو باطلا بالإرهاب، ما جعلها هوية لا يخشى أصحابها من التصريح بها فحسب، بل ويخجلون منها أيضا. وقال عالم الاجتماع الفرنسي (الان تورين 1925 - ؟؟)، في كتابه (براديغما جديدة لفهم عالم اليوم)، إن من العواقب العالمية الأخرى لتغير طبيعة مشكلة الهوية، الانتقال من مرحلة (الهويات الجماعية) إلى مرحلة (الذات الفاعلة الشخصية)، نتيجة لثلاث مقدمات هي:

- إن المجتمعات المعاصرة تشهد تحولات عميقة ودرامية بفعل أحداث 11 سبتمبر 2001
- إن المجتمعات المعاصرة تتفتت إلى جماعات حتى غدت مجتمعات (مدمَّرَة، متشرذمة، مقلوبة رأسا على عقب)، فهل نعيش اليوم (عودة إلى الجماعات المنغلقة على ذاتها).
- إن المجتمعات المعاصرة تشهد تقهقر المطالب الاجتماعية بل وحتى أفولها، وتزايد المطالب الثقافية وتصاعدها، سواء بشكل طائفي، أو بشكل دعوة إلى ذات فاعلة شخصية، ومطالبة بحقوق ثقافية، فبعد أن كنا نتحدث عن (فاعلين اجتماعيين) و(حركات اجتماعية)، بتنا نتحدث عن (ذوات فاعلة شخصية) و (حركات ثقافية).

أصول مشكلة الهوية الوطنية في العراق.. الحاجة الى مقاربة أعمق

إن التغيرات الطارئة حديثا على طبيعة ومحركات مشكلة الهوية، وتباين الدعوات إليها أو ضدها، لا يُخفيان حقيقة أن الهوية كانت وستبقى جوهر الوساوس الإنسانية، ومن منظور حالة الهوية في العراق، فإنها لا تعاني من هذه التغيرات فحسب، بل وتعاني أيضا وأصلا من مشكلة الاتفاق على طبيعة هذه الهوية، نتيجة أسباب يمكن تحديد أهمها في:

- إن الدولة العراقية واقع اجتماعي - جغرافي - سياسي حديث، لا يتجاوز عمرها بدايات العقد الثاني من القرن العشرين.
- إن الدولة العراقية واقع جغرافي واجتماعي وحضاري حديث، لا يتطابق تماما لا مع الواقع الجغرافي لإقليم العراق القديم، ولا مع تكوينه الاجتماعي وطابعه الحضاري.
- إن الدولة العراقية كواقع جغرافي اجتماعي - سياسي حديث، تأسست في ركنها الإنساني على الشعب العراقي الذي لم يكن له وجود سابق عليها، ولم يتشكّلَ عمليا إلا بفعل بريطاني غائي مقصود، لتجميع جماعات اجتماعية ذات انتماءات قومية ودينية ومذهبية متنوعة، لا يجمعها جامع مشترك، سوى تابعيتها السابقة للدولة العثمانية، واستقرارها في ثلاث ولايات عثمانية متجاورة موجودة على الإقليم الجغرافي التاريخي المعروف تاريخيا باسم (عراق)، دفعت المصالح ببريطانيا إلى جمعها، وتشكيل كيان سياسي جديد منها. ولكن حداثة تكوين الدولة العراقية، وتعدد وتنوع مكوناتها المجتمعية، ليست مشكلة في حد ذاتها، ولا هي بالأمر الاستثنائي الخاص بالعراق وحده دون غيره، فكثير من الدول حديث النشأة، ومعظمها إن لم يكن كلها، ذات طبيعة متعددة ومتنوعة اجتماعيا بهذا الشكل والقدر أو ذاك. ولكن واقع العديد من

الدول التي تقترن فيها حداثة التكوين مع تعدد وتنوع المكونات المجتمعية، بـــما في ذلك الدولة العراقية، يبين أنها غالبا ما تعاني نتيجة لذلك التعايش والتفاعل من مشكلتين:

المشـــكلة الأولى: مشـــكلة غلبـــة عوامل الاختلاف والتنافر بـــين المكونات المجتمعية المتنوعـة للدولـة علـى عوامـل التجانـس والتلاحـم بـــينها، بـــما يجعلها دولا ذات مجتمعات ضعيفة الاندماج، إن لم تكن عديمة الاندماج كليا.

المشـكلة الثانية: مشـكلة فشـل السياسـات الحـكومية والمحـاولات المجتمعية المدنية لإدارة علاقـــات التعايش والتفاعل بـــين المكونات المجتمعية المتنوعة بـــــما يهدد الاندماج المجتمعي الوطني، ومن ثم يضعف شـرعية نظام الحـكم وحـتى الدولة أحـيانا، ويهدد استقـــرار النظام والدولة وحـــتى استمرارهما.

وإذ تأسست الدولة العراقية الأولى في العصر الحديث، بفعل إرادي خارجي، فقد عانى ذلك التأسيس ولواحقه من مشكلات كثيرة، عملت على تغليب الهويات المجتمعية الفئوية ما دون الدولة (المنطقة، القبيلة، المذهب)، أو ما فوق الدولة (القومية، الدين، الطبقة)، على الهوية الوطنية العراقية الموَحَّدَة والموَحِّدَة، وترسيخ المختلفات التي تفرق وتجزئ مكونات المجتمع العراقي على حساب المشتَرَكات التي تجمع وتوحد هذه المكونات. وتشمل تلك المشكلات:

1- تعيين الحدود الراهنة للدولة العراقية وفقا لمصلحة بريطانيا في المقام الأول.

2- تأسيس الدولة العراقية على يد نخب جلها غير عراقي المولد.

3- إن الأسس الاقتصادية - الاجتماعية في العراق لم تكن ملائمة لبناء واسع وعميق لطبقة الوسطى التي تعد الأساس لبناء هوية وطنية.

4- إن الأسس الاقتصادية - الاجتماعية في العراق الملائمة لبناء الطبقة الوسطى، كانت هشة وسريعة العطب والاندثار.

5- إن قيادات الجماعات والهويات الفئوية ما دون وما فوق الدولة في العراق، بقيت ذات حضور وأدوار فاعلة حتى بعد البدء ببناء الدولة، وكان أهمها (الإقطاعيين وشيوخ القبائل ورجال الدين).

6- إن أيا مما جرى تسويقه بين العراقيين من الصور المتنوعة للأيديولوجيات الشمولية القومية والطبقية والدينية (= ما فوق الدولتية)، حلت عندهم محل الهويات المجتمعية العراقية الأخرى، وعملت على تذويبها، لتسعى كل منها لإقامة دولة تكون جزءا من كيان اكبر عابر للوطنية يحتويها (أمة عربية، طبقة عمالية، ملة إسلامية، مذهب شيعي أو سني).

7- إن التهميش والإقصاء اللذين عانت منهما بعض المكونات المجتمعية العراقية منذ عام 1921 وما بعده، كان فعلا غير قصدي في البدء، لأن بريطانيا لم تعارض مشاركة تلك المكونات في عملية بناء الدولة، لكنه أصبح فعلا قصديا في ما بعد في سياسة بعض النظم السياسية العراقية، ولو بدرجات وأشكال متفاوتة، واكتسب خصوصية وتكثيفا واضحين بعد عام 1980 ولأسباب متعددة ومتنوعة.

" المظلوميات " بين حركة الواقع والتوظيف السياسي

وتقتضي الموضوعية والأنصاف قولين في هذا الشأن:

القول الأول:

إن سياسات التهميش والإقصاء التي اتبعها النظام الملكي في العراق ضد مكونات اجتماعية عراقية معينة، كانت في جانب

منها، رد فعل على المواقف السلبية التي اتخذتها تلك المكونات ليس منه فحسب، بل وحتى من مشروع بناء الدولة العراقية بكامله، ومن علاقة هذه الدولة بحليفتها بريطانيا.

القول الثاني: إن سياسات التهميش والإقصاء التي اتبعتها بعض النظم السياسية الجمهورية في العراق ضد مكونات اجتماعية عراقية معينة، وظفتها تلك المكونات في معارضتها السياسية، بعضها تحت مسمى (المظلومية المذهبية -الشيعة) وبعضها تحت مسمى (المظلومية القومية-الأكراد) و(المظلومية الدينية -الأرمن)، لكن الشخصيات والأحزاب والكتل السياسية لتلك المكونات، لم تكن ذكية بقدر كاف لتعيد توظيفها بعد وصولها إلى السلطة عام 2003م في إعادة بناء الدولة العراقية على أسس صحيحة وراسخة، بقدر ما وظفتها للمطالبة بسياسات (التعويض عن المظلومية) و(تقاضي الأجر عن المعارضة)، بشكل تجاوز حدود المبالغة بكثير، وخرج تماما وكليا على قواعد المساواة في الحقوق الوطنية. وإذا كان من المفترض أن تقترن ولادة أية دولة، أو على الأقل تنتهي تلك الولادة، بالإجابة على السؤال مركزي عن هوية الهوية الوطنية الجامعة لمكوناتها المجتمعية؟ فالظاهر أن مؤسسي الدولة العراقية الحديثة عام 1921م، ومَن حكمها بعدهم وصولا إلى عام 2022، فشلوا جميعا، بنسب متفاوتة ولأسباب متباينة، في الإجابة عن هذا السؤال. ويتأكد ذلك بأن حال الدولة العراقية انتهى بعد سقوط النظام السابق عام 2003، وعلى حد قول (حميد فاضل حسن) في دراسته (الهوية العراقية وبناء الدولة): بأن عادت، وكما بدأت في مطلع القرن العشرين، لا بلداً موحداً، ولا شعباً متجانساً، ولا مجتمعاً متكاملاً ينضوي تحت هوية وطنية واحدة. وكان الملك (فيصل الأول) (رحمه الله)، قد تنبه باكرا إلى غياب الهوية العراقية، ونبّه عليه في المذكرة التي كتبها في آذار 1932، وقبل وفاته بأشهر قليلة ونقلها عنه (عبد الكريم الأزري = الأذري) في كتابه (مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام) وقال فيها.

1- إن البلاد العراقية من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى منقسمة على بعضها.

2- إن العراق فيه أفكار ومنازع متباينة جداً، تستوجب رد الفعل (الشبان المتجددون بمن فيهم رجال الحكومة، المتعصبون، السنة، الشيعة، الكرد، الأقليات غير المسلمة، العشائر، الشيوخ، السواد الأعظم الجاهل المستعد لقبول كل فكرة سيئة بدون مناقشة أو محاكمة).

3- إن العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثريته جاهلة، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية، يسوقونه للتخلي عنها بدعوى أنها ليس من عنصرهم، وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهاد الذي كان يلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يُمكنهم من الاشتراك في الحكم، وعدم التمرن عليه، فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين، إضافة إلى أقليات مسيحية، وكتل كبيرة، غيرها من العشائر، كردية وشيعية وسنية..تجاه هذه الكتل البشرية، المختلفة المطامع والمشارب، المملوءة بالدسائس، حكومة مشكلة من شبان مندفعين، أكثرهم متهمون بأنهم سنيون أو غير متدينين أو أنهم عرب. واتفق عالم الاجتماع العراقي الراحل (علي الوردي 1913 - 1995م) مع الملك (فيصل الأول) (رحمه الله) في هذا الخصوص، حين وصف أهل العراق في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق

الحديث ج5) بأنهم: (لم يعرفوا قبل نشوء الدولة العراقية شيئاً من المفاهيم السياسية الحديثة مثل الوطنية، بل كان جل ما يشغل بالهم الإحساس الديني المتمثل بقضايا التعصب المذهبي)، ونضيف إلى ذلك أيضا، الإحساس بقضايا التعصب القومي بعد قيام هذه الدولة. الولاء للهويات الفرعية دون الوطنية في العراق، هو إرث تاريخي سلبي، عجزت الحكومات العراقية المتعاقبة عن التخلص منه. ويؤسس ذلك للاستنتاج بأن الولاء للهويات الفرعية دون الوطنية في العراق، ليس شيئاً مستجداً أو مستحدثا، بل هو إرث تاريخي سلبي، عجزت الحكومات العراقية المتعاقبة عن التخلص منه ببناء هوية وانتماء وطنيين جديدين، بعد أن فشلت هذه الحكومات في صناعة هوية وطنية جامعة بديلة للهويات القومية والدينية والمذهبية والقبلية والمناطقية، وعجزت عن نقل مجتمعها من المستوى التقليدي المنظم تقليديا إلى المستوى الحديث المنظم سياسيا في إطار الدولة. ولكن لا بد من الاحتماء هنا، بل وحتى التشبث بالواقعية والموضوعية، بالقول إن لا غرابة ولا عيب في أن تنتمي الجماعات التي تكونت منها الدولة العراقية إلى هوياتها الجماعية ما دون الوطنية (القبلية، المناطقية)، أو ما فوق الوطنية (الطبقية، القومية، الدينية، المذهبية)، لأن من الطبيعي أن لا ينتمي الإنسان إلى هوية غير موجودة ولا معروفة ولا مقبولة بالنسبة له أصلا. ويعني ذلك:

- إن مشكلة الهوية الوطنية في العراق مشكلة طبيعية بل وحتمية.
- إن مشكلة الهوية الوطنية في العراق مشكلة حديثة النشأة.
- إن مشكلة الهوية الوطنية في العراق مشكلة سياسية أولا وأساسا.

فنشأة الدولة العراقية بعد أن لم يكن لها وجود سابق، كانت تتطلب نشأة موازية لهوية وطنية عراقية، تتبناها حكومة هذه الدولة، وتعيد على أساسها هندسة وصناعة أفكار وسلوكيات مكوناتها المجتمعية، تصنع من هذه المكونات (الشعب العراقي)، وهو ما كان يجب أن يكون عليه المشروع الأول للدولة والحكومة العراقيتين، بعد مشروع صناعة هذه الدولة. ولعل خير من يعبر عن هذا المعنى ويوجزه، ما نقله المفكر الانكليزي الماركسي (إريك هوبزباوم1917 - 2012م) في كتابه (الأمم والنزعة القومية منذ عام 1780) من قول أحد رموز الحركة القومية الايطالية (ماسيمو دازيغليو)، مخاطبا النواب الذين حضروا الجلسة الأولى لبرلمان المملكة الايطالية بعد إعلان توحيدها: (لقد صنعنا ايطاليا، والآن علينا أن نصنع الايطاليين)، وقول (كولونا) أحد رموز الحركة القومية البولندية: (إن الدولة هي التي تصنع الشعب، وليس الشعب هو الذي يصنع الدولة).

ويقودنا هذا إلى ملاحظة أنه، وعلى الرغم من أن (بناء الدولة وبناء الأمة عمليتان مترابطتان ومتكاملتان)، ولكن عاملي طبيعة المجتمع والعلاقات الاجتماعية السائدة فيه،

هما اللذان يحددان أي العمليتين تكون الأولى.
وتراوح تفسير العلاقة بين هاتين العمليتين المترابطتين والمتكاملتين في التاريخ السياسي الحديث بين نظريين:
- النظرية المؤسسية القائلة: إن الدولة هي التي تتولى مهمة بناء الشعب/ الأمة.
- النظرية التعاقدية القائلة: إن الشعب/ الأمة هو الذي يتولى مهمة بناء الدولة.
والنظرية المؤسسية هي النظرية الأقرب إلى الحالة العراقية من النظرية التعاقدية، وهو ما يتطابق والقولين السابقين للايطالي (دازيغليو) والبولندي (كولونا)، لأن الشعب العراقي، كأحد أركان ومقومات الدولة العراقية الحديثة التكوين، لم يبدأ بالتشكل فعليا، إلا بعد تكوينها، جامعا في إطاره قوميات وأديانا ومذاهب متعددة ومتنوعة، لم يكن لها من جامع سياسي قبل ذلك سوى انتمائها إلى إحدى الولايات العثمانية الثلاث (بغداد والموصل والبصرة) التي تكونت منها الدولة العراقية بفعل بريطاني خارجي غائي، ومن الطبيعي، بل والحتمي، في مثل هذه الحالة، ألا يكون هناك وجود قبل تكوين الدولة العراقية، لا لشعب عراقي ولا لهوية وطنية عراقية موحدة ومحددة الملامح، وهو ما يجعل أول وأهم مهمات ومسؤوليات الحكومات المتعاقبة في هذه الدولة، هي مهمة ومسؤولية بناء/ صناعة شعبها عبر بناء/ صناعة هويته وهوية دولته الوطنية. وحيث إن الدولة العراقية من النوع الذي تصنع الدولة فيه الشعب/ الأمة، عبر صناعة هويته وهوية دولته الوطنية الموحَدَة والموحِدَة، فإن النتائج العملية لسياسات الحكومات العراقية المتعاقبة بين الأعوام 1921 - 2023م، تبين فشلها كلها وحتى الآن في صناعة هذه الهوية، لأنها فشلت أصلا في تحديد طبيعة الهوية الوطنية العراقية التي ترغب في صناعتها، وما حاولت صنعه منها، لم يحظ بقبوله والاتفاق العام عليه.

وكانت معاناة هذه الأنظمة من الفشل المتكرر والدائم في صناعة هوية وطنية عراقية واحدة وموحدة، تقوم على مبادئ المواطنة والمساواة اللازمة والمؤهلة لتحقيق وترسيخ الاندماج الوطني، السبب في فشلها أيضا في احتواء الاختلافات بين المكونات المجتمعية العراقية وهوياتها الفرعية. ويكاد يكون من المسلمات اليوم. أن هذا الفشل المشترك والمتكرر للحكومات العراقية المتعاقبة كلها في بناء الهوية الوطنية الجامعة، يعود إلى حكمها للعراق وإدارتها لشؤونه بأسلوب لا يعترف كثيرا بالتعددية الثقافية ولا يراعي متطلباتها تماما، لتتفاقم تلك المشكلة ويتسع نطاقها وتزداد حدتها حتى تبلغ ذروتها في العقدين الأخيرين من القرن العشرين بعد أن امتزجت تدريجيا مع المشكلات الأخرى للتنمية في العراق (المشاركة والشرعية والاندماج والتغلغل والتوزيع)، لتساهم كل مشكلة منها في تعقيد المشكلات الأخرى وتوسيع نطاقها وزيادة حدتها وتوترها.
لقد كانت القوى السياسية العراقية، محتارة دائما في خياراتها بين أربع هويات متنافسة، إن لم تكن متناقضة، هي:
- الهوية الوطنية العراقية.
- الهوية القومية العربية.

- الهوية الطبقية الاقتصادية.
- الهوية الدينية الإسلامية العامة ثم الدينية - المذهبية الخاصة الشيعية أو السنية.

وكان من شأن اختيار أي من هذه الهويات، أن يُحدث مشكلات سياسية ومجتمعية، داخلية وخارجية، إقليمية وحتى دولية، بحكم اصطدامه باختيارات الهوية وتفضيلاتها لدى مكونات عراقية و/أو أطراف إقليمية أو دولية أخرى، تعارض ذلك الاختيار، وتخشى من آثاره السلبية على مصالحها وأهدافها وسياستها في العراق والمنطقة والعالم. وإذ اكتسبت المراوحة الفكرية - السياسية بين هذه الهويات، وبمرور الوقت، بعدا ومستوى حكوميا، سمح لكل هوية بالتعبير عن نفسها في صورة سياسات حكومية، فقد باتت الولاءات المجتمعية في العراق منقسمة على أربعة مشاريع للهوية هي:

- مشروع الهوية الوطنية.
- مشروع الهوية القومية.
- مشروع الهوية الطبقية.
- مشروع الهوية الدينية - المذهبية.

ساهمت تأثيراتها في إحداث خلط مفاهيمي وبرامجي لدى النخب الفكرية والحزبية والمكونات المجتمعية في العراق، تسبب في فقدانها، ومن ثم فقدان الدولة العراقية، للهوية الوطنية الموحدة والمستقرة في الإنشاء والتكوين والدور والوظيفة، فأضر ذلك بدوره ببنية هذه الدولة وفعلها الخارجي، وأفقدها وضوح الانتماء ورسوخ التأسيس والبقاء، لتتشطر الذات والهوية الوطنية العراقية وتفقد وحدة الثوابت والأهداف والسياسات. ولعل من السمات المميزة لمشكلة الهوية الوطنية في العراق، ارتباطها ليس فقط بالعوامل الاجتماعية والسياسية التاريخية الداخلية، بل وارتباطها أيضا بالعوامل الخارجية بفعل تدخل القوى الإقليمية والدولية في الشأن العراقي لأسباب وأهداف مختلفة، وظهر ذلك التدخل بأجلى صوره بعد عام 2003 في محاولاتها المكشوفة لتوظيف الهويات الفرعية للمكونات المجتمعية العراقية في تطبيق سياسة (فرّق تسد)، حيث توزعت خيارات التأييد والمعارضة التي تبنتها تلك القوى الخارجية بين أربعة مواقف:

- موقف التركيز على الهويات الفرعية (المذهبية) عند أجزاء من النسيج المجتمعي العراقي (العرب السنة والعرب الشيعة)، والتغاضي دائما عن هوياتها القومية العربية.
- موقف التركيز على الهوية (القومية) عند أجزاء من النسيج المجتمعي العراقي (الكرد، التركمان)، والتغاضي دائما عن هوياتها الأخرى (الدينية الإسلامية والمذهبية السنية والشيعية).
- موقف التركيز على الهويات (الدينية) عند أجزاء من النسيج المجتمعي العراقي (الصابئة، الأيزيديين، الشبك، الكاكائيين)، والتغاضي دائما عن هويتها الوطنية العراقية الواحِدة الموحِدَة الجامعة.
- موقف التركيز على الهويات (القومية - الدينية) عند أجزاء أخرى من النسيج المجتمعي العراقي (المسيحيين الكلدوآشوريين، الأرمن)، والتغاضي دائما عن هويتها الوطنية العراقية الواحِدة الموحِدَة الجامعة. وينطوي هذا التصنيف والتوزيع المركب (القومي والديني والمذهبي)، الخارجي والطارئ، على مشكلات إجرائية تتمثل في:

- مشكلة التجاهل المتعمد للطابع القومي للمكون المجتمعي العراقي الأعلى نسبة سكانيا (العراقيين العرب)، وتقسيم هذا المكون بدلا من ذلك على هويتين طائفيتين مذهبيتين (عربية - شيعية وعربية - سنيّة).
- مشكلة التأكيد المتعمد على الطابع القومي

للمكونين الاجتماعيين العراقيين الآخرين الأقل عددا، (العراقيين الكرد والعراقيين التركمان)، كل منهما منفردا بذاته، على الرغم من كونهما أيضا مكونين إسلاميين، ينقسمان مذهبيا وبشكل طبيعي إلى (كرد وتركمان شيعة وكرد وتركمان سنة)، حالهم في ذلك حال العراقيين العرب المسلمين.

وإذ يستوجب ذلك التساؤل عن أسباب تصنيف القوى الإقليمية والدولية للعرب مذهبيا، وتصنيفها للعراقيين الكرد والتركمان قوميا، وتعاملها معهم على أساس ذلك؟ فإن أهم تفسير، هو واقع المكون العراقي العربي، بوصفه المكون الاجتماعي الأكبر عددا، مما يتطلب تجزئته طائفيا لإضعاف دوره في تفاعلات وتوازنات الحياة الاجتماعية والسياسية العراقية الجديدة وتحالفاتها ومساوماتها. وتتحمل جزءا كبيرا من مسؤولية هذه التجزئة، وتحولها إلى واقع سائد ومقبول، الشخصيات والأحزاب والكتل العراقية العربية (الشيعية والسنية) التي تصدت للاشتراك في العملية السياسية، بفعل قبولهم بذلك، وتناسيهم لأسباب مصلحية شخصية، لم تعد خافية على أحد، ليس مسألة الهوية القومية العربية التي تجمعهم، بل وحتى مسألة الهوية الوطنية العراقية وشروطها الجامعة، وتفضيلَ كل طرف منهم، المراهنة رهانا مزدوجا على إضعاف الطرف العراقي العربي الآخر (العربي الشيعي يرغب في إضعاف العربي السني والعربي السني يرغب في إضعاف العربي الشيعي)، بحرمانه من جزء من مكونه القومي العربي والوطني العراقي. ويمكن الاستدلال على ذلك بما كان يزعمه الساسة العراقيون من العرب الشيعة والكرد عن قوة وعمق التحالف الشيعي - الكردي، الذي طالما وصفه الطرفان بأنه تحالف استراتيجي، وحيث إن غالبية العراقيين الكرد من المسلمين السنة، فسيكون هذا التحالف بينهم وبين العراقيين العرب الشيعة، وبشكل تلقائي وضمني، تحالفا شيعيا - سنيا، ومن ثم، فسيكون من المستغرب قبول العرب الشيعة بتحالف استراتيجي مع مكون اجتماعي عراقي مختلف عنهم مرتين: قوميا (عرب و كرد) ومذهبيا (شيعة و سنية)، وتعذر قبولهم بتحالف استراتيجي مثله مع مكون اجتماعي عراقي آخر، يتفقون معه قوميا (عرب)، لكنهم يختلفون معه مذهبيا (سنة). ولعل أقل ما يقال عن هذا التحالف الاستراتيجي العراقي الشيعي - الكردي المزعوم، هو أن العلاقة المتوترة دائما بين طرفيه، وخصوصا منذ عام 2017م، أثبتت أنه ليس تحالفا قائما على وحدة الهوية الوطنية، ولا حتى تحالفا إستراتيجيا راسخا، يستهدف مصلحة العراق وخيره، إن لم تكن تلك العلاقة قد أثبت أنه عكس ذلك تماما.

وكانت مراهنة العراقيين العرب المسلمين (الشيعة والسُنّة) على تناسي وحدة هوياتهم الثلاث المتماثلة والمشتركة بينهم: (الهوية الوطنية العراقية) و(الهوية القومية العربية) و(الهوية الدينية الإسلامية)، وتذكرهم هويتهم المذهبية المختلفة فقط (الشيعية والسنية)، مراهنة غبية وخاطئة في مقدماتها، وخاسرة ومضرة في نتائجها بالعراقيين جميعا (عربا وكردا وتركمانا مسلمين شيعة وسنة، ومسيحيين كلدوآشوريين وأرمن، وصابئة وأيزيديين وشبك وكاكائيين) وبجميع المقاييس:

- لأن هذه المراهنة الغبية والخاطئة والخاسرة والمضرة انعكست سلبيا على الهوية الوطنية العراقية بتقديمها الانتماء والولاء للهوية الطائفية المذهبية الجزئية على الانتماء والولاء للهوية الوطنية العراقية الكلية.

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة دفعت كل طرف طائفي (قومي أو ديني أو مذهبي)، للبحث عن حلفاء خارجيين من قوميته أو دينه أو مذهبه، فانفتحت أبواب

العراق واسعة أمام التدخلات الإقليمية والدولية، بحجة حماية حقوق الإنسان عامة، أو حماية حقوق هذه الطائفة أو تلك خاصة.

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة أنتجت دستورا دائما، قيل في قدحه أكثر مما قيل في مدحه، ومشكلاته أكثر من منجزاته، ونقده عند واضعيه مقارب لنقده عند معارضيه.

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة أنتجت دستورا معيبا في أكثر من موضع، وأنتج هذا الدستور بدوره نظاما ديمقراطيا توافقيا، ليس متوافقا أبدا، بل متواقف دائما، لأن كل طرف فيه يعمل على عرقلة كل مسعى وجهد للأطراف الأخرى، خصوصا إذا كان مسعى يحقق مصلحة وطنية عليا، حتى بات هذا النظام نظام المتواقف اللا متوافق، يعاني مشكلات ثقيلة وكبيرة، جعلت تغييره جذريا وكلي المطلب الوطني العام والمشترك، ولكن غير القابل للتنفيذ حتى الآن.

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة أنتجت دستورا معيبا في أكثر من موضع، وأنتج بدوره نظاما ديمقراطيا توافقيا، ليس متوافقا بل متواقف، فنتجت عن ذلك كله عملية سياسية تقوم على محاصصة مركبة: قومية - عرقية ودينية - مذهبية، تدعي الشخصيات والقوى والكتل السياسية العراقية كلها رفضها لها، وتزعم معارضتها لاستمرارها، لكنها جميعا تعمل في ظلها، وتربح منها، وتتمسك بها وتعمل على استمرارها بأشكال وذرائع مختلفة.

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة أنتجت عمليات واسعة للقتل والاختطاف والتهجير على الهوية القومية أو الدينية أو المذهبية، طالت غالبية العراقيين الذين لا يعرفون حتى الآن كيف بدأت ولا من هم وراءها، ولماذا استهدفتهم، ولماذا لا تتوقف، ولماذا تتصاعد كلما تصاعدت خلافات الأطراف المشاركة في العملية السياسية؟

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة أنتجت بإجماع الآراء حكومات ضعيفة وفاشلة وفاسدة، تسببت سياساتها العقيمة سنة 2014 في خروج أكثر من ثلث مناطق العراق من سلطة الدولة ووقوعها تحت سيطرة التنظيمات الإرهابية، وتهجير ونزوح أكثر من ثلاثة ملايين عراقي من مناطق سكناهم.

- لأن هذه المراهنة الغبية الخاطئة والخاسرة والمضرة أنتجت فسادا واسعا وعميقا ومستشريا، وهو ما استدعى ظهور دعوات للإصلاح ومطالب بمحاربة الفساد ومعالجة الفشل، بدأت منذ عام 2011 في محافظات (ديالى وصلاح الدين والأنبار والموصل)، وتسبب عجز الحكومة عن الاستجابة لها وتلبية مطالبها في ارتفاع حدتها حتى تحولت في ليلة 1 أيار 2016 إلى احتجاجات وتظاهرات، أجمعت غالبية الشخصيات والقوى والكتل السياسية، على وصفها بأنها (ضيَّعَت هيبة الدولة)، وهي الهيبة التي يبدو أن من يتحدثون عن ضياعها، ويتباكون عليها، نسوا أو تناسوا أنها هيبة سبق وضاعت من قبل بسبب العمليات الإرهابية وعمليات القتل والخطف والتهجير القسري على الهوية والنزوح، وأخيرا بسبب السياسات الحكومية الفاشلة، واستشراء الفساد الذي لم ينكره أحد منهم، بقدر ما لم يفعل أحد منهم شيئا حقيقيا للتصدي له وإيقافه عند حده، وأخيرا ضاعت هذه الهيبة بسبب ما لا يمكن أن يصدقه عاقل من تمكن جماعة مسلحة صغيرة وذات تسليح خفيف ومتوسط من السيطرة عام 2014 على ثلاث

محافظات عراقية كاملة، تحميها فرق عسكرية كاملة ذات تسليح ثقيل، ولم تتم هزيمة داعش وطرده منها وتحريرها إلا في تموز 2017، أي بعد ثلاث سنوات، جرت فيها عمليات عسكرية دائمة وموسعة، قدم فيها العراقيون تضحيات بشرية جسيمة، وشارك فيها إلى جانبهم تحالف دولي شكلته وقادته الولايات المتحدة الأمريكية وشاركتها فيه الدول الكبرى وعشرات أخرى غيرها. ثم عادت هذه الاحتجاجات لتتكرر في محافظة البصرة في 3 أيلول/ سبتمبر 2018، وتبعتها احتجاجات في محافظات وسطى وجنوبية أخرى (ميسان ، المثنى ، ذي قار ، القادسية)، تصدت لها بالقوة القسرية المفرطة، حكومة تصف نفسها وتقدمها لمواطنيها وللعالم بأنها حكومة ديمقراطية منتخبة، حلت محل حكومة استبداد دكتاتورية قمعية، لتنتهي هذه المسيرة الاحتجاجية السلمية بانتفاضة تشرين 2019 التي ما زالت مستمرة، ولكن قوى عديدة داخلية وخارجية تعمل على إفراغها من محتواها ومنعها من تحقيق أهدافها.

إن المساعي المكثفة والمتكررة لغالبية الشخصيات والقوى السياسية المشاركة في العملية السياسية، والعديد من الأطراف الإقليمية والدولية، للعب على الطابع الطائفي القومي والديني ومن ثم المذهبي للهويات المجتمعية العراقية، لا يبدو أمرا طارئا ولا صدفة عابرة، لأن هذه المساعي تبتغي تحقيق جملة أهداف، تَكَشَّفَ منها حتى الآن وبدلالة النتائج المتحققة على الأرض:

الهدف الأول:

خلق صراعات داخلية بين الهويات القومية والدينية والمذهبية والثقافية في العراق، تُبعد الأنظار عن ضرورات توحيد الصف الوطني العراقي لمقاومة القوى الدولية المحتلة ومن بعدها القوى الإقليمية، الساعية للتدخل في الشأن العراقي الداخلي، إن لم تكن الأخيرة قد بدأت تتطلع للسيطرة الكاملة والمباشرة على العراق.

الهدف الثاني:

خلق صراعات داخلية بين الهويات القومية والدينية والمذهبية والثقافية في العراق، تُبعد الأنظار عن صراعات الشخصيات والأحزاب والكتل السياسية على المكاسب والمغانم السلطوية، وعن فشلها طوال عقدين كاملين في تحقيق منجز واحد حقيقي يُذكر على مستوى الأمن أو الاستقرار أو الخدمات، وتبديدها ونهبها للموارد النفطية الهائلة، وبالشكل الذي جعل الدولة العراقية في النهاية، وبانعقاد الإجماع، دولة فاشلة وفاسدة بلا نظير ولا حتى في جمهوريات الموز اللاتينية.

الهدف الثالث:

خلق صراعات داخلية بين الهويات القومية والدينية والمذهبية والثقافية في العراق، تُبعد الأنظار عن العلاقة التكاملية والتكافلية بين مثلث مشكلات (المحاصصة والفساد والإرهاب)، بوصفها مشكلات تولّد إحداها الأخرى وتتقوى بقوتها وتنتشر بانتشارها، ولعل أخطر ما في مشكلة الإرهاب، أنها وفرت الظروف المناسبة لنشوء مشكلتي المحاصصة والفساد واستمرارهما واتساعهما، وكانت وما زالت تحميهما من الكشف والمحاسبة والمعاقبة بذريعة عدم ملاءمة الظروف الأمنية لذلك، فضلا عما يفتحه الإرهاب أمامهما من أبواب ومنافذ واسعة لابتلاع ميزانيات حكومية سنوية كاملة وهائلة ولسنوات عديدة قادمة، من دون تحقيق أي منجز ايجابي فعلي لا يُلمس ولا حتى يُذكر.

الهدف الرابع:

خلق صراعات داخلية بين الهويات القومية والدينية والمذهبية والثقافية في العراق، تُبعد الأنظار عن المشكلات التي تعطل التجربة الديمقراطية في العراق، وتعيق نجاحها، وتمنع انتقالها إلى دول أخرى، وخصوصا المجاورة

منها، عبر تحميل هذه التجربة مسؤولية التردي في الوضع الأمني وانعدام الخدمات على قاعدة غياب الهوية الوطنية الموَحِّدَة والموَحّدة وصراع الهويات الفرعية المجزأة.

الهدف الخامس:

خلق صراعات داخلية بين الهويات القومية والدينية والمذهبية والثقافية في العراق، تُبعد الأنظار عن الظروف والعوامل السلبية التي تدفع هذه الهويات دفعا للاعتقاد بحاجتها لحماية نفسها بالتحالف مع هذه القوة الخارجية أو تلك، بما يوفر ذرائع كافية لتدخل تلك القوى في الشأن العراقي، وهو ما سيحقق في النهاية مصالح هذه القوى على حساب المصالح الوطنية العراقية.

حلول مشكلة الهوية الوطنية في العراق

إذا كان ثمة من حلول لمشكلة الهوية الوطنية في العراق، أو في أي مجتمع آخر، فإن أول ما يقال عنها، إن مشكلة ضعف أو حتى غياب الهوية الوطنية الجامعة الموَحِدَة الموحِدة، لا يجعل منها مشكلة أزلية، لأن دروس التاريخ تعلمنا أن الهويات المتعارضة والولاءات المتقاطعة يمكن أن تتعايش، بل وأن الجماعات البشرية يمكن أن تغير هوياتها جزئيا أو كليا. ولكن أي شيء من ذلك لا يحدث تلقائيا ولا فوريا، وحدوثه لا يزيل حتما وبالضرورة، ولا يستدعي أصلا، إزالة الهويات المجتمعية الأصلية لهذه الجماعات، والتي تمثل بالنسبة لحامليها جزءا من شعور عام وعقائد موروثة ودوافع تحددهم كمجموعات بشرية. وفي العادة، فإن تناغم وانسجام الهويات الفرعية المتعددة والمتنوعة، بل وحتى المختلفة، والتعايش السلمي الايجابي بينها في إطار هوية حاضنة أم (الهوية الوطنية العراقية مثلا)، يتطلب توفر شروط ومقتضيات أهمها:

- إقرار الهوية الوطنية الأم الحاضنة بحق الوجود لكل الهويات الفرعية في إطارها، والاعتراف لها بحقوقها وحرياتها، وشرعية ضمانها دستوريا وقانونيا.
- إقرار كل هوية فرعية للهوية الوطنية الأم والهويات الأخرى المختلفة عنها بحق الوجود والاعتراف لها بحقوقها وحرياتها، وشرعية ضمانها دستوريا وقانونيا.
- إدراك الهويات الفرعية كلها، واتفاقها على الحاجات والمصالح والأهداف المشتركة بينها في إطار الهوية الوطنية الأم الحاضنة، وعلى أن الانتماء لهذه الهوية والتفاعل الايجابي في إطارها هو شرط تلبية تلك الاحتياجات وضمان المصالح وتحقيق الأهداف.
- إدراك كل الهويات الفرعية واتفاقها على التهديدات والمخاطر المشتركة التي تواجهها في إطار الهوية الوطنية الأم الحاضنة، وأن الانتماء لهذه الهوية والتفاعل الايجابي في إطارها، شرط مواجهتها والتصدي لها.

وإذا كان اعتراف الهويات المتنوعة لبعضها بحق الوجود، واحترام وضمان الحقوق

والحريات، هو القاسم المشترك بين هذه الشروط كلها، فذلك راجع إلى عجز الإنسان عن تحقيق الاتصال الحر والفاعل والايجابي بهويته في ظروف التهميش والإقصاء، مما يتسبب أيضا في عجزه عن تحقيق الاتصال الحر والفاعل والايجابي بالهويات الأخرى، فإن لم يتصالح الإنسان مع ذاته فكيف يتصالح مع غيره، لأن فهمه هويته وارتباطه بها إيجابيا، شرط لازم لفهمه للآخر وارتباطه به إيجابيا، بما يؤسس لتفاعله وتعايشه معه سلميا، بعيدا عن نزعات التعصب والاستبداد.

ولا بد من تكرار التأكيد هنا على حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى:

إن الهوية السياسية الوطنية الكلية العامة في أية دولة (الهوية الوطنية العراقية الموحَدة الموحِدَة مثلا)، لا تولد عفويا أو تنشأ تلقائيا، بل تُصنع صناعة كما تُصنع الدول التي تنتمي إليها هذه الهوية وترتبط بها وتعبر عنها، وإن ولد شيء من عناصر وملامح هذه الهوية ونما بشكل عفوي وتلقائي، فسيكون محدودا وغير مكتمل بما يجعله في النهاية، محتاجا للتصنيع وإعادة التصنيع والإنتاج على الدوام.

الحقيقة الثانية:

إن صناعة الهوية السياسية الوطنية الكلية العامة في أية دولة (الهوية الوطنية العراقية الموحَدة الموحِدة)، لا تستدعي حتما إلغاء واقع تعدد الهويات الطائفية الفرعية وتنوعها في تلك الدولة، ولا تستوجب بالضرورة إلغاء التمييز بين تلك الهويات من جهة، ولا بينها وبين الهوية الوطنية العامة الموحَدة الموحِدة من جهة ثانية، بل أن تلك الصناعة تمهد في حقيقتها وتؤسس للإقرار بوجود الهويات المجتمعية الفرعية الخاصة، وضمان حقوقها وحرياتها دون تهميش ولا إقصاء ولا إلغاء على قاعدة اعتراف الهوية السياسية الوطنية العامة بهذه الهويات واحتضانها لها. وبقدر تعلق الأمر

بالنظام الفدرالي في العراق، فإن على الشخصيات والقوى السياسية والمجتمعية ذات التوجهات الوطنية الحقيقية، والراغبة فعلا في حل إشكالية الهوية الوطنية في هذه الدولة، أن تباشر الدعوة إلى، والعمل على، تبني فكرة أو مقولة (الفدرالية الثقافية) التي تسمح وفي آن واحد بالانتماء من جهة إلى هوية وطنية عراقية فدرالية موحَّدَة وموحِّدَة، وبالاعتراف من جهة ثانية بالتعددية الثقافية المعبرة عن تعدد وتنوع وحرية الثقافات الخاصة في إطار الهوية الوطنية العراقية الفدرالية الواحدة.

ولعل أهم شروط الاتفاق المجتمعي العراقي على هذه الهوية الوطنية التي تجمع في وقت واحد بين الاعتراف بالهويات العراقية الفرعية الخاصة كلها، واحترام وجودها وتميزها، وضمان حرياتها وحقوقها هي:

1- شرط قدرة الهوية العراقية الوطنية الفدرالية الجامعة على تحقيق المصالحة الفعلية مع نفسها أولا ومع الهويات العراقية الفرعية التي تحتضنها ثانيا على قاعدة الاعتراف بشرعية وجود هذه الهويات وتوفير الضمانات الدستورية والقانونية النظرية والعملية لتحقيق

المساواة بينها في الحقوق والواجبات.
2- شرط قدرة الهوية العراقية الوطنية الفدرالية الجامعة على احتضان الهويات العراقية الفرعية عبر التطبيق الفعلي لما يمكن تسميتها:

معادلة (ت م2):

تطمين مخاوف الهويات العراقية الفرعية

+

تأمين مصالح الهويات العراقية الفرعية

=

بناء الهوية العراقية الوطنية الفدرالية الجامعة

ويجد هذا علته وتفسيره في أن قدرة الهوية الوطنية الفدرالية الجامعة على تطمين مخاوف الهويات العراقية الفرعية أولا، ثم تأمين مصالح الهويات العراقية الفرعية ثانيا، هو ما يجعل التكامل والتعايش السلمي الايجابي بين هذه الهويات طبيعيا، بل ويكاد يكون تلقائيا. ولا يمكن أن تتوافر هذه الشروط إلا إذا تحققت أولا المصالحة في العراق مع الذات عبر تحديد الهوية، ومع الآخر عبر القبول بتنوع واختلاف الهويات الوطنية الفرعية، والذي يجب ألا يكون بالضرورة سببا للخلاف، وهي المصالحة التي لا يبدو أن شيئا فعليا منها تحقق حتى الآن نتيجة التقاطعات الجذرية والحادة بين ثوابت وأهداف وأساليب عمل الأطراف السياسية العراقية، واستمرارها في التحريض والتعبئة والعمل ضد بعضها ضمن هويات فرعية متنوعة الأشكال والخصائص وبعيدة كل البعد عن الهوية الوطنية العراقية الفدرالية الجامعة الواحدة الموَحِدة. إن ما يجب فهمه وإدراكه بشكل واضح وعميق في آن واحد، هو:

إن الهوية انتماء في الابتداء والانتهاء، والانتماء ولاء، والولاء التزام، والالتزام مسؤولية عن خيارات فكرية وعملية في الإيمان بماذا ولماذا؟ والعمل من أجل من وماذا وعلى حساب من وكيف؟

لذلك، فإن توجّه وتوجيه انتماءات الأفراد والجماعات في الوطن الواحد إلى هويات طائفية جزئية أو فرعية (قومية أو طبقية أو دينية أو مذهبية أو قبلية أو جهوية أو فئوية.. الخ)، ستكون نتيجته الطبيعية، جعل مشكلة الهوية، أصلاً أولاً وسبباً مؤَسِساً لمشكلات أخرى تنشأ عنها، وتتفاقم بتفاقمها، وتتعقد بتعقدها، وتستمر باستمرارها، ولكنها أيضا، يمكن أن تزول بزوالها.

فإذا اقترن ضعف، إن لم نقل غياب، الهوية الوطنية في العراق في حالته الراهن، بتوجهات الحكومة الاتحادية وحكومات الإقليم والمحافظات، كل منها لزيادة صلاحيات ومواردها، وليس مسؤولياتها وخدماتها، على حساب صلاحيات وموارد الحكومات الأخرى، فستكون النهاية الحتمية لذلك، هي قيام نظام وسط بين الدولة التسلطية والفوضى يسميه أحد الباحثين نظام (الفوضى المنظمة Chaotic Order الذي لا تفرض فيه الدولة سلطتها وسيطرتها على أجزائها مباشرة، بل تفرضها عليها عبر النخب المحلية، فلا تعود هذه الدولة لا هي دولة مركزية ولا حتى دولة اتحادية، بل دولة تكتلية أو تجمعيّة أو تراكمية، يعيش مواطنوها استقرارا هشا وقلقا، مشروطا دائما ومرهونا باتفاق المصالح بين النخب الحاكمة في المركز والنخب الحاكمة المحلية المستعدة دائما للتمرد كلما امتنعت، أو حتى تأخرت، نخب المركز عن تلبية مطالبها، بقدر ما يعيش هؤلاء المواطنون أيضا خاضعين لسلطتين في آن واحد بدل سلطة واحدة، وفي ظروف

بات الإجماع منعقدا فيها على فساد السلطة، فسيستبدلون مشكلة استبداد معلن بمشكلة استبدادين غير معلنين، ومصيبة فساد واحد بمصيبة فسادين.

الثقافة الجديدة: لا يمكن تحليل قضايا تشكل وإعادة تشكل الهويات الجمعية في العراق الحديث، ومن بينها الهوية الوطنية، إلا تاريخيا. فمن ناحية، نستطيع القول إن تشكل الهوية الوطنية العراقية الجامعة كان محصلة للسيرورات والنضالات الوطنية الكبرى، بالتوازي مع دفع الهويات الفرعية الأخرى إلى الخلف نسبيا. فمع ثورة العشرين، ظهرت إرهاصات نشوء هذه الهوية الوطنية، ومعها بوادر أولية لكن واضحة للمشاعر وللمفاهيم الحديثة حول الانتماء والاستقلال الوطنيان، ثم تطورت هذه الهوية وبرزت معالمها وترسخت أسسها مع النضالات الوطنية التي خاضتها الجماهير في العقود الطويلة منذ تأسيس الدولة العراقية. ولا يغيب عن البال هنا المقارنة بين النضالات في حقبة النظام الملكي والتي توجت بثورة 14 تموز الوطنية، وبين الحركات الاحتجاجية بعد 2011 والتي توجت بانتفاضة تشرين 2019، وهذا ما يمكن أن نسميه عملية "إبداع الهوية الوطنية من أسفل"، وهي عملية غير ناجزة إلى حد كبير. ومن ناحية أخرى، نجد أن جميع السلطات التي مرت في تاريخ العراق تقريبا، انتهجت سياسات استهدفت بها إحكام قبضتها وسيطرتها على عمليات إنتاج وإعادة تشكيل هويات جمعية اجتماعية وسياسية، بل وحتى إنتاج هوية وطنية مطبوعة بملامح خاصة، استنادا إلى أساليب ووسائل "الهندسة الاجتماعية"، سواء تلك التي ذكرتها في كتابك الموسوم "الهندسة الاجتماعية.. صناعة الإنسان والمواطن"، أو التي ذكرها هوبزباوم في كتابه "ابتكار التقاليد". وهذا ما نستطيع أن ندعوه "اختلاق الهويات من اعلى".

هل تتفق مع الطرح السابق؟ وهل هناك، على المستويات الفكرية والسياسية والاجتماعية صراع على هوية/ هويات المجتمع، وعلى هوية الدولة؟ صراع يعكس أساسا صراعا اجتماعيا؟ وان تمظهراته التي تبدو ساكنة نسبيا هي محصلة موازين قواه الفعلية؟ وهل من ملاحظات تعبر عن رؤيتك لعمليات تكون الهويات الجمعية خصوصا الوطنية في العراق الحديث والعوامل المؤثرة في تشكلها؟

د. علي عباس مراد:

أولا، لا أحبذ التمييز بين وصف العمليتين وصفين مختلفين (اختلاق) و (إبداع)، فأما كلاهما اختلاق أو كلاهما إبداع، أو كلاهما (صناعة أو إنتاج) للمساواة بينهما في الوصف، وعدم توظيف الاختلاف غائياً وبشكل غير مباشر، للانتقاص من واحدة وإعلاء شأن الأخرى.

ثانيا، اعتقد أن أسلوب التفكير السائد في مجتمعاتنا، يجعلنا نرى الظواهر والأشياء بالطريقة التي نرغب فيها وليس بالطريقة التي هي عليها فعليا، ففكرة أن السلطات التي مرت في تاريخ العراق، انتهجت كلها وليس تقريبا سياسات لإحكام قبضتها وسيطرتها على المجتمع عبر عمليات إنتاج وإعادة تشكيل هويات جمعية اجتماعية وسياسية، بل وحتى إنتاج هوية وطنية مطبوعة بملامح خاصة، استنادا إلى أساليب ووسائل متفاوتة القوة والفاعلية لممارسة (الهندسة الاجتماعية)، و (ابتكار التقاليد) إحدى أهم وسائلها وأساليبها، فكرة صحيحة تماما، لكنها فكرة غير منصفة، لأنها توحي للقارئ بأنها تنطبق على تاريخ العراق فقط، وكأن حكوماته هي الوحيدة في العالم التي شرّعَت وطبقت مثل هذه السياسات،

بينما يبين الواقع أنها فكرة عامة تنطبق على كل المجتمعات قديما وحديثا، سوى أن أسبابها وأهدافها ووسائلها وأساليبها ودرجة فاعليتها، ومستوى علنيتها ووضوحها أو سريتها وخفاءها، تختلف من عصر وبلد ونظام حكم إلى آخر، فالأنظمة: الدينية والعلمانية، الملكية والجمهورية، الرأسمالية والاشتراكية، الاستبدادية والديمقراطية، كلها مارست وتمارس سياسات (اختلاق الهوية الوطنية من الأعلى)، وتحاول تكييفها مع الأسس الفعلية أو الافتراضية (المتخيلة) للهوية الموجودة في العقل المجتمعي الجمعي، أو في جزء واسع منه، والتي تسمونها (إبداع الهوية الوطنية من الأسفل).

ويعني هذا، أن أكثر الأنظمة السياسية اهتماما بهذه الصناعة، وأشدها تركيزا عليها، وأوضحها تبنيا وممارسة لها، هي الأنظمة ذات الطبيعة والأسس الفكرية مثل: الايطالي الفاشي والألماني النازي والسوفيتي والصيني الشيوعيين والأمريكي الرأسمالي، وهو ما ينطبق أيضا على السعودية وإيران بقدر واحد، مثلما ينطبق على كل الأنظمة الأخرى، فلماذا توحي صيغة السؤال بأن تبني وممارسة سياسات صناعة الهوية، جريمة وحشية، وأن المتهم الأول، بل ولعله الوحيد أيضا هي الأنظمة السياسية في العراق، النظام الملكي والنظم الجمهورية المتعاقبة بعده كلها ودون أي استثناء. ثالثا، إن عمل أي مجتمع أو نظام حكم، أو عملهما بشكل مشترك، لصناعة وإنتاج هوية وطنية موحدة من الأعلى أو الأسفل، أو من الاتجاهين معا، أمر لا يحتاج إلى تبرير ولا حتى تعليل، فكل المجتمعات وأنظمة الحكم في العالم، قديما وحديثا ومستقبلا، ترغب في وتعمل على إنتاج هوية وطنية مشتركة، لأن وحدة الهوية عند أفراد المجتمع تؤسس عندهم لوحدة الأفكار التي تؤسس بدورها عندهم لوحدة الأهداف، ووحدتا الأفكار والأهداف عند أصحاب الهوية الواحدة، تؤسسان بدورهما وتاليا عندهم لوحدة التوجهات والمواقف والسلوكيات، وهو ما تعمل الوسائل والأساليب والمؤسسات المجتمعية والحكومية المسؤولة عن صناعة (إنتاج) الهوية على جعله دافعا لأصحاب الهوية الواحدة للعمل الجاد والكثيف، بل وحتى التضحية بالمال والأهل والنفس من أجل هذه الهوية ومعتقداتها وأهدافها، وهذا أقصى ما تريده كل المجتمعات والأنظمة وتسعى إلى تحقيقه، واعتقد أنكم والقراء الأعزاء، تعرفون جيدا الشعارات التي كانت الشعوب وجيوشها تقاتل تحتها ومن أجلها في الحرب العالمية الثانية، والمعبرة بشكل واضح ومباشر وصريح عن وحدة الهوية الوطنية ومعتقداتها وأهدافها لديهم ولدى حكوماتهم: فالألمان كانوا يقاتلون من أجل عظمة ألمانيا واستعادة مجد الجنس الآري، والايطاليون كانوا يقاتلون من أجل عظمة ايطاليا واستعادة مجدها الإمبراطوري، والسوفيت كانوا يقاتلون من أجل (الأم روسيا) أو (ارض الأم الروسية)، والأمريكيون كانوا يقاتلون من أجل (الحرية) أو (الحلم أو أسلوب الحياة الأمريكي). الصراع على هويات المجتمع والدولة في العراق بعد 2003، هو صراع بين القوى المشاركة في العملية السياسية، وهي تتكالب على المناصب والمكاسب والغنائم.

رابعا، اعتقد أن الصراع على هويات المجتمع والدولة في العراق، وبكل مستوياته ومظاهره، ليس صراعا اجتماعيا، بل هو كلي تماما، صراع بين القوى المشاركة في "العملية السياسية"، والتي تتكالب على المناصب والمكاسب والغنائم، وليس في ذلك

شيء من الوطنية أو الحرص على وحدة المجتمع ومصالحه. ومن ثم، فقد عملت لتنفيذ سياسات الاحتلال الأمريكي، الأطراف العراقية السياسية - الطائفية التي جاءت معه من الخارج وساعدته على تنفيذ مخططاته، وكان أول وأهم ما ساعدته على تنفيذه من تلك المخططات، إضعاف بل وتغييب (الهوية الوطنية في العراق)، والذي تسبب لاحقا في خلق المشكلات الخمس الأساسية الأخرى التي عانى منها العراق منذ 2003 وحتى اليوم: (الإرهاب، والديمقراطية التوافقية الفاشلة، والمصالح الوطنية المزعومة، والمحاصصة، والفساد)، ثم شاركتها العديد من الأطراف العراقية الداخلية، بعد أن أدركت مقدار ما يمكن أن تضمنه لها هذه المشاركة من المناصب والمكاسب والغنائم، وهو ما كان يتطلب منها المشاركة أيضا في تنفيذ المخططات الدولية والإقليمية والمحلية لتضييع الهوية الوطنية العراقية الواحدة، والاستعاضة عنها بخلق هويات قومية ودينية ومذهبية وثقافية، وإدخالها في مشكلات وصراعات تبقي العراق مفككا وضعيفا، ليسهل على من يشاء منهم نهب ثرواته، بل وحتى استيلاء جيران السوء على أراضيه ومياهه. خامسا، إن أوضح دليل على الأضرار الناتجة عن سياسات طمس الهوية الوطنية في العراق وخلق هويات فرعية بعد عام 2003، أن المشكلات التي كان شباب محافظات (ديالى وصلاح الدين والأنبار ونينوى) أول من بادر للانتفاض والاحتجاج عليها، هي نفسها المشكلات التي انتفض واحتج عليها لاحقا شباب محافظات الوسط والجنوب، لكن الأثر السلبي لتلك السياسات، تجلى في امتناع شباب الوسط والجنوب من التضامن في الأولى مع إخوانهم شباب (ديالى وصلاح الدين والأنبار والموصل)، بقدر امتناع شباب المحافظات الأخيرة من التضامن في الثانية مع أخوانهم شباب محافظات الوسط والجنوب، وكان الامتناع وما زال في الحالتين موقفا ليس غير محمود فقط، بل وموقفا يفتقر تاما للذكاء وحسن إدارة الصراعات مع السلطة، لتكون نتائجه سلبية عليهم وعلى العراق كله.

وإذ بات مؤكدا للجميع، من يؤيدون النظام السياسي الذي قام في العراق بعد عام2003:

* إن هذا النظام السياسي يتبنى الديمقراطية "التوافقية" المتأسسة على (المحاصصة).
* إن جوهر وروح (المحاصصة) هو الطائفية.
* إن المحاصصة مشروطة بصناعة الهويات التي تتعارض مع الهوية الوطنية، وتعمل على تغييبها.
* إن تغييب الهوية الوطنية، لا يعرقل ويشوه تطبيق الديمقراطية فحسب، بل ويمنع تطبيقها كليا.
* إن الغياب المزدوج للهوية الوطنية والديمقراطية الفعلية، يمنع بناء نظام سياسي مدني ديمقراطي.

فسيكون مستغربا استمرار، بل وإصرار، بعض الأطراف السياسية وحتى المجتمعية، في وصف النظام السياسي في العراق بالديمقراطي، ولا بد لهؤلاء من مراجعة أنفسهم، وملاحظة ما يعاني منه هذا النظام من مشكلات حتى بعد محاولة إنعاشه وترقيعه بجعل ديمقراطيته "توافقية"، لأن أغلب ما فيها تحول فعليا، وكما قلت قبل أكثر من عقد من الزمن، من "(التوافق" بين القوى المشاركة في العملية السياسية إلى "التواقف" بين هذه القوى على كل ما يندرج في نطاق السياسات والمصالح الوطنية، ولم يبق فيها من "التوافق" إلا شيء واحد، هو توافق أطراف هذا النظام على استمرار الطائفية والمحاصصة والفساد ونهب ثروات العراق، وتدمير ليس حاضره ومستقبله فحسب، بل وحتى ماضيه أيضا، لكي لا يبقى له أو فيه ما تتمسك به أجياله وتبني عليه هويتها الوطنية وأهدافها ومصالحها التي تعمل

من أجل تحقيقها وحمايتها.

الثقافة الجديدة:

يبدو فعلا أن بعض المشاكل لها أس لغوي، فاللغة في بعض الأحيان، بصورة عفوية أو مقصودة، تربك وتشوش معاني بعض المصطلحات والمفاهيم، ومن بين هذه المفاهيم مفهوما "المواطنة" و"الوطنية" في اللغة العربية. فكلاهما في النهاية مشتقان من الجذر "وطن"، وبينما تكاد أسس المواطنة تكون واضحة، من ناحية كونها في نهاية المطاف الحقوق والواجبات التي تترتب على المواطن بوصفه فردا ينتمي اجتماعيا وقانونيا إلى بلد ما، وبالتالي ترتبط بسيادة القانون على جميع الأفراد بالتساوي بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الانحدار الطبقي.. الخ. يفتقر مفهوم الوطنية إلى مثل هذا الوضوح، باستثناء قضايا حب الوطن الأم والانتماء له، بل ويكتسي في الكثير من الأحيان العديد من المعاني والمحمولات السياسية، ويختزن في الغالب تنوعا واسعا من بقايا المخيال الجمعي الشعبي المنتخب عفويا أو قصديا، بل وحتى المختلق أيضا.

والوطنية أيضا تركيبة معقدة من المشاعر والانفعالات يمكن استغلالها، سواء بصورة إيجابية أو سلبية، من القائمين على السلطة أو مناوئيهم.. فالمزاج الوطني يمكن أن يتأثر بسهولة بأحداث تبدو بعيدة عن السياسة من قبيل مباراة كرة قدم، بينما يمكن أن يبقى خامدا في حالات الكوارث الوطنية!

*** ترى دكتور علي، كيف يمكن في دولة مثل العراق، وهو دولة ريعية بامتياز، وعانت ما عانته خصوصا في السنوات الأربعين المنصرمة؛ كيف يمكن العمل على بناء هوية وطنية حديثة، قائمة على أسس المواطنة الجلية، هوية وطنية جامعة تتلاءم مع متطلبات وتحديات القرن الحادي والعشرين. لكن دون أن تتغافل نهائيا عن شخصيتها المميزة وعن تاريخها وموروثها التقدميين والحضاريين؟**

إمكانيات وحدود بناء هوية وطنية حديثة، في ظل دولة ريعية.

د. علي عباس مراد:

أولا:

أود البدء من تعريف (الدولة الريعية) بأنها: "الدولة التي تستمد كل أو جزءا كبيرا من إيراداتها الوطنية بتأجير أو بيع الموارد المحلية لعملاء خارجيين، واستخدم هذا المصطلح منذ القرن العشرين للإشارة إلى الدول الغنية بالموارد الطبيعية مثل النفط والغاز، والسلطة الحاكمة فيها تستولي على هذا المصدر وتحتكر استخراجه وتوزيعه وبيعه، ولكنه يشمل دولاً غنية بالأدوات المالية مثل العملة الاحتياطية، أو الموارد الإستراتيجية مثل القواعد العسكرية. وبذلك، فإن أبرز خصائص الدولة الريعية:

- اعتماد موارد الدولة بشكل أساس على بيع الموارد المحلية للخارج.
- افتقار اقتصاد الدولة إلى قطاعات إنتاجية محلية مولدة للموارد.
- صغر نسبة السكان المشاركين في القطاعات الإنتاجية المحلية المولدة للموارد.
- الحكومة هي المستفيد الأول من البيع الخارجي للموارد المحلية. وهو تعريف لواقع حال، ولا أرى فيه شيئا سلبيا، إلا إذا اقترن هذا الوصف بحالتين تنطبقان على العراق تماما وكليا وهما:

* حالة قابلية الموارد الريعية المولدة للإيرادات المالية للنضوب أو انخفاض الأسعار بحيث لا تعود قادرة على سد نفقات الدولة.

* حالة إصرار الحكومة المالكة لحق التصرف بالموارد الريعية على التفريط بإيراداتها المالية، والامتناع عن توظيفها لتنويع مصادر الموارد المالية الأخرى لها .ويتجلى ذلك في معاناة العراق من أزمة انخفاض أسعار البترول، وأنه على الرغم من مرور أكثر من عقدين على قيام النظام الجديد في العراق، ونقده للنظام السابق بتهم كثيرة منها تهمة التفريط في موارد البلاد وعدم الاهتمام بخلق أو تطوير قطاعات الإنتاج غير الريعي، فالسمة الغالبة على النظام الجديد ليس التفريط بالموارد الريعية، وعدم اهتمامه بخلق أو تطوير قطاعات الإنتاج غير الريعي، بل الاعتراف الرسمي المتكرر بالفساد المتمثل في نهب هذه الموارد بشكل متزايد ومتسارع، وعدم التصدي للرؤوس الحقيقية لهذا الفساد، بل واتخاذ قرارات تشجع عليه بالعفو عن الفاسدين مقابل تسديد جزء من المبالغ المأخوذة بغير وجه حق، أو الاكتفاء بسجنهم دون إلزامهم برد الأموال المتحصلة لهم من فسادهم.

ثانيا:

لقد قال السيد المسيح (ع) بحق (مِكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ)، فجمع بذلك بين متطلبات الحياتين الروحية (كلمة الله) والمادية (الخبز)، ولكنها كانت بالتأكيد تحتاج إلى استكمالها وبحق أيضا بعبارة (ولكن الإنسان لا يحيى بدون الخبز)، وينطبق ذلك تماما وبقوة على مسألة بناء الهوية الوطنية، ففي ظل ارتفاع الأسعار العالمية للمنتج الريعي النفطي، توافرت للدولة موارد أكثر من كافية ليس فقط لامتلاك واستخدام الوسائل والأساليب المعنوية اللازمة لبناء هوية وطنية عراقية واحدة والإيمان بها والاستعداد للتضحية من أجلها وهو ما يعادل العامل الروحي (كلمة الله)، بل وأيضا لتوفير الظروف الحياتية المادية الكريمة (العمل، السكن، الغذاء، النقل، التعليم، الرعاية الصحية = الخبز) لحاملي هذه الهوية، وهو ما يعادل العامل المادي (الخبز)، لأن هذا العامل هو الذي يجعل أصحاب هذه الهوية الواحدة، يُشعرون بالاقتران الفعلي والعملي الكافي بين القيمة المعنوية لهويتهم وبين القيمة المادية لهذه الهوية فحسب، بل وتؤكد هذه القيمة وتضاعفها بتوفير ها لهم الظروف الحياتية الكريمة في مجالات الحياة كلها، ليس بما يدعو هم فقط، بل ويجبر هم على التمسك بهذه الهوية والتضحية من أجلها، بدل الاستعداد للتضحية بها في أول فرصة تتاح لهم.

واعتقد أن خير دليل على ذلك، موجة الهجرة التي اجتاحت قبل وقت قصير، أوساط الشباب العراقي وقبلهم ومعهم الشباب السوري واللبناني والمصري والتونسي والجزائري والمغربي، ودفعتهم للتخلي عن انتماءاتهم الوطنية، مقارنة بتمسك بل تشبث شباب دول الخليج العربية بانتماءاتهم وبلدانهم التي يعيشون فيها ظروفا حياتية مادية إيجابية لا تقاس بسلبية الظروف الحياتية المادية التي يعيشها نظراؤهم في هذه البلدان. إن البحث عن بلد آخر وجنسية أخرى للإنتماء وتوفير متطلبات العيش الكريم، لا يخل ولا يضعف حتما شعور الانتماء للهوية الوطنية والبلد الأم، ولكنه يضعف هذا الشعور تدريجيا إن لم يكن عند الجيل الأول من المهاجرين، فسيضعفه بالتأكيد عند الأجيال اللاحقة التي قد لا تحس به أصلا.

وهذا ما يطرح التساؤل عن السبب الذي يجعل الساسة وحتى بعض رجال الدين، يستشهدون بأحاديث ومقولات الإمام علي (ع) بمناسبة ودون مناسبة، لكنهم جميعا يتجاهلون مقولته الصادقة والعميقة: "الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن"، فالفقر يُشعر الإنسان

بفقدان القيمة والمكانة في كل مكان يعاني فيه الحاجة والغربة وعدم الانتماء حتى وطنه الذي قد يصل به الأمر حد كرهه والاستعداد للتفريط به، أما الغنى فيُشعر الإنسان بقيمته ومكانته في كل مكان يتمتع فيه بالاكتفاء والانتماء حتى في غربته، بما يجعله يحس بالانتماء إليها، بل وحتى الاستعداد للتمسك بها والحرص عليها. ولا بد أن نتذكر هنا أن تحسن وسائل الاتصال ونقل المعلومات، سهّلا اطلاع الفرد على الظروف الحياتية لكل المجتمعات، ومن ثم مقارنة الجيدة منها بظروفه السيئة، بل البائسة في العراق، مما يسهل عليه أمر الهجرة والتخلي ليس عن قيم معنوية يتعلمها ويكتسبها اكتسابا كالهوية والمواطنة وحب الوطن، بل والتخلي حتى عن مشاعر فطرية أصيلة فيه كحب الأب والأم والأخوة والأخوات والتمسك بالأسرة والاستعداد لحمايتها وتحمل مسؤوليتها.

شروط إنتاج وإعادة إنتاج هوية وطنية عراقية جامعة في ظل تحديات القرن الحادي والعشرين

وبقدر تعلق الأمر بمسألة: كيفية إنتاج وإعادة إنتاج هوية وطنية عراقية جامعة، تتلاءم مع متطلبات وتحديات القرن الحادي والعشرين، دون التغافل عن الشخصية الوطنية العراقية المميزة وتاريخها وموروثها التقدميين والحضاريين، فإن ذلك مشروط بأمرين أساسيين:

الأمر الأول:

اتفاق العراقيين جميعا، أو غالبيتهم، على شخصية عراقية واحدة ذات خصائص مميزة وأسس تاريخية موروثة، واشتراكهم جميعا في جهود إنتاجها وإعادة إنتاجها بشكل مستمر ومتواصل، لضمان إنتاج أجيال وطنية متعاقبة، تمتلك هذه الشخصية وتحافظ عليها وتؤسس عليها هويتها الوطنية.

ولا اعتقد أن هذا متوافر في عراق ما بعد 2003 الذي يعاني من سعي القوى المشاركة في العملية السياسية على نقله من فكرة (المجتمع) إلى فكرة (المكونات)، ومن فكرة (الوحدة الوطنية) إلى فكرة (المحاصصة الطائفية) وما أدى إليه هذا المسعى من الانقسام الهوياتي-القيمي بين المكونات المجتمعية، مما تسبب في ضياع الهوية الوطنية التي كانت تظهر سابقا في اتفاق العراقيين على تمييز أنفسهم بأنهم (عراقيون أولا وأساسا.. ثم يتفرعون بعد ذلك ضمنها إما قوميا على عرب وكرد وتركمان وكلدوآشوريين وأرمن، أو دينيا على مسلمين ومسيحيين وايزيديين وصابئة وشبك وكاكائيين)، لكن كثيرا منهم للأسف، لم يعودوا يرون أنفسهم كذلك بعد 2003، بل يرون أنفسهم (أولا وأساسا شيعة، سنة، كردا، تركمانا، مسيحيين، أيزيديين...الخ)، أما هويتهم الوطنية العراقية الموحدة، فتراجعت وراء هوياتهم الفرعية، أو حتى غابت وانعدمت، ولذلك أسباب كثيرة لسنا في معرض الحديث عنها ولكننا نتحدث عن المتطلبات الأساسية لصناعة الهوية الوطنية.

الأمر الثاني:

وجود سلطة سياسية واحدة ذات رؤية واحدة للشخصية الوطنية العراقية التي تؤسس للهوية الوطنية العراقية الواحدة، ورغبة واحدة في إنتاج وإعادة إنتاج هذه الشخصية والهوية بشكل مستمر ومتواصل لإنتاج أجيال وطنية متعاقبة، تمتلك هذه الشخصية والهوية وتتمسك بها وتحافظ عليها. ولا اعتقد أن مثل هذه السلطة موجودة في ظل الانقسام السياسي العراقي بعد عام 2003 على سلطة اتحادية وسلطة إقليم، وانقسام كل من السلطتين داخليا على قوى لا اتفاق بينها إلا على تحقيق كل

منها لمصالحها حتى ولو على حساب مصلحة العراق والعراقيين جميعا اليوم وغدا، واهم المسائل الخلافية بين هذه القوى، هي مسألة الشخصية والهوية الوطنيتين اللتين تراها كل منها من زاويتها الخاصة التي أصبحت عند بعضها تخليا عن هذه الشخصية والهوية لصالح التبعية لشخصيات وهويات خارجية.
وفي ظل غياب هذه الشروط.. فلا اعتقد أن هناك أي احتمال أن تبقى للعراقيين، وفي حدود وقت منظور، شخصية وهوية وطنية واحدة، أو تتاح لهم الفرصة للعمل جميعا بشكل مشترك على إنتاج وإعادة إنتاج هذه الشخصية والهوية وترسيخها والدفاع عنها اليوم وغدا على الرغم من توافر المادة الأولية اللازمة لإنتاج هذه الشخصية والهوية الوطنية العراقية. واعتقد أن أحد أسباب التصدي القمعي للاحتجاجات الشبابية، هو الخوف من تأسيسها لمثل هذه الهوية التي تهدد في النهاية استمرار أحزاب المحاصصة في ممارسة الفساد والإفساد اللذين يزدادان كل يوم اتساعا وعمقا.

الثقافة الجديدة:
إلحاقا بالسؤال السابق، ارتفعت في العقود الأخيرة، أعداد المهاجرين إلى الخارج من بلدان الأطراف، لظروف معروفة لا يتسع المجال هنا للحديث عنها. وقد اكتسب قسم غير قليل منهم جنسية بلدان الإقامة، بينما يقاتل غالبية المتبقين للحصول عليها، كي يؤمنوا لهم ولعوائلهم الحقوق والمكتسبات التي يتمتع بها مواطنو تلك البلدان والمهاجرون العراقيون ليسوا استثناء من ذلك. وهنا تبرز إشكالية عميقة عند الكثيرين من هؤلاء.
تتجسد بالصراع بين انتماءين:
الانتماء الأول، هو انتماء وطني هوياتي وثقافي بالبلد الأم، مع ما يرافق ذلك من انشغالات نفسية وفكرية وحتى سياسية بمشاكله. أما الثاني، فهو انتماء مواطنة ببلد الإقامة، انتماء للحقوق التي يوفروها لمواطنيه، والواجبات التي يلزمهم بها. بالتأكيد، هذه الإشكالية تبرز على أشدّها عند المهاجرين الجدد والحاصلين على الجنسية مؤخرا. وهي ضعيفة عند من ترعرعوا هناك أساسا. كيف تنظر لإشكالية الانتماء المزدوج هذه؟ خصوصا وأن أحد تجلياتها في العراق يتمثل بقضية الجنسية المزدوجة للعراقيين.

د. علي عباس مراد:
لا بد أن نلاحظ أن الانتماء إلى وطن قديم أو جديد، كلاهما انتماء مكتسب، يولدُ عند الفرد ويتسع ويتعمق تدريجيا بتوافر الشروط الايجابية المشجعة على ذلك، أو يذوي ويضمحل تدريجيا أيضا بتوافر الشروط السلبية الدافعة إلى ذلك، ومن ثم، فليس من المستحيل ولا حتى الصعب التوفيق بين أداء الواجبات بين الحالتين، ولكن هذا التوفيق يحتاج لملاحظة الفارق بينهما، فأية جنسية، وطنية كانت أم أجنبية، تضمن قانونيا تمتع الحاصل عليها بحقوق بقدر ما تلزمه قانونيا بأداء واجبات مقابلها، ولكن وجوده في البلد الأجنبي يجعله أكثر خضوعا لواجباته القانونية نحوه ونحو جنسيته من خضوعه لواجباته القانونية نحو وطنه وجنسيته الأم.. وهذا ما يجعل مسألة الموقف من البلد الأم وهويته، مسألة شعور فردي وطني وإحساس ذاتي بالهوية، يمكن أن يبلغ ذروته بالتخلي عمليا عن الجنسية المكتسبة والعودة إلى الوطن الأم عندما يمر بظروف حرجة، ويمكن أن يكون أقل من ذلك بدعمه ماديا وأدبيا. وأذكر أن أستاذنا الراحل (د. وميض عمر نظمي) (رحمه الله)، قام بجهود شخصية كبيرة أيام الحصار لجمع بعض ما كان يحتاجه العراق من الضرورات الحياتية (الأدوية وحليب الأطفال)، وكان حصوله عليها بفضل تبرعات

كان يقدمها عدد كبير من العراقيين المقيمين في الخارج، ومعهم عرب من بلدان أخرى وحتى أجانب أصحاب مواقف إنسانية، وتشرفت وبعض الزملاء بالتعرف على هذه الجهود وأدركنا حجمها وثقل مسؤوليتها عندما دعانا لمشاركته في جانب منها بتولي مسؤولية التوزيع المباشر لما كان يجمعه ويجلبه من الخارج على من يتعذر عليهم الحصول عليه في كل المحافظات العراقية دون استثناء، واعتقد أن تبرع هؤلاء العراقيين دليل على إمكانية الجمع بين الإقامة في بلد أجنبي أو حتى حمل جنسيته واستمرار الشعور بالانتماء للهوية الوطنية.

تبقى مسألة أخيرة كثيرا ما طرحت بعد عام 2003م، وهي مسألة إشغال المناصب العليا في الدولة من العراقيين الحاملين لجنسيات أخرى (مزدوجي الجنسية)، والتي اعتقد أنها مسألة قانونية محض، وليست مسألة عاطفية أو أخلاقية، ولا تعكس اعتقادا بعدم شعورهم بالانتماء الوطني أو احترامهم لمسؤولياتهم وحفاظهم عليها وأدائهم لالتزاماتها، لأن هناك آخرين من أبناء هذا البلد الحاملين لجنسيته، لكنهم لا يشعرون مثلهم بهذا الانتماء ولا يحترمون هذه المسؤولية.

ويتمثل هذا السبب القانوني في أن بمقدور الحكومة اتهام شاغلي المناصب العليا من حاملي الجنسية الوطنية ومحاكمتهم ومعاقبتهم بعد ثبوت الهم عليهم، بل وحتى مطالبة الدول الأخرى بتسليمهم في حال لجوئهم إليها، أما شاغلو المناصب العليا من (مزدوجي الجنسية)، فإنها لا تستطيع فعل الشيء نفسه معهم، لأن حكومات البلدان الأخرى التي يحملون جنسياتها يمكنها عدم تسليمهم في حال عودتهم إليها، أو تمنع محاكمتهم أمام محاكم غير محاكمها، وهي حماية قانونية تساعد على ارتكاب الجرم وممارسة الفساد، وتحمي من عواقبهما، لأنها تُشعر حائزها بالأمن إذا ارتكب جرما أو مارس فسادا بعودته إلى ذلك البلد، بل وحتى الاحتماء بها من المساءلة القانونية في وطنه الأم. وقد ظهر ذلك جليا فيما تتناقله وسائل الإعلام ووسائل الاتصال عن عودة عدد من المسؤولين المتهمين بالفساد إلى البلدان التي سبق وهاجروا إليها وحصلوا على جنسيتها أو جواز سفرها أو الإقامة فيها، وبقائهم فيها انتظارا لتسوية مشكلاتهم مع بلدانهم الأصلية، أو حتى عدم تسويتها، فالأمر ليس مهما كثيرا بالنسبة لمن جمعوا من فسادهم غنائم تكفيهم بل وتزيد على حاجتهم، وتوفر لهم جنسياتهم الأجنبية ملاذات آمنة تحميهم من عواقب ذلك الفساد، فما حاجتهم للعراق وما يهمهم حتى لو هدم على رؤوس أهله؟؟؟ .

وأكرر أن العذر في هذا الرأي قانوني وليس أخلاقيا أبدا، ولا اعتقد أن العراق قد أصبح عقيما فلم يُنجب مؤهلين لتولي مناصبه العليا غير حملة الجنسيات الأجنبية، فإن قيل ذلك، فهو عذر أقبح من ذنب، لأن تعليله الوحيد هو مكافأة هؤلاء على ما يصفونه بـ"الجهاد في سبيل الله أو النضال في سبيل الوطن"!، ولم نسمع في تاريخ الإنسانية أن المجاهدين جاهدوا طمعا في ربح أو أملا في منصب، مكافأة لهم على جهادهم في سبيل آخرتهم أو أوطانهم.

أدب وفن

ثقافة ما بعد التغيير

حسب الله يحيى

التغيير مطلوب.. وكل مطلوب لا بد أن يُنجز.. وإلا عدّ مجرد سحابة عابرة.. مجرد حبر أبيض على ورق أكثر بياضاً.

وما حصل من تغيير بعد عام 2003، ترك بصماته الواضحة على مجمل الاوضاع الثقافية والاجتماعية.. وهو الامر الذي جعل من هذه الثمار التي كانت منطلة بها، والتي ترقبها شعبنا على مدى أربعة عقود من الزمن.

نعم.. حدث التغيير.. لكنه كان تغييراً لم نحصد من نتائجه وعلى مدى عقدين من الزمن سوى المزيد من الفاقة والمرض والجهل والبطالة في ظل فساد عارم شمل جميع مرافق الدولة العراقية، ونهب ثروات العراق وتحويل العراق الى بلد متدهور اقتصادياً، بحيث لم يعد بوسعه انتاج ابسط مستلزمات حياته اليومية ولا غذائه ولا متطلبات عيشه الأمن الى جانب غياب الامن والاستقرار وانتشار السلاح المنفلت على نطاق واسع.

هذا الحال.. انعكس وبشكل واضح على القطاعين الثقافي والتعليمي على وجه الخصوص..

حتى اصبحت الأمية هي الظاهرة الابرز في الواقع الاجتماعي بعد التخلي عن الزامية التعليم وتدهور العملية التربوية في المدارس وغياب الدقة العلمية والدراسة الاكاديمية الراقية في جميع جامعات العراق، حتى اصبحت جامعات غير معترف بها دولياً!!

كما انتشرت المدارس والجامعات العلمية التي استأثرت بها الفئات والشرائح حديثة الغنى وتدني مستوى التعليم.. لم يعد من مستلزمات وحقوق الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية الفقيرة التي يفترض ان ترعاها الدولة والتي استسلمت لما هو متوفر من مدارس رسمية لا ترقى الى مستوى التربية والعلم والتعليم وذلك لعدم وجود مناهج ثابتة، والى إدارات تربوية متخصصة وكفوءة ولا ملاكات وطنية مخلصة - الا في القليل النادر.

هذا الحال المتردي هو الذي جعل من الحياة الثقافية في العراق، حياة سقيمة ولا يرتجى منها خيراً في نشر الوعي والمعرفة وقيم الجمال في المجتمع.

فالفنون والكتب الحديثة والمطبوعات الراقية أصبحت غير مقبولة في ظل الاعراف التقليدية والسلطوية التي تعد كل إبداع عملاً من البدع بوصفه رجساً من عمل الشيطان التي ينبغي ان نتخلى عنها!

صحيح ان مؤسسات فنية ما زالت موجودة، وكليات الفنون مفتوحة وعدد من المطبوعات الحديثة - المؤلفة والمترجمة- ما زالت تصدر الا انها لا تجد صداها في الاوساط الثقافية والمعرفية والاكاديمية لا لقلتها وندرتها فحسب، وانما لعدم استجابة وقبول القوى السياسية التقليدية بها والاصرار على ان الارث السلفي هو الذي ينبغي -كما تدعو- الى البناء، ليكون (نبراساً) لا بديل عنه امام التيارات الفكرية والابداعية الجديدة.

وتحولت العديد من الوزارات، الى وزارات كسولة، تتم ادارتها من قبل عناصر سياسية لا تمتلك التخصص ولا الدراية في ادارتها والتي يفترض ان تكون معنية في استقطاب الكفاءات العلمية والمعرفية والابداعية التي تزخر بها البلاد.

ولأن هذا الاهمال الذي وجدته هذه القوى المضيئة في المجتمع، فقد انزوت واختارت التقاعد على وجه السرعة وغادرت البلاد او انزوت واختارت العزلة والصمت.

ويبدو أن القوى السياسية المهيمنة التي جاءت بعد التغيير هي من يريد لهذه القوى الحية في المجتمع ان تغيب، لان وجودها يشكل خطراً على اولئك الذين يهيمن الكثرة منهم على مقاليد الامور.

إنّ واقعاً سلبياً تواجهه الثقافة والمثقفون، واقع لا بد ان يتم الانتباه الى نتائجه السلبية والا أصبحنا في حالة تغيير شامل في سلبياته وثقل تأثيره على عراق كان ينشد تغييراً مزدهراً، سعيداً، حراً، آمناً.

الخيط الفني الرابط بين فرمان والتكرلي و(نجيب محفوظ)

مؤيد جوّاد الطلال *

حين وقعت بيدي رواية "يوم قُتِلَ الزعيم" قرأتها قراءتين: مرة لأقيس المسافة ما بين رواية "ميرا مار" وهذه الرواية بعد مرور فترة ثماني عشرة سنة بينهما(1)، وأخرى لأطلع على درجة نجاح "محفوظ" في استثمار مفهوم وأسلوب "تعدد الأصوات" في رواية "يوم قتل الزعيم". الزعيم الذي يقصد به محفوظ هنا بالتحديد "أنور السادات" الشخصية الإشكالية التي قلبت تاريخ مصر الحديث رأساً على عقب بعد زيارته المفاجئة لإسرائيل وبعد توقيعه معاهدة "كامب ديفيد" سيئة الصيت. القراءة الثانية (درجة النجاح في هذا الاستثمار) هي التي تهمني في بحثي هذا؛ إذ أن الكتابة عن "نجيب محفوظ" السارد العربي الوحيد الذي قطف جائزة نوبل غير مجزية بعد أن أُشبع الرجل بحثاً ودراسة ولاسيّما أن المصريين هم أساتذة النقد الأدبي العربي من سنوات التنوير العربية الأولى التي شملت الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ومجمل شؤون الفكر والسياسة.

وعلى الرغم من أن قراءتي لهذه الرواية تطبيقية بالدرجة الأولى، لكنني وضعتها في الجزء التنظيري من كتابي عن "مفهوم تعدد الأصوات بين النظرية والتطبيق"، لأنها تلقي الأضواء على الجانب التنظيري من مفهوم وأسلوب تعدد الأصوات؛ ولهذا السبب علينا القاء المزيد من الأضواء على رواية "ميرا مار" التي سبقتها، والتي عدّها الدكتور "محمد نجيب التلاوي"(2) من أولى الروايات المصرية العشرة التي درسها بوصفها نماذج عربية تطبيقية لرواية الأصوات. وليس ثمة قدرة وامكانية نقدية أفضل من الدكتور "التلاوي" لنعرف منه مسوغات اعتبار رواية "ميرا مار" رواية أصوات؛ إذ أن هذه المسوغات ستلقي المزيد من الضوء لتحديد مفهوم وأسلوب "تعدد الأصوات " على الجانبين التنظيري والتطبيقي في الآن معاً.

المسوغات

1- اختفاء نجيب محفوظ الذي وصفه "التلاوي" بأنه اختفاء جيد على الرغم من أنه أعلن عن نفسه، وأظهر وجهه، بشكل غير مباشر من

خلال البناء والتنظيم والتنفيذ لحدود الأصوات: فهو يقدم صورة الكارهين للثورة بشكل لا يبعث ولا يساعد على التعاطف معهم، ثم برزت الأصوات المناهضة للفكر الثوري في قدرة حوارية ضعيفة وبحجم ثقافي محدود إذا ما قيس باختياره للأصوات المؤيدة للثورة (ص75 من كتاب الدكتور التلاوي * هامش رقم2). ومن هنا فإن الدكتور الباحث سيعتبر لاحقا في صفحة (82) إنّ اختفاء الروائي لم يكن تاماً في هذه الرواية؛ لأنّ محفوظ أناط بأحد شخصيات الرواية القيام بمهام المؤلف الراوي. ومعنى هذا أن الدكتور يغمز من درجة حيادية "محفوظ" بحيث نظم واختار محفوظ أصواته بشكل يبرز "وجهة نظره"، مما قلل درجة حياديته، هذه الحيادية التي يتطلبها مفهوم وأسلوب "تعدد الأصوات".2 - تمايز شخصيات الرواية وعدم تجانسها: إذ جاءت محملة بمعطيات المكان الذي نشأت فيه أصلاً. وهذا التمايز شرط لازب لخلق رواية أصوات، وإن كان التلاوي قد أشار الى حقيقة وجود هذه الأصوات في مكان واحد وهو "البنسيون". وبمعنى أدق حقق محفوظ في روايته "تبادلات سردية" من خلال طريقة تنظيم ظهور الأصوات وتعاقبها من صوت لآخر لإبراز اللاتجانس و"وجهات النظر الجزئية المختلفة" ص79 نفس المصدر.

3 - جعلنا نجيب محفوظ في رواية ميرامار في "مواجهة مباشرة مع أصواته" حيث يُقدّم كل صوت نفسه بنفسه على الرغم من تنصيبه للصوت الأول [صوت عامر وجدي] بمنزلة راوٍ أساس، أو المعادل الموضوعي للسارد العليم (محفوظ التقليدي). غير أن مشاركة (عامر وجدي) لم تُضعِف استقلالية بقية الأصوات ورؤاها الشخصية.

4 - حرص محفوظ بأصواته على ابراز ورصد ردود الفعل المختلفة تجاه الثورة. أي أن ثمة "محفز موضوعي"، وبالتالي فإن المنطلقات الفكرية -التي تعبر عن خوف من قسوة السلطات القائمة- هي التي تحفز الروائيين على كتابة رواية الأصوات اضافة الى المحفز الفني.

ولعل الاستنتاج الذي عبر عنه الدكتور التلاوي هنا ينسحب على معظم روايات الأصوات باللغة العربية أو التي استثمرت هذا المفهوم واستفادت من أسلوبه؛ ولذا فإني أعود الى التذكير هنا بأصوات "فرمان" الخمسة وبرواية أميل حبيبي "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل"، وعلى نحو من الأنحاء رواية فؤاد التكرلي "الرجع البعيد"؛ لأنّ هذه الروايات الثلاثة تشابهت من حيث المحاولة الفكرية في اختيار وسيلة فنية للتهرب من قسوة السلطة.

5- أشاد التلاوي باختيار محفوظ لأصواته بعناية فائقة في ميرامار: فهي أصوات متباينة أشد التباين. إذن، فمحفوظ جعل لكل صوت قوامه الغيري المستقل، وقد تحلقوا جميعاً حول ردّ الفعل تجاه ثورة يوليو 1952، وإن كان محفوظ قد شغلنا عن هذه القصدية الفكرية بعلاقة طارئة بين "زهرة- رمز مصر" وسرحان البحيري الذي يمثل وجه الخائن الوغد. يراجع ص 106- 110من كتاب التلاوي.

6- الأصوات في ميرامار جاءت بمسرحة للأحداث عبر حوارات، ولم تأتِ بشكل إخباري مباشر. وهذه ميزة لرواية الأصوات (نفس المصدر،ص32).

هذه الميزة التي جددت حيوية وتقدم الرواية كانت قد بدأت في أوروبا في القرن التاسع عشر عامة، وقد أشار لها الناقد الإنكليزي المشهور "بيرسي لوبوك" من غير أن يتطرق لمفهوم أو أسلوب "تعدد الأصوات"، بل كان يعني الفارق بين السرد التقليدي في القرنين الماضيين والسرد الحديث ولاسيما في محاولات "هنري جيمس" الذي كان يدعو إلى مسرحة كل شيء في الرواية، والذي شن حربه التنظيرية من أوائل القرن العشرين على "الراوي العليم" وجعل اختفاءه مقياساً للجودة الفنية... إلخ؛ وللتأكد من صحة هذه الملاحظة أو التوسع في الموضوع نشير إلى القارئ الكريم بضرورة قراءة الفصل الثامن من كتاب لوبوك "صنعة

الرواية"، والذي أعطاه المترجم العراقي "عبد الستار جواد" عنوان الأسلوب: (هنري جيمس - تورغنيف - ص107)(3).

هل بقيّ من يدافع عن ثورة عبد الناصر؟

وإذا كان الباحث الدكتور التلاوي قد اعتبر رواية ميرامار بمنزلة اجابة على السؤال الإشكالي يومذاك: من هو مع ثورة يوليو 1952 ومن هو ضدها (كذا ؟!)، فإن رواية يوم قتل الزعيم تطرح سؤالاً إشكالياً جديداً هو: ترى هل ثمة شخص يوجد في عام 1985، وهو عام صدور الطبعة الأولى من هذه الرواية، يدافع عن ثورة يوليو التي عُذِّرَتْ وصارت مقبورة بسبب سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي مع دخول الخصخصة ومجمل نمط الانتاج الرأسمالي بدل تجارب "جمال عبد الناصر" شبه الاشتراكية، ومنها تأميم قناة السويس وتدخلات الدولة لصالح الفقراء من خلال بناء المصانع والمزارع التعاونية والسدود.. إلخ؟

صحيح أنّ نجيب محفوظ يتجنب مثل هذه الأسئلة المباشرة، غير أن أصوات الرواية الثلاثة - التي تتكون منها الرواية - تتوحد بما يشبه الكورال المشترك رغم تعدد نغماته لتجيب بصوت الحياة وتقول: إنّ ما يسمى بسياسة الانفتاح أوصلتنا الى أسوأ الأحوال؛ بحيث صار الماضي هو الفردوس المفقود عند المصريين.. وللبرهنة على صحة هذا الاستنتاج أشير الى بعض الصفحات والعبارات، إذ تبدأ هذه النغمة "اللازمة" من الصفحة الأولى والثانية للرواية بصوت الجد محتشمي، والذي يمثل الصوت الأول الرئيس في الرواية، والذي أعتقد أنه المعادل الموضوعي لشخصية وصوت محفوظ ذاته حتى وإن تخفى بين طيات جلبابه:

" اللهم جنبني المرض والعجز. لا أحد ثمة للعناية بالآخرين. ولا فائض مال للتمريض. الويل لمن يسقط. يجمعنا في الصباح (المدمس) وحده أو (الطعمية). هما معا أهم من قنال السويس. سقيّاً لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى. ذلك عهد بائد، أي قبل الانفتاح. الأسعار جنت، كل شيء قد جن"، ص6 من رواية يوم قُتل الزعيم.

تصور الجد (محتشمي) لتسلسل النكبات التاريخية فإنه يرى 5 يونيو - نكسة أو هزيمة حزيران 1967- والانفتاح وروسيا والولايات المتحدة ومملكة المنحرفين بمنزلة خط طويل من المآسي (ص34)، بقدر ما يرى سياسة الانفتاح والواقع الاقتصادي بمنزلة عدوّاً للحب وللضمير وللإنسانية جمعاء. أو هذا ما توضح من خلال مفاتحته لحفيده علوان [الصوت الثاني في الرواية] بموضوع زيارة (أم رندة) للاستنجاد به من أجل الوصول الى حلٍّ مُرضٍ لعقدة عدم قدرة اتمام زواج الحفيد (علوان) بابنتها (رندة)؛ بسبب واقع الحال الاقتصادي. ولأنَّ هذا العالم صار حافلاً بالأذى كما يرى العجوز محتشمي في ظهوره للمرة السابعة كصوت (أو شخصية/ نموذج) رئيس في الرواية فإنه يشكر ربه لأنه لم يقدم في حياته الطويلة هذه أي أذىً لإنسان، ويطلب منه "حُسن الختام".

وليس ثمة رؤية كهذه أكثر قساوة ومرارة على وصف الواقع المعيش: عالم حافل بالأذى (ص75). وأود أن ألفت انتباه القارئ إلى عظمة ومهارة نجيب محفوظ في تصوير هذه المرحلة الخطيرة المتقدمة من عمر الإنسان؛ إذ اعتبر/عدّ محتشمي في ظهور سابق أن إصراره على المشاركة في تشييع جنازة آخر أصدقاء عمره بمنزلة "بروفة" يرى فيها ما هو الذي سيحدث بعد موته (!!). ولا أظن أن أحداً أقدر على وصف هذه البروفة من نجيب محفوظ في تاريخ السرد العربي.

وإذا ما رجعنا إلى رواية ميرامار فسنجد محتشمي متطابقاً إلى حدٍّ ما مع شخصية أو صوت عامر وجدي، الشخصية الرئيسة أو المعادل الموضوعي للسارد العليم، وبمعنى أدق أن اهتمامات محفوظ الاجتماعية والإنسانية بقيت كما هي على الرغم من مرور ثماني عشرة سنة ما بين صدور ميرامار في

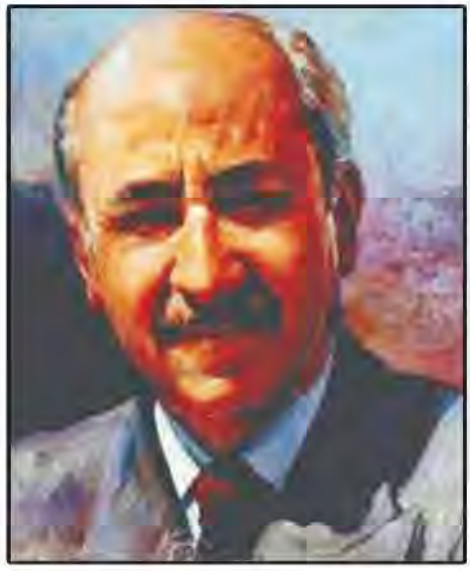

فؤاد التكرلي

طبعتها الأولى وبين رواية "يوم قتل الزعيم". ولكن من خلال التعمق برصد مظاهر ومواقف رفض سياسة الانفتاح، والاستنتاج الذي نريد البرهنة على صحته، علينا أن نعطي صورة بسيطة عن أهم عناصر بنية الرواية وماذا تمثل هذه الأصوات التي استخدمها محفوظ لإشادة هيكل روايته التي أراد لها أن تكون رواية أصوات. إذ أن كل صوت من هذه الاصوات الثلاثة يظهر بالتتابع سبع مرات بدل أن تكون سبعة فصول، فيكون مجموع فصول الرواية 21 فصلاً، يضيف له محفوظ ما يمكن تسميته مجازاً الفصل الأخير بصوت الجد محتشمي. بيد أنّ ظهور محتشمي في هذه السطور لا يمكن اعتباره بمنزلة فصل اضافي (أخير)؛ وذلك بسبب حجم أو عدد هذه السطور القليلة وطريقة التعبير من خلالها؛ لأنها سطور اخبارية مقتضبة تعادل موضوعياً عملية اسدال الستارة على هذه الدراما المصرية التي لعبت السياسة فيها دورا بارزا، كما فعل صوت "عامر وجدي" في نهاية رواية ميرامار بأسدال الستارة على الرواية من خلال "لحظة تنوير" كما وصفها د. التلاوي ليخبر عن مصائر الأصوات المشاركة له في الرواية. كما أعتقد أن نجيب محفوظ وضع نصب عينيه امكانية تحويل رواية "يوم قتل الزعيم" الى فيلم سينمائي ولاسيما عند الحدث الدراماتيكي في خاتمتها المجسد/ المتمثل بقتل علوان لمديره أنور علام، اضافة الى طريقة اسدال الستارة على حدثها وعلى مصائر شخصياتها/ نماذجها ولاسيما الشابين: علوان ورندة؛ من غير أن ننسى الفوائد الجمة التي قطفها (استفاد منها) محفوظ في توسيع دائرة شهرته من خلال تحويل عديد من قصصه الى أفلام سينمائية.

الصوت الأول:

ويمثله/يجسده كما أسلفنا الجد محتشمي زايد الذي يربو على الثمانين وصحته لا تسمح له بالخروج من الشقة، وإن كانت تسمح له القيام بأعمال منزلية مساعدة يحسده عليها جاره والد (رندة). وبهذا لم يعد في تماس واقعي مع العالم الخارجي إلا من خلال المذياع وحفيده. ومن هنا يصير الماضي بالنسبة له هو عالمه الحقيقي وفردوسه المفقود؛ ولذلك فإن صوته -أو اذا ما قلنا مجازاً سطور الفصل الأول والتي تقدم صورة بانورامية عن هذه العائلة- مليء باللغة الدينية والدعوات والطقوس والاجواء والمعتقدات، وما الى غير ذلك من أمور معظمها تنتمي الى الماضي على نحو من الأنحاء، وإن كان الرجل يستدعي من خلال ذاكرته ومونولجاته الداخلية بعض جماليات الشباب الغابرة: السفرات، الفونوغراف وأغاني الزمن الذهبي الجميل، البهجة وليلة الزواج (الدخلة)، ثم في فصل لاحق البحث من خلال وصفه لجسد الشغالة/المنظفة (أم علي) عن "نغمة الحلم الغابر" ص19 مع الاشارة الى عهد "فسق ومجون" ص44.

غير أن هذه الاشارة تتحول الى ما يشبه استدعاء ذلك العهد الماضي (فلاش باك) بشكل قوي ومريع بعد أن اختلط وتمازج عند الجد ذلك "الماضي الجميل" بحاضر حفيده المؤلم؛ بسبب عجزه عن الارتباط العملي بوصفه زوجاً

مقتدرا مع معشوقة قلبه وخطيبته (رندة) لافتقاده مقومات هذا الارتباط ولا سيّما السكن، مع اصراره على سلك/ اختيار طريق الاستقامة والنزاهة. الطريق الذي لا يريد الحفيد (علوان) أن يحيد عنه. كل هذا يظهر في صوت محتشمي منذ ظهوره الأول، في الوقت الذي يتحول صوته في الظهور الخامس (ص) الى ما يشبه جلد الذات والحُكام والزمن الآبق الرديء !!

الصوت الثاني:

يمثله/ يجسده الحفيد (علوان)، وهو شاب موظف في مؤسسة حكومية لم يحددها محفوظ كأنه يتعمد تعميم محنة هذا الشاب كما لو أنها محنة كل شباب مصر في زمن الانفتاح. وإذا ما تابعنا رؤية الحفيد للواقع الحياتي والاجتماعي - مجمل الفضاء العام: مصر زمن السادات- وارتباط محنته الشخصية بمجمل أوضاع بلده السيئة، فإننا سننتهي الى الحكم القاطع بأنّ الحياة صارت جحيماً لا يُطاق، وأنّ كل شيء الى تدهور وفساد وتراجع عن زمن ما أسماهم بالضباط الأحرار حتى وإن أنكر بعض هؤلاء الضباط فضل السابقين عليه. بمعنى أنّ الماضي بكل سوءاته صار أفضل من الحاضر بغض النظر عن نوعية الحكم وطبيعة الحاكم: ملكياً أو جمهورياً، محافظاً أم ثورياً (كذا!!) ص11.

هكذا بدأ صوت الحفيد من أول ظهور له في الرواية، وأقدم هنا مقطعاً طويلا لأحبتي القراء لكنه ضروري لإلقاء الضوء ليس على طريقة تفكير هذا الشاب فحسب، بل وعلى أسلوب ولغة محفوظ في هذه الرواية التي جمعت خبراته الفنية العريقة:

" المشي صحة واقتصاد. المفروض أنه طريق العشق والجمال فانظر ما هو. آه يا قدمي! آه يا حذائي! تحملا وتصبرا هذا زمن التحمل والتصبر. في زمن النار والوحوش لا نسمة ترطب الفؤاد إلا أنت يا حبيبتي.. أعباء الحياة المشتركة. لا حل لديها ولا حل لديّ ولا نملك إلا الحب والإصرار. أعلنت الخطبة في عهد الناصرية وواجهتنا الحقيقة في عصر الانفتاح. غرقنا في دوامة عالم مجنون. حتى في الهجرة لا مجال لنا. بين الفلسفة الثراء الفاحش وفي زمن لا يصدق؟ ألا يمكن أن يحدث ذلك بلا انحراف؟ ما سرّ حرصي على الاستقامة؟ ما أطمح في هذه الساعة إلى أكثر مما يؤهلني للزواج من رندة" ص11-12 .

غير أنّ هذا الصوت الشاب يتصاعد ويسمي الأشياء بأسمائها (بمسمياتها) الحقيقية وهو يتحدث عن حبيبته، جارته في الطفولة وزميلته في الدراسة والوظيفة العمومية، ويعتبر أزمته جزءا من المواجهة الفعلية بين "الناصرية" وما أسماه بعصر الانفتاح. وكما قرأنا في المقطع السابق الذي هو عبارة عن تداعيات ذهنية وروحية فإنّ علوان (الحفيد) يقوم بعملية كسر الزمن والعودة الى الماضي لاستنطاق حلاوة لقاءاته الحميمية الأولى مع حبيبة قلبه (رندة)، لكنه بذات الوقت لا ينسى حقيقة حاضره حين يعترف بأنّ الأسرتين معاً (أسرته وأسرة حبيبته) سقطتا في "حفرة الانفتاح" (ص24). وثمة اشارة في الصفحة التالية إلى أن "زمن

نجيب محفوظ

حـــفرة الانفتاح" حـــين يكون المرء فيها من أصحاب المبـادئ هي بـمنزلة حـالة إشـكالية مستعصية !!

ثم يعلو صوت الشـــاب في ظهور آخر (فصل آخر) ويكشـف عن حقيقـة الأمر: فإذا ظل (عبـد الناصر) المهزوم عســـــكرياً رمزاً للآمال الضائعة "امال الفقراء والمعزولين" فإن خليفته (السـادات) الذي يسـمي نفسـه "بـطل السـلام والنصر" هو في الواقـــــع نموذج للخنوع والاستسلام؛ إذ يتكشف الحال بأن السلام هو في الحقيقة لعبـة "تسليم" للإسـرائيليين كما ورد في صفحة46 . ومن خلال عملية رصد لمجريات الواقع المرير الذي يقوم به (علوان) وهو جالس في مقهى ريش [المقهى المفضل باستمرار عند محفوظ] ينتهي الى الاستنتاج بضرورة التراجع عن اتفاقـــية (كامب ديفيد) والعودة الى العرب والحرب، حتى وإن كانت حرب أبدية. ص47.

في ظهور سابـــع يصف الحـــفيد علوان أنور السـادات بـــالمنتصر (المعجبـــاتي) -المعجب بنفسـه كما ورد على لسـان أم علوان كشـخصية ثانوية ســـــاندة في الرواية، الســـطر الأخير ص77- ثم من خلال متابعته لحدث مقـتله في الاسـتعراض العسـكري الذي أقـامه لعيد نصره المزعوم في (5 سبتمبـــــر)، وذلك عن طريق المذياع/الترانزستور وأقوال الشباب في المقهى وأقوال الناس في الشارع.

الصوت الثالث:

(رندة سليمان مبارك) خطيبة الحفيد علوان. في أول ظهور لها تصف أيام الزمن الذي لم تعشه - بحـكم عمرها الصغير نسـبـياً- بـــأنه "الأيام الأسـطورية"، وذلك مقـارنة بـرغد العيش فيه على الرغم من الدخول/ المداخيل المحـــــدودة مقابـل "عصر الانفتاح" الذي يحـتم على أفراد الأسـرة جميعاً أن يعملوا ليدبـروا لقـمة العيش، هذه اللقـمة التي تخترق سـطور وروح ونفس الرواية كوســيلة رمزية للتعبـــير عن معاناة الشـعب المصري جراء سياسـة عصر الانفتاح [تُراجع ص15]. ولأنها شابـــة فإنّ صوتها هو الآخر قوي وجريء ويسمي الأشياء بأسمائها: عبـــد الناصر كبـــطل منهزم في الخامس من حـزيران1967، وعصر الانفتاح فيه أبـــطال مستفيدون مقابل ضحـــاياه الكثر، وتنتقـد تردد خطيبها بين بين ولكنها تتمسك بالحب كما لو أنه العصا السحرية التي ستحـل مشكلتها ومشكلة عصرها (!!)؛ بـــل وتجرؤ على القـــول في مونولوجها النفسي: "زمن شعارات مقزز. حتى الراحـل البـطل لم يعف عن ترديد الشـعارات. وبين الشعار والحقيقة هوة سقطنا فيها ضائعين" ص17. ويســـتمر ضياع (رندة) عندما يعود اليها محـــــفوظ في فصل أو ظهور لاحـــــق (ص27) تبحـث مع حبيبـها عن سبـيل الخروج من "حـــــفرة الانفتاح". ولكنهما لم يصلا إلى مخرج ايجابـــي، مما يدفع الشـــاب علوان إلى التضحـية واتخاذ قـرار فسـخ الخطوبـة ليمنح جمارة قلبـــه فرصة الحـــصول على الزوج المناسب.

وهنا يدفع محـفوظ بـخيوط شبـكته الفنية ذات الطابـع العنكبـوتي الماهر لالتهام مصير الشابـة (رندة) فتصير/تصبـح ضحـية رمز الفســاد المصـري (مدير دائرتها أنور عـلام)، رجـل التسلق واغتنام الفرص؛ ولاسـيما أن محـفوظ اسـتثمر خبـراته الفنية الرائعة من أجل التمهيد لهذه الفرصة الذهبـية من خلال محـــاولة هذا المدير الفاسـد لجر (علوان) بـاتجاه شقيقـته الأرملة (جوســـلين الوارثة من زوج خليجي مسن)، في الوقـت الذي لمَّح لرندة أكثر من مرة بلا جدوى انتظار أمل لن يتحقق.

ومن خلال هذه المصيدة الخبـــيثة التي نصب شباكها الشيطانية أنور علام حظي بـزواج رندة من أجل تحقـــيق مكاســـب مالية عن طريق تحـويلها إلى ما يشبـه عاهرة بـزي زوجة، أو نادلة، ترضي متطلبـات رؤوس الفساد الأكبـر الذين سماهم الشعب المصري يومذاك بالحيتان والقـطط السـمان. والتاريخ ضعف الطالب والمطلوب. لا لزوم لنا. ما أكثر من لا لزوم لهم. كيف حـاق بـنا هذا الضياع؟ إني مسئول مُطارد تحاصره التساؤلات. وهي جميلة ومطلوبـة وأنا

قائم مثل السد في طريق حظها. نظرات والديها الممتعضة لا تفارقني.. أكاد أسمع ما يقال من ورائي. فوق ذلك تهيم أحلام الإصلاح. تجيء من فوق أو من تحت. بقرارات أو بانتفاضات. معجزة العلم والانتاج. لكن ما الحل مع ما يقال عن الفساد واللصوص؟ ما أفظع ما تقول الدكتورة (علياء سميح) وما يقول (محمود المحروقي). أين الصواب؟ لِمَ أشكُ في كل شيء؟ منذ تهاوى مثلي الأعلى في خمسة يونيه - يقصد علوان هنا تهاوي عبد الناصر بعد نكسة أو هزيمة 5 حزيران - 1967كيف يجد أناس سبيلاً سحرياً الى رندة: " وما أكثر أصدقاءك من رجال الأعمال " !

"إنهم في الحقيقة مستقبلنا" أجاب زوجها ومدير دائرتها أنور علام.

فتساءلت في حيرة: "ماذا تعني؟ "

"وظيفة مثل وظيفتي لا قيمة لها إلا في نظر موظف ناشئ، مستقبلنا الحقيقي في القطاع الخاص، في المغامرة الذكية التي ترفع الشخص من طبقة إلى طبقة، فلا تقصري في الاحتفاء بهم " !

"إذن فهي زيارات عمل!" فلم أرتح لذلك وقلت:

"إنكَ أفهمتني أنك واثق من نفسك من الناحية المالية "

فقال بصراحة مكشوفة: "عن هذا السبيل وحده، عدا ذلك فلا أمان لأحد في هذا الموج المتصاعد بلا توقف من الغلاء!؛ فإذا لم يكوّن الإنسان ثروة خيالية في هذه الظروف فلا بارك الله فيه "

" ألا يكفي ما يوفر لنا معيشة مريحة؟ "

" مريحة؟! نحن في سباق يا محبوبة لا رحمة فيه "

" ها هو شخص جديد يبرز لي من وراء الشخص الآخر، وبعجلة مذهلة، لا يطيق الصبر ولا يصبر على التدرج ولا يعمل حسابا لأثر رد الفعل في نفسي. إنه يقول لي بكل بساطة إليك ذاتي بلا قناع ولا لف ولا دوران، فما رأيك؟! إنه لا يرى في هذه الدنيا إلا طموحه ولا يحفل إلا به، يسدي إليه صلاته مائة مرة في

غائب طعمة فرمان

اليوم، وكأنما لا وجود لي إلا من خلال الدور الذي يمكن أن ألعبه في مخططه المترامي" ص60-61 .

غير أن عفة وكرامة الشابة دفعتها للشعور الصادق بالندم لأنها باعت نفسها عن غير قصد؛ فتندفع بما يشبه الثورة أو يقظة الضمير لتحول دون تحقيق مآرب أنور علام الدنيئة. وبهذا يدفع محفوظ حبكة روايته إلى مواقع درامية كان قد تفنن بخلقها وبنائها في أعماله السابقة. وعلى الرغم من أن الظهور السابق (الرابع ص50) لصوت رندة قبل ظهور هذه العقدة الدرامية بوصفها الذروة في البناء الروائي كان صوتاً ذا نغمة خافتة وطابع اخباري، غير أنه عبر بصدق جارح عن حقيقة كون الإنسانية محكومة بالمال كما لو أننا في لعبة (روليت) محطمة للأعصاب!!

*****

والآن علينا العودة إلى ما هو جوهر وأساس بحثنا في درجة نجاح نجيب محفوظ في طريقة استثماره لمفهوم وأسلوب تعدد الأصوات في هذه الرواية، بغض النظر عن نية محفوظ الأصلية فيما لو كان أراد أن يكون استثماره واسعاً أو محدوداً ولاسيّما أن النقد الأدبي

الحديث كان قد انتهى الى حقيقة خروج النص من يدّ المؤلف بعد طبعه من جهة وتحوله إلى عموم القراء ومنهم النقاد، فضلاً عن حقيقة وجود تاريخ أدبي عالمي حافل بهذا الأسلوب من جهة ثانية، مع وجود محاولة عربية لاستثماره كان محفوظ من روادها الأول في روايته ميرامار كما أسلفنا من قبل، وصار بمتناول يده أصوات فرمان الخمسة (1967م) و أصوات (سليمان فياض 1970م) ورجع التكرلي البعيد (1980م)، وما ذكره دكتور التلاوي من/عن روايات مصرية حاولت استثمار هذا المفهوم/الأسلوب لحين ما نشر روايته " يوم قُتل الزعيم" عام (1985م.(

بالطبع لا تخفى على أحد حقيقة أن (عميد الرواية العربية) كان يقرأ كثيرا ويطلّع على منجزات مجايليه العرب إضافة الى محاولاته المبكرة لتحديث وتجديد الرواية العربية من الناحية الفنية، حتى أنّ أحد النقاد المصريين كتب في ستينيات القرن الماضي كتاباً كاملاً عن الشكل والأسلوب الفني في قصصه، كما أنني شخصيّاً أشدت باهتماماته الفنية (عام1977) من خلال قراءتي لروايته (قلب الليل)(4).

وثبّت حقيقة أن (محفوظ) وسَّعَ في هذه الرواية من دائرة الايقاع الدرامي والشعري والمسرحي على حساب الاستفاضة في الوصف السردي الذي ميز أعماله الأولى ولاسيما في الثلاثية وما قبلها وما تلاها بقليل؛ كما لو أنني كنت أريد الاشارة إلى حوارية (محفوظ) في تلك الرواية ليس بمفهوم "تعدد الأصوات" بل في تبادل أدوار (الروي/السرد) بين الراوي والمروي عنه (النموذج/بطل الرواية) خاصة حين يتحدث الأخير عن طفولته الغريبة. وفي نهاية قراءتي استخلصت الحكم النقدي الآتي:

إنّ نجيب محفوظ بلغ أسرار الصنعة الروائية بجدارة فائقة ومهارة تكنيكية تقترب من دائرة الخبرة الشخصية العظيمة المتراكمة ومن مفهوم الاحتراف.

من كل هذا أريد التأكيد على حقيقة اطلاع (محفوظ) على التجارب العربية عامة في هذا المجال والعراقية خاصة رواية (فرمان) التي تكشف عن أسلوبها الفني من خلال تسميتها (عنوانها)، في حين تكشف رواية التكرلي (الرجع البعيد) عن نفس الأسلوب من خلال بنائها ومعمارها الفني؛ وبهذا يكون ثمة خيط رابط أساسه مفهوم وأسلوب "تعدد الأصوات" بين هذه الروايات الثلاث، بغض النظر عن المقاصد وحدود هذا الاستخدام أو درجة النجاح والاخفاق في طريقة استخدامه !

مقاربة نقدية بين الروايات الثلاثة

ولأني مثل كل أبناء جيل النصف الأول من القرن العشرين تتلمذت على روايات العميد محفوظ، وما زلت أدرس وأكتب عن فرمان والتكرلي، فإني سأسمح لنفسي القيام بمقاربة نقدية بين هذه الروايات الثلاث ضمن اطار مفهوم " تعدد الأصوات " الذي صار واضحاً من خلال كل هذه المقدمة التنظيرية الواسعة.

أولا:

حدد (فرمان) أصواته الرئيسة بخمسة رجال، في حين زاد التكرلي من عدد أصوات روايته الى ثمانية أصوات رجالية ونسائية اضافة إلى صوت الطفلة سناء ... وسنتابع هذه الأصوات الثمانية صوتاً بعد آخر وفصلا بعد فصل في الجانب أو القسم التطبيقي من هذا الكتاب، في حين اكتفى محفوظ بثلاثة أصوات فقط: اثنان ذكور (الجد والحفيد) والصوت الثالث نسائي هو صوت (رندة) كما ذكرنا سابقاً؛ مما يعني أن (رائد الرواية العربية من غير منازع) أكثر احترافية وقدرة على لملمة وضغط روايته بأقل عدد ممكن من الاصوات والصفحات.

ولعل هذا السبب هو الذي جعل بعض النقاد يرون الجانب المترهل في رواية (فؤاد التكرلي)، وإن كنت لا أميل لهذه الرؤية الأحادية الجانب وأعتقد أن التكرلي أراد أن يكتب رواية تاريخية وإنسانية وفكرية واجتماعية، وحتى سايكولوجية - بمنزلة المعادل الموضوعي لكل جوانب الحياة؛ ولذلك

لم يقيد نفسه كلية بمفهوم "تعدد الأصوات" واكتفى بما يخدم روايته من هذا الأسلوب الفني وغيره من الأساليب الحديثة والتقليدية في بناء الرواية على حدٍ سواء.
ولهذا السبب بالذات كان ذهني يطرح السؤال الآتي وأنا أحاول أن أدلو بدلوي كما يقال في هذا المفهوم والأسلوب: ترى لماذا عدّ الناقد (فابيو كاياني) رواية التكرلي بوصفها "تمثل أنصع نموذج على تعدد الأصوات والسرد التعددي في الرواية العربية المعاصرة"(5) وليس رواية (محفوظ) المنشورة عام 1985؟ على الرغم من إنه كتب دراسته هذه في تسعينيات القرن الماضي بدليل أنه استخدم دراسة الناقد العراقي (فاضل ثامر) المنشورة عام (1992) كمصدر لتجربة "السرد التعددي في الرواية العربية المعاصرة" عند غائب طعمة فرمان كما ذكرت في الصفحات الأولى من هذا الكتاب.

ثانياً:
جعل فرمان أصواته الخمسة تتحدث كما لو أن كل صوت بمعزل عن الأصوات الأخرى على نحو من الأنحاء على الرغم من وجود تداخلات بسيطة ومحدودة بين هذه الأصوات من جهة وبين صوت فرمان كمؤلف وسارد وإنسان صاحب رؤيا وموقف من جهة ثانية، وإن كنا سنؤجل مؤقتاً حقيقة أن هذا التداخل والتدخل سيكون من أسباب عدم نجاح أي رواية تسعى لاستخدام أسلوب "تعدد الأصوات" الذي يقتضي استبعاد المؤلف واستقلالية أصوات أبطاله/ نماذجه إلى أقصى حدٍّ ممكن. في حين كانت تداخلات أصوات "الرجع البعيد" الثمانية كبيرة وكثيرة إضافة إلى تدخل (التكرلي) على نطاق واسع وفي معظم فصول روايته المكونة من ثلاثة عشر فصلاً، ولاسيما الفصل الأول الذي يمكنني أن أعده عرض مشهدي وبانورامي لموقع بيت (ابو مدحت - الجد، مركز دائرة مسرح الرواية) وسكناه وأبطاله ومعظم مصادر أصواته على الرغم من أن هذا الفصل كان مخصصاً لصوت (أم مدحت).

غير أن محفوظ المحنك، الذي له باع طويل في تاريخ السرد العربي، جعل من الأصوات الثلاثة لروايته أقل تداخلاً وأكثر صفاءً على الرغم من وجوده كمؤلف وكإنسان ولاسيما في شخصية أو صوت (محتشمي)، ما جعل عدد صفحات روايته أقل كما لو أنه خبير في عمليات الشطب التي عدّها البعض سرّ نجاح الروايات الموزونة التي لا زيادة ولا نقصان فيها؛ وكان أقرب في روايته لأصوات (فرمان) منه إلى التكرلي من حيث المحافظة على البعد الاجتماعي والهم الحياتي من غير أن نقصي رواية (الرجع البعيد) عن هذا الهم الذي أضافت الرواية له هموم انسانية ووجدانية وروحية وفلسفية كثيرة.

ثالثاً:
الروايات الثلاث تتشارك في الاخفاق للوصول إلى الرواية النموذج المطلوبة حين يتخذ الكاتب لنفسه مهمة كتابة رواية أصوات، ولكن بنسب متباينة في درجة هذا الإخفاق إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الدرجة الابداعية الصعبة التي تتطلبها هذه المهمة والتي تحدث عنها الدكتور التلاوي، إضافة إلى النقاط التي وردت في الكتابات المختلفة التي وقعت بين أيدينا وذكرناها في هذه المقدمة التنظيرية كخصائص (ولا أقول شروطا) لمفهوم و أسلوب "تعدد الأصوات" وأهمها الغاء سيطرة أحادية الكاتب -الروائي التقليدي- واختفاء صوته إلى أبعد حدٍّ ممكن كما لو أن الأبطال والنماذج الروائية تتحدث عن نفسها من غير أن يجمعهم أي جامع بالمؤلف، أي أحرار ومتكافئين مع الروائي، أو حتى متضادين معه ومتمردين على سطوته ومتماشين مع المرتبة التاريخية العليا لتطور الوعي من غير أن يطغى منظور على منظور أو صوت على صوت مما يجعل رواية الأصوات ذات طابع حواري ديالوجي - وعلاقات حوارية - على نطاق واسع تحمل مستويات عدّة ومتنوعة للسرد ولطبقات الوعي أو خلق نغمات شخصية مميزة في كل صوت

من خلال خلق المسافة المطلوبة بين مستويات الوعي عند الشخصيات واختلافها مع درجة وعي المؤلف لتغتني بالتنوع الصوتي وديمقراطية التعبير بما في ذلك إلغاء (المركزية) التي وسمت الروايات التقليدية بميسمها خلال قرون عدّة.

فهل استطاع (نجيب محفوظ) الذي اقتطف جائزة نوبل أن يقطع الحبل السري الذي ربطه مع أصواته الثلاثة ولاسيما الجد المسن (محتشمي) أم أنه لم يستطع تجاوز ذاته فبقينا نلمس بصمات صوته الشخصي: أفكاره، مفاهيمه، أحاسيسه، التي عهدناها في كل أعماله السابقة وتتلمذنا عليها لما يزيد على نصف قرن من الزمان؟ !

أترك الاجابة لمن يقرأ رواية محفوظ المهمة "يوم قُتل الزعيم"، وأحض على قراءتها؛ لأن فيها الشيء الكثير مما لا يتعلق بموضوع كتابنا/ بحثنا هذا. وإذا ما طرح قارئ السؤال الصعب: ما هو المقصود بالرواية النموذج المطلوبة؟ فإني أحيله إلى قراءة روايات فولكنر من مثل (بينما أرقد محتضرة) أو (نور في آب/أغسطس) وخاصة (الصخب والعنف) التي فيها أنصع نموذج لدرجات وطبقات ومستويات الوعي والسرد الروائي على حدٍّ سواء ولاسيما خلق النغمات الشخصية المميزة عند كل صوت (صوت بنجي المختلف بحكم قصور عقله، مثلاً)، إضافة إلى التلوين الصوتي الذي سنلمسه أيضاً عند قراءة تحفة فرجينيا وولف (الأمواج) والصفاء والدقة وعدم الاختلاط بين الأصوات عامة وصوت المؤلف/المؤلفة لاسيّما إن كان لهذا الصوت ثمة ضرورة فنية؛ وكل ما يستدعيه عملية الخلق الابداعي لتفرد كل شخصية بنغمة صوتها وتدرج الموتيفات الموسيقية والتونات - واعادة تكرارها لتثبيت المعنى - خاصة عند شخصيتها الرئيسة (برنارد) لنقول عن جدارة إنها درة من درر البناء البوليفوني أو نص/ رواية "بوليفونية" من غير أن ننسى رسالة دوستويفسكي لأخيه في هذا المجال حين كان يكتب (رسائل من تحت الأرض)(6) ويريد استثمار اللغة الموسيقية في أعماله الأدبية كما أسلفنا سابقاً.

*** كاتب عراقي مستقل/ مقيم في سورية**

الهوامش والمصادر:

(1) الطبعة الأولى لرواية "ميرامار" كانت في عام 1967.
أما الطبعة الأولى لرواية "يوم قتل الزعيم" فقد كانت في عام 1985 - منشورات دار مصر للطباعة، سعيد جوده السحار وشركاه.

(2) محمد نجيب التلاوي: وجهة النظر في رواية الأصوات العربية، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2000، ص130

(3) بيرسي لوبوك، صنعة الرواية، ترجمة عبد الستار جواد، منشورات وزارة الثقافة العراقية، 1981.

(4) مجلة الأقلام، العدد 4، 1 أبريل 1977

(5) دراسة "فابيو كاياني" عن الرجع البعيد، التي ترجمها "سهيل نجم" ونشرها في العدد الأول من مجلة الأديب العراقي/ نيسان 2005

(6) يراجع في هذا الشأن مقالة للدكتور (ثائر زين الدين) التي يقرأ فيها رواية دوستويفسكي "رسائل من تحت الأرض" على ضوء نظرية أو طريقة "ميخائيل باختين" في دراسته لدوستويفسكي؛ ولاسيّما أن الدكتور الأديب السوري يعدّ باختين بوصفه "واحدا من أهم علماء فقه اللغة الروسية في القرن العشرين"، ص 156، مجلة المعرفة في سنتها الستين، العدد 692، آيار 2021

تجليات الانزياح في ديوان (جدار مر)

د. سمير الخليل

يثير الخطاب الشعري في تجربة الشاعر أمير الحلاج الصادر عن (اتحاد الأدباء - بغداد 2020) كثيراً من التساؤلات ويتطلب كثيراً من الاستنطاق والمعاينة النقدية وذلك لأنّ نصوص هذه المجموعة ترتكز على قصديّة واشتغال خارج المألوف الشعري - شكلاً ومحتوى- فهو يمزج بين رومانسية الشعر وذهنية التأمّل ومراقبة الظواهر الحياتية وينظر إليها من زاوية (التأويل) الشعري ويحاول إعادةَ انتاج اليومي والمهمل بعيداً عن التناول أو الفهم أو التوصيف التقليدي وفي كل نص نجد تعدديّة في المضامين ليس بطريقة التشظي العدمي وإنّما في داخل كل ثيمة يحاول فتح رؤى للسؤال والمعاينة وتطوير الفكرة والتعمّق بتجلياتها.

فالشاعر لا يكتب (تقارير) شعرية عن الواقع بل يشتبك معه ويحاول إعادةَ اكتشافه من زوايا غير معهودة إنّه يبحث عن المعنى (الخفي) و(الباطني) للأشياء والظواهر ولا يتبع في ملاحقته هذه على طرق نيسمية بل يبحث عن المعنى حيث يحوّله إلى ظاهرة تستحق الاستكناه والاكتشاف مما يؤدّي إلى تلك المسحة أو التأطير الذهني.

الشاعر (أمير الحلاج) يحاول أن يجعل النص شفرة تجمع بين غنائية الصورة الشعرية وبين التعمّق المعرفي فيها وبذا تكتسب نصوصه نزعة (فلسفية)، وتجريداً عميقاً مبتعداً عن المتعة البلاغيّة ولعبة الألفاظ بصيغتها الوجدانية التي تصدّر المباشرة والخدر بعيداً عن التعمّق في الوعي لدراسة واقع أو لحظة ملتبسة، وقد تجاوز إشكالية الجميع بين النقيضين (الغنائية والذهنية) وصولاً إلى نص محكم يرتكز على هاتين البؤرتين والخروج إلى مساحة متوازنة منتجة لا تكرس زاوية أو اشتغالاً على حساب مساحة أخرى، وفي البداهة أن يقترن هذا الوعي الشعري وقصديته بأداء لغوي يستوعب حجم هذه المغامرة فكان الاشتغال اللغوي وشعرية المفردة على وفق صياغات غير تقليدية وغير مألوفة، ارتكزت على منظومة من الانزياح ومغادرة المعنى المعجمي للمفردة وتحريرها من الدلالة التقليدية، وقد توهّجت مساحات ونصوص كثيرة على وفق هذه المغامرة التجريبيّة التي خلت من متعة اللّعبة اللّغوية باتجاه تحريك دلالة النظر والتماس مع الواقع بهواجس التفحّص والبحث عن السؤال الوجودي مما يتطلب تفعيل استجابة المتلقي والتفاعل مع قصديّات الوعي -في النصوص- وتعالقها مع فضاءات التناول وجماليات الأداء.

تتمظهر دلالة (الانزياح) بدءاً من عنوان المجموعة (جدار مر)، العنوان الذي حقق انزياحاً منظوراً، ونقل معنى المفردة من الإطار أو المعنى المعجمي إلى الانفتاح على معنى وصورة جديدة ناسخة للاستخدام التقليدي، والمزج بين الصفة المادية (الجدار) و(المر) الصفة التي تنطوي على المعنى، وهو انزياح كنائي لأنه لا يريد طعم الجدار الحقيقي إنما أراد المعنى البعيد المرتبط بـ(الجدار الحر) الذي كان مصدراً للنفاق والتهم والتسقيط والقتل الرمزي فهو (مر) بسوئه وظلامه، وقد شاع (الجدار الحر) في زمن النظام السابق ليعطي مساحة من الحرية المصطنعة للناس، يكتبون ما يشاؤون نقداً ومقترحات وإدانات محدودة لا تشمل النظام وأزلامه، وفي التشكيل العنواني وبوصفه نصّاً موازياً نجد التشابك بين تراسل الحواس، فالجدار علامة تنظر بحاسة البصر بينما معنى (المرارة) تختص به حاسة التذوق وبهذا استطاع المجاز أن ينطلق في توصيف شعري انزياحي.

هذه المجموعة المميزة اشتغالات وظواهر يمكن احصاؤها والاقتراب من أدائها نقدياً، فلقد برع الشاعر في إيجاد نسق شفيف لبداية كلّ نص.. بداية مترعة بالصورة والاستهلال الدال:

لا تعيدي الستارة
حيث فعلت قبيل غناء الشروق
دعيها ..
تراقص وضعا تراه
وننعم في منظر الزجاج النظيف
لنافذة
تعزل النظرات

فنبقى نؤمّل أرواحنا (المجموعة12):

ونلحظ عدداً من القصائد تبدأ بفعل أمر (لا تعيدي) (دعي كل صمت مضى) (اترك كتابك)... الخ.

ولعلّ ظاهرة فعل الأمر ليس بمعنى الامتثال لما يريده الشاعر ولكنّه نوع من التوظيف لإشاعة السؤال والانتباه، وكأنّ النص هو حوار يعتمد الانتباه والتوجيه والطلب للتركيز على الدلالة،

والبدايات تتّصف بالدخول إلى مشهد عياني مباشر.
النص المعنون (الجدار المر) الذي صار عنوان المجموعة، هو خطاب شعري ذهني إلى الأب، وحوار في المسكوت عنه، وفي البحث عن دلالات الهيمنة التي تمثلها شخصيّة الأب وتداعيات البوح لشخصيّة حميمة ونجد براعة الاستهلال وتراسل الأفكار:
اترك كتابك يا أبي
لمَ لا ترد
إنّي انتظرتك
بيد أنّك في شرود
هل تعود إليّ؟
وهل تغيّر صورةً
عيناي صورتا تفاصيل انزاوئك
لا تدع شيئاً يشيد ما يعين الليل
بين الحائطين..
فصوتي العالي يذوب ولا يجيء إليك ..
(المجموعة21):
ارتكز الاستهلال على رؤية استفهامية باستثمار فعل الأمر، ونشعر بالمسافة بين الذات والآخر الذي يمثله الأب، وما هذه المسافة إلا تعبير عن الارتباط والتواصل حد التماهي، حتّى تأخذ شخصيّة الأب بعداً رمزيّاً فهي تمثّل الحاضنة الدافئة لاسئلة الذات ! .
المجموعة على مستوى المضمون والثيمات تركّز على استنطاق الظواهر والوقائع التي ينطوي عليها اليومي والمهمل وإضاءة الزوايا الخفيّة والتي لا تثير اهتمام الأذهان العابرة!..
وترتكز المجموعة على موضوعات مهمة (المرأة، الحلم، الانتظار، الحقيقة، الزيف، الحرب، الحزن، الغربة، ... وغيرها)، من الثيمات والمضامين الإنسانية ولنتأمل الشواهد أو النماذج للتدليل على هذا التوجّه، ففي نص (انطفاء الكلام) نجد المرأة والعشق، والغنائية الشفيفة :لم تغب نظرة منكِ
أو تنزوي
في ثنايا الغروب
وهي لم تطلق الكلمات
فراشات دفء
تشير إلى نزلة البرد
ألا ترافقها
دون أن يفضح العطرُ سيرتَه
كيف أودّع قلبا برملٍ
على أمل نتغنى بما يفصح النّبض
كيف تفاصيل سيرته ..؟
زرْعَها مثمرٌ بشفاهٍ تغنّي (المجموعة25):
ونجد التعمّق بأجواء السؤال الوجودي على وفق مسحة تجريدية في نص (المساء أتى):
لكن دع الأمر يأخذ مجراه
فالوقت
مثل محيط لدائرة تتحرك
والأمس
كفٌّ تديم لها اللفَّ
كي يعلن الضوء نصر التّصور
أنْ يركز الشك قبّته
وسط حاشيةٍ
للفراق
تصفق والنكبات .. (المجموعة38):
نجد ثمة براعة في المجاز والاستعارات وانزياحات لا حصر لها والتحليق بالفكرة عبر متوالية من الأداء اللغوي وبعض مفردات تثير الوعي والقصد الذهني، وهي طريقة لتناول الواقع بعيداً عن اللّغة المألوفة، فالتناول غير المألوف بانزياحاته هو الذي يثير الاسئلة أكثر مما يعطي الأجوبة والتوصيفات النهائية، فالنصوص في هذا الاشتغال هي تحريض صوري للبحث عن المعنى (الكامن) وتحريك الذهن لإعادة اكتشاف الواقع بعمقه ودلالته.
ونجد ميل الشاعر إلى الطبيعة وإثارة الانتباه لمفرداتها، وجعل المتلقي يعثر على السؤال والجواب والتعالق بين ما تثيره الطبيعة من هواجس وبين اسئلة الذات المتأملة في نص (انتظار التراب)، إذ نلحظ هذا التوظيف:
أرى أنْ تبخّرنا الشمس
نغدو
غيوماً مقطّعة
لا تدرّ

ولكن بنا رغبة
أن تسرّ بنا الأرضُ
من توافق عطر أمانيه
ولون التراب
فتنسجم الصورة المستفيقة
لا أن نخفف ثقلاً بها
علَّ من بعصاه يغني
يرى ظلمة الصبح .. (المجموعة:43) تتجلّى مفردات ومرموزات الطبيعة (الأرض، الشمس، التراب، الظلمة، الصبح...الخ)، موظفة في صور استعارية لمناجزة الفكرة ونجد ميلاً لأنسنة هذه المرموزات وصولاً إلى إثارة انتباهات ذهنية تغيّر خلجات الذات المتأملة صورة الانزياح وجماليته تتجلى في الأداء اللّغوي في مقطع الختام من نصّ (جمر الحضور):
ليلٌ مدَّ ذرعيه للصمت.
ليبقيه على سندات لا تنفر مطرقةٌ
لم تطبع قبلتها
ليل ضاق به الصبر
فذابت أغلفة لم يألفها الصبحُ.. (المجموعة47):
فأنسنة الطبيعة (لم يألفها الصبح) تمثل انزياحاً استعارياً، ونجد جمالية الصور والمفردات التي عمل الشاعر على زحزحة إطارها ومعناها المعجمي بالانفتاح على مساحات من التصور الذهني والتأويل.
وهناك غنائية فيها كثير من العذوبة في نص (شيء ما):
كلّما مرَّ شيء يخصك
قربي
يفزّ انتشاءً
ويرقص
قلبي
كأنّ مروره عزف
فتنكسر الصورة المستظلة وضع التجمّد
كي ارتقي عائداً سلّم الحلم
أن تتراصف طائعة في المسير خطانا
وتغرز في هاجس المتطلّع
حيث الندى .. (المجموعة95):
ونجد نصوصاً مكثفة تشبه إلى حد ما قصيدة (الهايكو) في الاختزال والمجهول الشعري والإشارة إلى الفكرة بطريقة تثير كثيراً من الاسئلة لدى المتلقي:
أقسى من فعل القتل
أن تتعرّى من كلّ فنون الفتك
وتنسى رمح لسانك.. (المجموعة136)
وتتكرر موضوعة الحلم مراراً وفي أكثر من نص كما في نص (زيارة):
كلما زارنا فرح
ثم وشّح أتراحنا الحبور
وراقصنا طيف أنثى
لتنمو عقابيل أحلامنا
وهي تبرق بالضحكات
وأوقد فانوس حيرتنا المتعقر بالنكبات
تفتّق من ليل البدر
داخل بوتقة تمسك الليل في حضنها
لتطبع تباشير النبض.. (المجموعة79)
أمّا موضوعة الحرب فتتكرر بالإيحاء وبالتصريح مثل هذا التجسيد في نص (إشراق الكلام):
في ساحة الحرب الضروس
يضيء وجه الشك
جوف حقيقة المخبوء في الأنوار
كي تجثو عيون
في بريق حديثها شكوى
صريعة غابة
تلتّم قلباً
لا يراوده ازدهار يورق الحّمى
فيختل استواء الأفق .. (المجموعة18)
مجموعة (جدار مر) أنموذج لروح التجريب وعلى أكثر من مستوى تجريب في الصورة الشعرية التي تمزج بين الغنائية والمسحة الذهنية التجريدية ونجد تجريباً في الاختزال، واستقصاء المعاني القصيّة، ونجد اتجاهاً تجريبياً في تفعيل وظيفة الانزياح وتحرير المفردة من طقسها وعرجونها المعجمي باتجاه التأويل والانفتاح والتوهج الشعري ومن ثمّ هناك تحرّر القصيدة من النسق المألوف والسائد.

الضوء والعتمة

أمير الحلاج

في الضّوءِ،
تبتهجُ التّفاصيلُ المُعَدّةُ
في رؤى الإفصاحِ ،
والتّوضيحِ والتّصريحِ
والرّسمِ الممهّدِ
لارتقاءِ وسائلِ الطّعناتِ.
كي تبيضّ، ما اسودّتْ من الفوضى، وجوهٌ
همّها
أن ترتمي الطُّرُقُ التقيّةُ في دهاليزِ الغروبِ،
ويكتمُ الأنفاسَ
خنّاسٌ
يوسوسُ للمسيرِ إلى الوراءِ.
فهل يدومُ الشّكُّ مرميًّا بسردابِ
يشلُّ تطلّعَ الكفِّ المُعَدّ
ليرسمَ بسمةً في الصّفحةِ البيضاءِ؟
أم يبقى على حبلِ
يسيرُ
وبين يمينِه والضّدّ
ترقصُ نبتةٌ
من نسمةٍ
من بعضِ عصفٍ
أو زفيرٍ فرّ سهوًا
دون أن يدري، بلبِّ القلبِ ،
حجمَ الأمرِ
أن يمضي لتوليدِ الخرابِ؟
أو التوقفِ وسطَ رفضِ الأمرِ
علّ مجيءَ كفٍّ من شعاعِ الحقّ
ترسمُ صورةَ الصّبحِ المؤمّلِ
أن يجرَّ الحقّ حلمًا
لا يميلُ لعتمةِ التّخمينِ
أو يرمي القبولَ لضفّةٍ أخرى؟
فنبقى حالمينَ
أكقنا بأظافرِ التّقوى
تشبّثها يميلُ إلى السّوادِ
ويفتحُ الأحلامَ
نأيًا للتذمّرِ
كي نرى الآمالَ
ترسمُ سهمَ إرشادِ العيونِ
لترسلَ الكلماتِ
زاحفةً لعتمةِ صورةٍ
يبقى التّمعّنُ في ثناياها
يرى الإشراقَ
مثلَ الطّفلِ في رحمِ لأمٍّ
لم يرَ المتغيّراتِ تمدُّ بعضَ إعانةٍ
لكن إلى البوّابةِ الكبرى الرّؤى
تحبو لتزرعَ في المدى النّظراتِ
علّ الضّوءَ يفقه قيمةَ الظّلماءِ.

أقلام عراقية في الخارج

" ملف خاص "

هذا الملف :

يرفدنا عدد كبير من الادباء والفنانين والأكاديميين العراقيين الذين يقيمون في الخارج بالعديد من نصوصهم ومقالاتهم وابحاثهم.

وباتوا يشكلون رافداً مهماً في اغناء الحركة الثقافية الرصينة التي تتبوأ مكانها في الثقافة الوطنية في الداخل والتي تعاني من أزمات سياسية واقتصادية ومعرفية عديدة.

ومع ان هذه العلامات المهمة من شغيلة الفكر والابداع تعاني من الغربة والحنين الدائم للوطن الا انها تجاوزت كل العقبات وتمكنت من تحقيق حضور متميز أينما وجدت في بلدان العالم.

ولأن هذه الشريحة المضيئة تنتمي الى الوطن وتحمل أنفاسه اينما حلت وجدنا من الضرورة بمكان إيلاءها قدراً من

الاهتمام عن طريق اصدار هذا الملف الخاص بتجاربها ومنجزاتها وحضورها الدائم بيننا.. وسنتواصل معها في جميع منابرنا الثقافية والمعرفية.

مفكرون ومبدعون ومثقفون عراقيون احتفظوا بمواقفهم واختاروا حرياتهم فكانت غربتهم.

جذورهم ما زالت راسخة في بلادهم واصواتهم تتفاعل مع شعبهم.

حبا بهم وبوفائهم نقدم الجزء الأول من هذا الملف على أن نتواصل معهم في جزء لاحق من هذا الملف في اعدادنا المقبلة. آملين ان نكون قد قدمنا قدراً طيباً من رد جميلهم والعرفان بعطائهم.

ح . ي

كارلوس أجواساكو
قصائد مترو نيويورك

د. حاتم الصكر*

(1)

أحاول من منتبذي القصيّ التنقيب في خارجي عن (داخل) متمدد على مساحته.

وسيلة متاحة واحدة هي اجترار الذكرى.

إنها بعضٌ مما أسميتُه في تداعيات سابقة (تطمينات الحنين). رسائل يبعثها المكان الجديد الذي سيظل له طعم الوصف الجدير به: الغريب. ذلك الذي قالت عنه معاجم العرب الأولى إنه رديف البعيد والغامض. ومنه يتنزل لفظ الغراب الذي غادر سفينة نوح، وبانَ عنه ولم يعد، كما يؤول الدميري في (حياة الحيوان الكبرى). فكأنه بشؤمه شريكُ الغريب في غربته، وفي قدَر الفراق الذي التصق به. تتغافل الرواية هنا عن المكان القلق الذي بان عنه الغراب: إنها سفينة تمضي إلى غير ما هدف، مثل وطن سنحيي ترنحاته وشرره التي تحرق أيدينا وقلوبنا، سفينة تترنح في عباب طوفان لا يبين له آخر. الساعات الفاصلة هي توقيتات الغربة في سياق المكان. تفرضه على الغريب ولا تشير إليها عقارب ساعة يده، أو ساعات بيته الجدارية التي تواجهه كالمرايا كل صباح، فاضحة حنينه ومعمقة شعوره بالفقد. إنها تجعل التوقيت نصّاً يتحدى صبر الغريب. فتزيد أغلفة غربته وأغلالها. أمكنة تمنع عنك أن ترى الصحو في الداخل الذي ابتعد في الأرض، أو بعدتَ عنه في أرض الآخر.

ثماني ساعات من الاختلاف عن توقيت الأرض الأم.. ومَن عليها، ومَن تحت ثراها.

فاصلة عن توقيتِ مَن لايزال يطالع الساعة وعقاربَها التي تلسع صبره بلدغاتها المتكررة، وتتضاعف العقارب وتكاد تسعى في معصمه وعلى جدران غرفته.

وعن توقيت ذلك الذي تعطّل وقته، وفرغت منه ساعته؛ لأنه ليست به حاجة لها في ظلام أبديته، التي لا يحكمها وقت أو ميعاد.

أكتب الآن عصراً. شمس خريفية مبكرة تنفذ أشعتها من فتحات النافذة او أشرطتها المتدرجة. لكن توقيت بغداد يفلت من التحيين. نام الكثيرون الآن. وحين يستيقظون نكون في نومنا غارقين بوقت لا يأتي إلا في منامٍ عابر، يتساقط من الذاكرة، عندما نستيقظ. دورة زمنية تكر بلا جديد، ولا سبيل للخروج من محيطها.

حتى الأخبار والبرامج معادةٌ عن نصّها النهاري. الهاتف لا ينجدك بصوت أو رسالة أو بريد. وإذ تهرع إليه قبل أن تستكمل مُعدّات

الصباح. تفاجئك دوماً أخبار الفقد التي تترى، والمغطس الذي يهوي إليه الوطن ساعة فساعة.

(2)

(الخارج) وصف مخفّف يستمد تداوليته من الجغرافية. أنت في (داخلٍ) هو موطنك وموطن مواطنك الذي في (خارج) جغرافي عن موطنه. تكفلت الحداثة الرقمية وخوارق علوم الاتصال والتواصل في تضييق الفجوة. لم يعد لنا بريد ورقي يصل بعد زمن .ويُنشر مانكتب على الناس بعد ذلك.فيبدو متأخراً عن زمنه الذي هو عادة زمنٌ محكوم بتوقيتات الموطن.

اليوم صارت المسافة صفراً. والتقنية تتكفل بإيصال الصوت وصداه، والفكرة وتلقيها في غمضة عين.

لكن الخارج الذي يسود في الكتابة وتلقيها وتداوليتها الجماهيرية، هو خارج ذو سمة إيديولوجية. لعله التاريخ الإصطلاحي لأدب الخارج والداخل ومفاهيمه الملتوية. وما مر به من إشكاليةٍ وصراع. تهمٌ وتهم مضادة. وتجويق واعمام بدعوى الولاء للدكتاتورية بسبب الإقامة والعمل في الداخل. وردّ التهمة بمثلها لأدب الخارج بذريعة البُعد عن معاناة الداخل. البعد هنا يتخذ حِجاجاً عقائدياً. بل يتجاوز ذلك إلى جدل وعراك سياسي. عانى منه أدبنا العراقي خاصة. وبعد سقوط النظام الدكتاتوري تبخرت تلك الثنائية المزعجة والمتوهَّمة حتماً.

كتّاب العالم وفنانوه ومثقفوه، مروا بما مر به نظراؤهم العراقيون. وانقطعوا عن داخلهم الذي حملوه في قصائدهم ورواياتهم وأعمالهم الفنية. لكنهم لم يُسلبوا مواطنتهم أو انتمائهم. ولم تسلبْهم المنافي والمغتربات ذلك.

(3)

الإخوة الغرباء بتعبير أمين معلوف في روايته الأخيرة، هم جناح التطمين الآخر. به نتلقى جرعات من الصبر. أنت تراهم بسحناتهم ولغاتهم المتعددة، وبمأكولاتهم وأزيائهم وعاداتهم المتنوعة. كأنهم من عَناهم المتنبي في وصف جيش سيف الدولة المحتشد لفتح قلعة الحدث الرومية..

تجمّعَ فيه كلُّ لسنٍ وأمةٍ
فلا يُفهم الحدّاثَ إلا التَّراجمُ

كثيراً ما وجدتُ في وجودهم تعلةً. تجمَّعوا في فضاء غريب. فصاروا هم الغرباء. تنجذب نفوسهم لبعضهم دون بوح غالباً. ربما هي تعلة متبادلة وتصبير..

لكن الأرض هنا مهْد لهم جميعاً. تجمعهم حيث فرقتهم الأوطان بعناء خاص، أو بهبات جنرالاتها وسياسييها وحكامها وأنظمتهم. أو بفقر ليس إلا حصاد تلك الخسارات التي تفرزها الدكتاتوريات والاحتلالات والأنظمة التي يغيب عنها العدل.

النتاج المكتوب في فضاء الغربة غريب أيضاً. يحمل هموم الداخل الذي لم تنتزع عه الجغرافية أو الزمن من صدورهم. وعناء حاضرهم في فضاء الآخر الخارجي.

هل ترد الوحدة مقترحاً لمداواة الغربة.

للغربة أواصر مع الوحدة. تتنوع الصلة ولكن جذرها واحد.

الوحدة ابتعاد وغوص في بئر من النسيان والغيبوبة التي تئد الوعي والشعور والإدراك.

في بيتين يلاعب الشاعرُ الراحل عبد الأمير جرص الوحدةَ، وكأنه يستبق قدره حين سقط من دراجته في مغتربه الكندي ومات:

الوحدة ضيقة ولو كانت صحراء
الوحدة شاسعة ولو كانت ثقباً في إبرة

وإذ تضيق الوحدة تتسع الرؤية. في أحيان كثيرة أبادرها بما كتبتْ يدي من قديمي أو جديدي الشحيح. هنا لا تتغذى القرائح ولا الأفكار إلا على زاد قليل لا يفي بالنهم للمعرفة في طريق الغربة الطويل. لا تصل مطبوعات عربية ولا تباع إلا في مدن كبيرة وفي أماكن قليلة.

المكتبات العامة الكثيرة في كل حي من المدينة، تصلها الصحف والمطبوعات الجديدة كل يوم. لكن الكتاب العربي فيها غريب اللسان. الغربة مرة أخرى. تتبادل الانخاب مع الوحدة،

وتتداولان الغريب في كؤوسهما المرَّة .
كتبتُ دراساتٍ ومقالات. ونشرتُ كتباً جديدة.
وأعدتُ طباعة أخرى من قديمي.
لكن الصلة هامشية دوماً بالجذر وما يجري في نهر ثقافته من مياه جديدة. وهذا أقسى انعكاسات الغربة في المنتبذ، كما أحب أن أسميه.
لا يشك المغترب أن شمسَه غربت. بكونه ذاك الذي عناه التوحيدي حين صنّفه غريباً في غربته. ووضعه بين قوسين قاهرين فهو (غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان).
سبيله إلى الوطن عسير. أحرق خلفه السفن كما في أدبيات المنافي وتداول المغتربين. وليست له قدرة على الاستيطان في جديد أمكنته البديلة.
فكان نموذجا لعناء سيزيفي جدير بالدراسة.
تحسُّرُه على فقدان السبيل إلى الوطن، يضاهي فشله في القدرة على الاستيطان.
كل ما يتراءى محواً لماضيه محضُ خرافة.
النوستالجيا تسكنه. وتثيره الأسماء والروائح والصور، وحتى صغيرات الأمور التي ربما لم يكن يلتفت إليها في وطنه.
عالم يصغر بمرور الزمن وينسحب إلى هوامش على متن الغربة.
قدرٌ عاصف لقادم مثلي في عمر عصيٍّ على التكيف. تزداد أثقاله وتتضاعف.
قامت تربيته الثقافية وتعلُّمه وقراءاته وكتاباته بلسانه الأم.
ومحيط عمله هناك وما جاور الـ (هناك) على مدى عقود من العيش..
بعض المغتربين اعترفوا بالانشقاق الذي يبدو عسيراً .
منهم إدوارد سعيد الذي قال إنه من هنا و هناك، لكنه ليس فيهما. يفكر بلسانَين ويكتب. وهذا ما تلقّفه محمود درويش، وأثبته عنه، في قصيدة (طباق) المهداة له:
أنا من هناك. انا من هنا
ولست هناك ولست هنا
لس اسمان يلتقيان ويفترقان
ولي لغتان نسيت بأيهما
كنت أحلم
ولخّصها البياتي مخاطباً ولده :
فقراءَ يا قمري نموت
وقطارُنا أبداً يفوت
وتركزت في قصائد سركون بولص، في شذرتين كصرخة:
- حولي أوجُهُ الحمقى
وأصواتُ الطيور الجارحة
كيف وصلتُ، من دلّني إلى هذا المكان؟
- أينها؟ أين أمريكا التي عبرتُ البحر لآتيها، أنا الحالم؟
هل ستبقى أمريكا والت ويتمان حبراً على ورق
أقول لسركون كلمات، لا يسمعها في غيابه، كلما قرأتُ القصيدة.
لم أعبر حالماً، بل حاملاً جراح الوطن التي تركها في صدري. والسبيل موحش إليه. كما هو قاسٍ في المجيء إلى هنا.

(4)

هي ليست ثماني ساعات بل برزخ كبير، لا تسد فجوته الهائلة كلمات ولا تعلات.
القصيدة ترشق الغربة بإيقاعها، لتعلو فوق صوتها الناعق. والغربة ترمي القصيدة بالنسيان، لتظل في لفافة صمتها.
ألجأ إليها بحذر من عنفها. لأن القصيدة أرض أجنبية أيضاً بحسب عبد الفتاح كيليطو في روايته القصيرة (والله إن هذه الحكاية لحكايتي).
استوقفتني العبارة طويلاً. فنحن نأتي القصيدة من خارجها، ونقيم فيها دخلاء هاربين من نثر الحياة.
يضيف كيليطو إن الشعر ذاته غدا مؤلماً. لأنه يتحدث عن المنفى دوما. وين ألم الشعر وغربة القصيدة، تتعلق كالمصلوب: قلوب كثيرة وأسئلة ومصائر.

*** د. حاتم الصكَر/ ناقد واكاديمي .**
يقيم حالياً في ناشفل - تنسي/ امريكا

موضوع الهجرة واللجوء الى الغرب في الرواية

د. عائد خصباك *

ما عاد موضوع الهجرة في الروايات العربية كما كان عليه الأمر سابقا، أيام المهجريين الذين غادروا بلاد الشام الى الأمريكيتين أوائل القرن العشرين، جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهما العديد من الأسماء المعروفة الأخرى، ولا عادت المواضيع تدخل ضمن ما كتبه الدكتور سهيل ادريس من موضوعات، في الجزء الثالث من ثلاثية روايته المعروفة "أصابعنا التي تحترق" عن ذلك الطالب الذي غادر بلده الى باريس، يكمل في جامعاتها دراسته، فالبطل مثقف له أهداف معلنة، ما أن يصل اليها، حتى يعود الى بلده، لكن بعيون وثقافة أخرى، هذه الرواية وغيرها من اللواتي على شاكلتها، لا تسعى الا الى تجسيد النواحي التي يتم فيها الصراع بين "الشرق" بمفاهيمه التقليدية، و"الغرب" الذي أخذ مسيرة العلم المتواصلة، فهي التي تحل له مشاكله، أيا كانت تلك المشاكل، ويمكن أن ندرج رواية الطيب صالح "موسم الهجرة الى الشمال" في هذا المفهوم، فالبطل السوداني ذهب الى الغرب، هدفه تلقي العلم في البلاد التي كانت سابقا تحتل بلده، انتهى به الصراع "بين الشرق والغرب" أن يعود الى بلده مجددا، ونحن نعرف بقية القصة.

خدّ أيضا، يحيى حقي في روايته القصيرة "قنديل ام هاشم" فقد خاضت في هذا المضمون أو قريبا منه، لقد نأى الكاتب بنفسه، في الروايتين، تماما عن معالجة المشاكل السياسية واستعاض بالمشاكل الاجتماعية والفلسفية بديلا عنها. طرحت بعض الروايات العربية سابقا موضوع الهجرة بقوة وصار محورا لها، ولكن أي نوع من الهجرة؟ الهجرة الى البلاد التي يجد فيها عملا، فبغياب تلك الفرص في بلده، شد الرحال الى بلد آخر، لا يعنيه المستوى الثقافي لمواطنيها لأنه لم يأت للتزود بعلوم مدارسها أو جامعاتها، فهو بالأساس ليس له أي تحصيل دراسي، وما يهم الشخصيات في الروايات هذه الا أن تجمع المال وترسله

الى أهله هناك في اليمن، ورواية محمد عبد الولي "يموتون غربـــاء"، الذي هاجر الى "أديس ابابا " المثال المناسب لما ذهبت اليه، وتكاد تكون الروايات اليمنية التي كتبت في زمن مقارب لـ"أصابعنا التي تحترق" تكاد موضوعاتها كلها، تقترب في هذا الموضوع الحيوي الذي يشكل واقع الحال في هذا البلد.

في الســنوات الأخيرة، عندما بـدأت أفواج المهاجرين، تشـق طريقـها الى حـيث تجد الأمن الذي افتقدته في بلدانها.

علينا معرفة أن هذه الهجرة ليست طوعية، بـناء على ما جرى من أحـداث مؤلمة، فلا شك أن الهجرة هذه ستترك آثارا على الكاتب المهاجر، اذن ما الذي أضافته الوقـائع التي مر بـها اليه، لأنه بـطلها، لهذا الموضوع، وماذا اختلف في طريقة سرد الأحداث؟ هل ستبقى أسيرة الأساليب المعتادة في الروايات التي لم تتطرق موضوعاتها الـى مثل هذا، هل ستكون الأساليب كما يجب أن تكون، في الروايات التي كتبـها سابقـا أو قـرأها، أم ستكون الوجه الثاني لمعترك الأحداث التي قابلته قبل أو بعد وصوله؟ عبوره البحر مع غيره من اللاجئيـن فـي زورق ، وتمويـه حـرس الشـواطئ أو الحـدود كلما شـعر بالخطر، رفاقه في معترك الحياة هنا أناس لم يعرفهم من قبـل، لكن بـعضهم يشـد أزر بعض.

لا شـــك، لم يألف الكاتب العربـــي هذا الموضوع سابقا، "اللاجئ" الذي ترك وطنه الأم لأسباب ذكرناها، وعندما أقول "الكاتب العربـي" إنما أقـصد الكتاب الذين واجهوا ظروفا أجبـرتهم على مغادرة بـلدانهم، وهؤلاء غير موجودين في بـعض البـلدان الأخرى، من تلك التي ترفل في نعيم النفط.

لقد ظهرت كتابات تحمل خصائص سردية نوعية، فرضت وجودها تماشـيا مع الوضع

العربي الجديد، سواء بعد ربيعه العربي أو قبله، حاملة معها ليس الاحساس بالاضطهاد والخوف، فهذه الأحاسـيس موجودة أصلا، إنما تحـمل احساسـا آخر هو: أن كل الذي يجري، هو أقـل مما لو أن الأمر اسـتدعاه للبقاء في وطنه ولم يغادر.

الكتابات كتبت بروح جديدة لا صلة لها بما هو موجود في كتابـــات غيره، والوطن بالنسبة له قد أصبح مشهده ضبابيا، إذا ما اقتضى الأمر وتذكر الوطن، وطنه البـعيد، سيكتب عن وطنه بهذه الرؤيا، حتى لو أنه لم يسـتطع أن يندمج أو ينسـجم مع أعراف المجتمع الذي استضافه، وقد نقرأ في بـعض الروايات مشاعرا للحنين الى وطن اقتلع منه بحكم الأحداث، لكن هي مشاعر لا تلبث أن تتضاءل مع تتالي الأحـداث في بـلد الاستضافة.

وبحـكم وجودي بـعيدا عن الوطن الأم منذ أكثر من ربـع قرن، أسـتطيع أن أحـدد وأنا أنظر حـولي، الى أن هناك اختلافا جوهريا في مفهوم الهجرة عند من كتبـوا موضوعاتهم عنها، والكاتب نفسـه في موضوعه هذا، ليس بـالضرورة أن يكون متشابـها مع غيره، لأن الأحـداث التي مر

بها، قبل أو بعد أن يصل الى بلد الاستضافة، متشابـــــهة، لكن هناك مفردات خاصة من الأحـداث ولنقـل الهوامش، وهذه قـد تأخذ مكان المتن.

هناك من اندمج مع المجتمع المضيف، لأنـه هو من قـــــدم اليه عن طواعية، مفهومهم للهجرة مختلف عن الكاتب الذي يـرى أن مـا يحـصل هو مرحـلة محـددة تزول بـزوال أسباب الهجرة، لكن يبقـى الفرق قـائما بـينها وبـين الكتابـات السابقـة، هذا ما رأيناه في "أصابـعنا التي تحـترق" لسـهيل ادريس والطيب صالح في "موســـــم الهجرة الى الشمال"، وغيرها ورواية محمد عبد الولي "يموتون غرباء.

تبني روايات "الهجرة واللجوء" نفسها على ما يميزها من الأحداث التي تسـردها، وقـد يجنح البعض من كتابـها الى الغرائبية، لأن الأحـــداث التي مرت بـــه، مما لا يمكن أن يتخيله المرء، غرائبية في الحقيقـة، وليست غرائبية على صعيد الكتابـة، لا يعني كتاب هذا النوع من الرواية الوقـــــــوف على الأحداث تلك، أو على على ما هو جديد عليه في البلد الذي استضافه، والتي لم ير أو يمر بـمثلها في وطنه قبـل مغادرته، من اختلاف العادات والتقـاليد، فهنا هي غير ما هي عليه هناك. وللعلم هذه لا تتحـــــدث عن وضعه النفســـــي ما يهزه من الأعماق،أو يزلزل كيانه، فالمشكلة الأساسـية ليسـت في ذلك. قد يشعر الكاتب بالغربة والاقتلاع من وطنه الأم، وهذا لا يأتي الا عند بـعض شـخصياته غير الفاعلة، تلك التي تجذبها مفردات حياته الخاصة التي كانت له هناك، تتعلق بـــتذكر حـياته السابقـة بـين أركان بـيته أو أفرادا من عائلته أو رفاقه أو ح بيبـته، أو أشـياء من هذا القبـيل، لكن هذه تتلاشـى مع مرور الوقـت . في بـــعض الروايات لم تكن فكرة الاندهاش والانبهار بحضارة البلد المضيف موجودة، لمـاذا؟ لأن هنـاك مـا هـو أهـم ، موضـوع الطريقـة والكيفية التي وصل بـها الى بـلد اللجـوء، يتنـاول أولا مـن هاجـر مضطـرا، يطلب ملاذا يحـتمي فيه من القـهر الجسـدي والاجتماعي، والسياســي، ومن الاضطهاد النفسـي. وهذا يعني أن هؤلاء هاجروا، وهم يؤمنون أن لا مستقبل لأوطانهم، قسم منهم : وجدوا ما كانوا يصبـــــون إليه من العيش الكريم، والعمل، والحق في حـرية التعبـير والتصرف.

***

في الجانب الآخر، وبالنسبـــــــة لي، كما عرضته أحداث روايتي "المقهى الإسبـاني" الصادرة في القـــاهرة (عن دور الثقـــافة الجماهيرية، سلسلة آفاق عربـية) الأمر بـدا مختلفا، فالطالب اللبـــناني الذي وصل الى بـاريس لتلقـي العلم هناك، والاغتراف من معارفها، بـــــاللغة الأصلية، كما في رواية سهيل ادريس" أصابـعنا التي تحـترق"، عاد فيما بـعد الى بـيروت بـعد أن أنهى مهمته، ليشارك في الحياة الثقـافية وغيرها ويتفاعل معها، كذلك الأمر نفسـه في رواية " موسـم الهجرة الى الشـــمال "رواية الطيب صالح، وقبـــل هاتين الروايتين، رواية "قـــنديل أم هاشم" ليحيى حقي.

المهاجرون الجدد لم يصلوا الى الغرب بحثا عن العمل، كما هو الأمر عند محـمد عبـد الولي في "يموتون غربـــاء"، بـــل هاجر ليحمي أفكاره ومبادئه من اضطهاد السلطة، أو هربـــا من الضيق والعوز المادي، فلم يعد هناك ما يسد بـه رمقـه ويبـعد شبـح الجوع أفراد عائلته، أو هاجر، تهربـــا من التجنيد الاجباري و اداء خدمة العلم.

كانت حـــال الطالب اللبـــناني الذي وصل

مدينة هامبورغ الألمانية في روايتي "المقهى الاسباني"، كانت طبيعية جدا، مثل أي شخص سوي، بدأ بدراسة اللغة قبل أن يباشر دراسته في العلوم، وبعد الانتهاء من ذلك، اختار الدراسة في مدينة "آخن" وفي دار سكن الطلاب تعرف الى مجموعة من الطلاب العرب، انتهى معهم الى الذهاب الى احد دور العبادة هناك، فتم تجنيده مع تتالي زياراته، واقتنع أن ينفذ عملا ارهابيا، لكن الحقيبة التي اصطحبها معه الى محطة قطار مدينة "كولونيا" اكتشفتها كاميرات الرصد، فالبطل لا يعرف مفعول المتفجرات التي كانت فيها، واستطاع هو أن يفلت أو يتخفّى، ليعود في النهاية خفيه الى بيروت، طبعا هذه حادثة حقيقية وأنا نقلتها بطريقة منهجي في الكتابة الروائية التي تستفيد غالبا من الوقائع الحقيقية، وتسير بها فنيا، فتعلو على الواقع الحقيقي، مما يكفل لها الاستمرار على الصعيد الفني، ومن دون هذا سيكون ذلك الحدث أو غيره مجرد وقائع أو أخبار يتداولها الناس فيما بينهم.
ولحدث مثل هذا، جانبان ينبغي توضيحهما،

الأول:
أن هذا الطالب انتهج خطا آخر، غير ما كان عليه الطالب في "أصابعنا التي تحترق" الذي اتمّ دراسته على أكمل وجه، وكان معارفه في باريس كلهم من المثقفين ودارسي الأدب، وبعضهم ممن كانوا يكتبون وينشرون.

والثاني:
أن الطالب عاد الى بلده بعد أن أنهى دراسته.
لكن في روايتي "المقهى الاسباني" ذلك الطالب عاد الى بلده، ولكن هاربا من العدالة، وقد ضبطته قوى الأمن .

ان تلك الحقيبة التي كان يريد أن يفجر ما احتوت عليه من متفجرات في محطة قطارات المدينة الرئيسية، المزدحمة بالمسافرين، جعلته يدرك تماما، أن الزمن لعب دوره هنا، ففي ستينات القرن الماضي، زمن "أصابعنا التي تحترق" هو غير زمننا الحالي، الان وقبل الان، كان زمن ابن لادن والزرقاوي وداعش، وزمن الأمريكان الذين لعبوا دورا في تغذية الارهاب وإعلاء شأنه، وغزو البلدان، هذا هو الذي جعل من طالب متفتح على الحياة، رسم لمستقبله أجمل الأمنيات، أحب الناس والفتيات في مثل عمره، فيتحول بقدرة قادر الى ارهابي يريد أن يقتل الناس جميعا سواء كانوا معه في فكره ودينه، أو يخالفونه في معتقده ومذهبه، ويقتل النساء، سواء من هي بمثل عمره أو بمثل عمر أمه أو جدته. المبدأ هو القتل .بطبيعة الحال، لكل حدث في الحياة شرطه الفكري والتاريخي والاجتماعي والسياسي، وهذه بمجموعها تحدد ما على الأدب أن يتخذ الصورة التي تظهر عليها.
وفيما يتعلق الأمر بأدب الهجرة واللجوء، كان شيئا مختلفا قبل الحركات الارهابية وأصبح شيئا آخر بعدها.

معلومة:
لم ألجأ في "المقهى الاسباني" الى الكتابة بضمير المتكلم، فالكتابة بهذا الضمير، تجعل الأحداث تنتمي إلى الكتابة الوثيقة، وأنا ككاتب للرواية، رأيت أن تكون روحها مختلفة.
ومع أن حدث هذه الرواية واقعي جدا، أرى أنه جدير بالتأمل.

***كاتب عراقي يقيم في كولن - المانيا**

المغتربون العراقيون في الاتحاد الأوربي ولندن معاناة مع الغربة

د. عبد القادر الدليمي *

حينما يغادر الإنسان مكانه الأصلي في بلده ويسكن في بلاد المهجر يصبح كل شيءٍ غريبا عليه المكان وما أدراك والمكان خاصية ما بعدها خاصية حيث يترك بيته الذي تربى فيه ولغته وحنان والديه والشارع أو (الدربوية) التي تربى فيها مع أصدقائه في الشارع أو المدرسة، هنا لا يعرفه أحد.. أين يتوجه؟

سؤال محير جدًا، أما نحن الذين جئنا الى المانيا لغرض الدراسة فالأمر مختلف تماما، كل شيءٍ كان مهيئا: السكن ومعهد دراسة اللغة الالمانية والتعرف على المدينة وشوارعها وطرق المواصلات وأزقتها حتى دخولنا الجامعة والتخرج فيها، نعم واجهنا من المشاكل منها التقاليد والعادات والأكل، المحبة، محبة الأهل والاصدقاء والجيران بعدها عدنا الى بلادنا الحبيبة، ولكن وهنا تكمن العبرات بمعنى حينما تكون غريبًا في بلادك.. اختلف كل شيءٍ بين الدراسة والعمل التطبيقي في المانيا والعراق، حيث تجد أناسا لا يصلحون لشغر أماكنهم بل لا يفهمون الدور المناط بهم وما يجب أن يقوموا به، وفي هذا المجال حدثنا الأستاذ باسل المعروف وهو مهندس بناء سفن بحري ميكانيك آليات ثقيلة ويعيش في العاصمة البريطانية لندن، يقول:

أخي العزيز، لا اريد ان تكون اجاباتي على اسئلتك مخيبة للآمال، الغربة بعيدا عن الوطن أفضل بكثير من الغربة في الوطن. انا عشت بعيدا عن الوطن خمسين سنة مضت، وأنا قاربت السبعين من عمري، مرة واحدة ذهبت الى العراق قبل 22 سنة.

احسست انني غريب في وطني أكثر من احساسي وانا اعيش في بريطانيا، الذي تعرفه والذي لا تعرفه يبادرك بالابتسامة والتحية. تتعامل بكل احترام وتحترم في جميع مجالات الحياة. في العراق الوجوه معبسة غاضبة، تنظر اليك وكأنك متهم بالسوء قبل ان تثبت بأنك صافي النية ولا تبحث عن مشكلة. ومع هذا تبقى في دائرة الشك. الكرامة معدومة تقريبا، فضلاً عن الطمع والجشع واكل المال الحرام. تغير حال العراقيين من السيئ الى الأسوأ مع كل الأسف. انا الان انظر الى الوطن الذي اعيش به هو الوطن. لان وطني الام في نظري هو الغربة وامتهان الكرامة.

ارجو ان تغفر لي صراحتي.

أما المثقف العراقي في هذه الغربة فأنه يعيش بترف ويحترمه الجميع ويتنافس على اعلى المناصب سواء في الدولة او الشركات. خذ مثلا من وزير الاقتصاد البريطاني العراقي والذي رشح نفسه لرئاسة الوزراء في بريطانيا ومع الاسف لم يفز في الانتخابات الحالية.

هذا غير مدراء المستشفيات ورؤساء الشركات الكبرى من المهندسين العراقيين. خذ مثلا المرحومة زها حديد التي نصب لها تمثال، تكريما لابداعاتها في مجال الهندسة هذا غير الاساتذة في الجامعات البريطانية واغلبهم من ذوي الاختصاصات التكنولوجية من أصل عراقي. المثقف العراقي او العربي بشكل عام يتنافس مع اقرانه الانكليز او الهنود او الباكستانيين او الكوريين او الصينيين وحتى الاوربيين الذين يعيشون هنا منافسة حرة وشريفة للحصول على اعلى المناصب--وانت تعيش في المانيا لا تقل عن بريطانيا في هذا المجال--ولكن ان عدت الى العراق فستجد الغرائب والعجائب إزاء المثقف العراقي وكيف يعيش وسط مجتمع يقتل الطبيب او يخطف المهندس او يغتصب المعلمة او يطعن بشرف المثقفين والمثقفات لشتى الأسباب، هذا هو الوطن. ارجو ان تسامحني على طول اجابتي لان قلبي محروق على وطني. وحدثنا الأخ د. نزار محمود وهو اقتصادي كبير وكاتب ومدير للمعهد العربي الألماني ويعيش في المانيا منذ أكثر من ستين عاما، يقول:

- ماذا تعني الغربة؟

للغربة، في تقديري، اكثر من معنى: فهي من ناحية التغرب عن الأهل بكل ما يعنيه الأهل من حميمية وصلة قربى وثقافة واجتماعيات. وهو من ناحية الوطن ابتعاد مكاني وروحي وثقافي عن الهوية الوطنية الجمعية بكل ما تحمله من معاني التاريخ والذكريات وأنماط الحياة اليومية ومستقبل حياة الأبناء. أما ما نسمعه عن الغربة داخل ذات الوطن أو أحياناً حتى داخل الاسرة الاجتماعية فهو ضرب من تقاطع الرؤى في النظرة للحياة، وفي أحلام يصعب تحققها في ذلك الوطن.

وفي هذا الاطار نقف على نوعين من الغربة:

- الغربة الطوعية التي يقررها صاحبها لأسباب شخصية بحتة، قد تكون مؤقتة أو دائمية.

- الغربة القسرية التي تفرضها ظروف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية قاسية.

غربة المثقف:

المثقف بمفهوم الكائن الابداعي بغض

النظر عن تخصصه، أدبـــاً أو علماً أو فناً، فانه، من ناحية، يقـرر الاغتراب عندما لا يجد في وطنه ما يسمح له بتحقيق ابداعه أو تقبله ودعمه وتقديره.

ومن ناحية أخرى، قد يجد المثقـف نفســه مضطراً أو مكرهاً على ترك وطنه من قبل سلطات وطنه.

بيد ان المثقف وهو يعيش الغربـة قد يعيش ما هو أسوأ منها عندما يتوقـف ابـداعه أو "غربـة" ابـداعه ذاته في بـيئة المهجر، لا سيما عندما كان نتاج ذلك المثقف وابداعه يدور حـــول خصوصيات وهموم شعبـــه ووطنه.

وفي المقابـل قـد يجد بـعض المثقـفين في الغربة ما يفتح لهم الأبواب لابداع وتحقيق النجاحات. وترتبط هذه المسـألة بـالعمر الثقافي للمغترب، أي متى يبدأ حياة الغربة، وفي أي عمر؟ أين كان المثقـف قـــد تعلم ودرس؟ وما هي طبيعة ثقافته والمستهدفين منها؟

ان هناك نسبة ليست بالقليلة ممن يعيشون الغربـة المكانية، لكنها تبقـى تحـمل هموم وطنها وتستمر في توظيف ثقافتها وابداعها مستهدفة ابناء وطنها.

بـعدها حدثنا الأخ د. حمودي جاسم، وهو أستاذ جامعي سابـق ومخرج سـينمائي وتلفزيوني ويعيش في اسبانيا، قال:

الغربـــة من وجهة نظري اول ما تعنيه هو الالم والمشقـة. الالم هو البـــعد عن الوطن والاصدقاء والاهل والاحبة، والابتعاد عن كل تفاصيل حـياتنا اليومية وعن حـــياتنا المعتادة ولعل في هذا ما يطول الكلام عنـه.

ولاننـا فرض علينـا التغرب فـان هاجـس النجاح كان هو المســـعى لتعزيز امكانية العيش في وســط مختلف ينبـــغي التوافق معه. ولان هويتنا الضائعة بسبـب الغربـة كان لزامـا علـى المتغرب ان يعوض عن هذا الفقـدان باكتشـــاف الذات اولا واعادة احـياء صورة الوطن بـما في ذلك عقـائده وانماط الحياة فيه.. وبهذا فان الغربة جعلتنا نعيش براسـين ونفكر بـفكرتين ونتعاطف بقلبين. كيان ينظر الى الوطن وما يجري له واعادة اكتشـافه من جديد في حـين ان ثمة كيان اخر يعيش بـــجواره ينظر الى ما هو يومي لتأمين قوته المعيشـي والتعرف الى كل ما فـي جـواره، مـن تعلـم اللغـة وهضـم العادات والبحـــــث عن فرصة النجاح والتميز في وســـط لم يكن يرغب في فتح الباب امامك كاملا.

المشـاكل التي يواجهها المثقـف العراقـي الذي يعيش باسبانيا قد تتركز بنقطة اساسية واحدة وهي ان الثقـافة وانتاجها قـد يكون بـــمعزل عن مصدر الدخل المعيشـــي للشخص.

ولذا يلجأ اغلب المشـــتغلين بالثقـــافة الى العمل باشـغال مجاورة لتخصصهم لذا تجد اغلبـهم منخرطين بـــالتدريس الجامعي او بـعض المدارس العربـــية الموجودة هناك وهي قـــليلة. لكن دعني اشـــير الى المزايا التي يكسبها المثقـف العربـي عموما حـينما تكون اسبانيا مستقرا له فان اول ما سيغمره هو ذلك الكم الكبير من الحضارة الاندلسية التي قادها العرب والمسلمون بهذه الارض وجعلوا منها مكانا مشـــــــرفا ومميزا بالحـضارة والرقـي. وهذا ينعكس بـالفخر على المثقف العربي الذي جاء منكسرا من بـلده بسبـب ظروف عالمنا العربـي الذي يعاني من نكوص وانحطاط.

وسيشكل هذا الالهام محط تثوير داخل ذات كل مثقف لبـذل النشـاط والعمل على التميز

والانجاز والنجاح.
وفي محادثة مع د. باسم الشكرجي الذي درس الذرة في المانيا بعدها تخصص بأمور أخرى وهو يعيش أيضا في المانيا منذ أكثر من ستين عاما قال:
لم نكن نعلم ولا حتى في الحلم ان قدومنا الى المانيا لغرض الدراسة يطول الى اكثر من أربعين عاما كان هدفنا هو الحصول على الشهادة العليا والرجوع الى البلد باسرع وقت حتى يرفع والداك رأسيهما بالتباهي بابنهما الذي سيرجع الى الوطن لخدمته، ورد الدين الى من اقتطع من لقمته حتى نستطيع أن ندرس ونحصل على أعلى درجات العلم والمعرفة، ولكن ظروف البلد والحروب والحصار الجائر الذي فرض على البلد ادى الى خلط الأوراق وضياع الجهود ووجدنا أنفسنا ننسلخ تدريجيا من احلامنا، ونبقى صرعى التحديات ونبقى في البلد الذي درسنا فيه ونحن نعد الايام بأمل للعودة وتمضي الايام لتجد نفسك في سن التقاعد وعلى الرغم من مرور اربعة عقود على وجودي في بلد المهجر، اشعر يوما من الايام اني جزء من الثقافة الألمانية، لأن هناك بونا شاسعا بين ما تربينا عليه من قيم وأخلاق وما هو موجود في الثقافة الغربية، وبمرور الوقت اصبحت أكثر تشبثا بحضارتنا واخلاقنا وعاداتنا فانا افتقد الكثير من حب الآخرين والبساطة في التعبير عن الاحاسيس والبساطة في الانفتاح على الآخرين، فأجد نفسي غريبا عن كل شيء: غريبا في التفكير غريب في عادات الاكل ونوعيته، غريبا في فهم الاديان ونظرة الغرب للدين، غريبا في قبول الكثير من العادات والتقاليد وهذا يولد لي معاناة كبيرة في التعامل مع الآخرين خصوصا، فاسكت واغض الطرف عن إبداء الرأي وانتقاد حركة المجتمع بسبب ردود الافعال التى تصفنا دائما بالتصلب والتشبث بعادات قديمة عربية ودينية لا يوجد لها مكان في عالم متطور تكنولوجي. وما يحز في النفس انك مهما تطول مدة بقائك ينظر لك الآخرون بنظرة دونية وبسموك الأجنبي ويتعاملون معك كأنك وصلت البارحة، ولكن الظروف تضطرك لان تقبل هذه المعاملة الخشنة حتى لو صدرت من اقرب الناس اليك.
اما بالنسبة الى وضع المثقف رغم وجوده في جو انفتاح وتوفر كل مصادر البحث ومصادر البحث الإلكتروني بكل انواعه، فما زالت تبعات وجوده في الغربة تنعكس بظلالها على التواصل مع البلد الام الى عملية التعبير عن الأفكار باستعمال اللغة الالمانية التي من الصعوبة بمكان ان تكون الكلمات المستعملة تعطي المعاني العربية نفسها، مما يصعّب عملية التبادل الثقافي بين اللغتين.
ان غياب الفرص للمثقفين العراقيين للحصول على موطئ قدم في سوق العمل ادى الى اضطرار النخبة للقبول بفرص عمل اقل بكثير من مؤهلاتهم ما ادى إلى ضياع بنيتهم العلمية. ان انفتاح الألمان على الثقافات الاخرى لا يعني فتح الأبواب على مصراعيها بل تتطلب من المثقف ان يثبت الجدارة والكفاءة العلمية والمقدرة على استيعاب احدث التقنيات في بلد يعد من اكثر البلدان تطورا في العالم.

*** كاتب عراقي يقيم في ألمانيا - برلين**

العالم لا يوزع الحلوى مجاناً

ستار كاووش *

قبل ثلاثين سنة تقريباً، تركتُ حدود بلدي وخرجتُ نحو بلاد الله الواسعة، محاولاً تحقيق طموحاتي وأحلامي الفنية، باحثاً عن أشياء لم أشاهدها من قبل، مفتشاً عن تفاصيل لم أكن قد عرفتها بعد، مجرباً وضع يدي على ملامح أشياء كنت قد قرأت عنها في الكتب لكني لم أتحسسها فعلياً بأصابعي.

وبعد كل هذه السنوات، ها أنا أتساءل مع نفسي عن الأشياء التي تعلمتها في (الغربة)، عن المهارات التي اكتسبتها؟ هل أضيفت لحياتي تفاصيل ذات قيمة؟ وهل فقدتُ شيئاً مقابل ذلك؟

كل شيء في هذه الحياة مهما كان إيجابياً، توجد فيه جوانب سلبيه أو أقل إيجابية، والعكس صحيح أيضاً، لذا تبقى الغربة سلاح ذو حدين. وحين تريد النجاح في بلد الزهور (هولندا) فلا تتوقع أن يكون طريقك معبداً بالزهور دائماً، وعليك المرور بالكثير من الصعوبات والتفاصيل والتجارب والخبرات.

فأنت هنا بعيد عن بلدك ومكانك الذي نشأت فيه وتعلمت وحفرت كل ذكرياتك. لكن من جانب آخر، فالغربة تجعل فرديتك عالية، وتختبرك في إيجاد الكثير من الحلول الشخصية، حلول لحياتك ولإبداعك وما تود الوصول اليه. وفي كل الأحوال، عليك هنا -لتصل الى النجاح الذي تريده- أن لا تكف عن المحاولات، ولا تتوقف عن البحث والمطاولة، والأهم هو أن لا تنتظر أن تحصل على الأشياء كهدايا مجانية، فالعالم لا يوزع الحلوى، ولا يُطيّبَ خاطرك بعد كل لحظة سقوط، بل عليك دفع الثمن بطريقة ما.

لكن هذا لا يعني عدم حاجتك لمن يرشدك الى الطريق حتى ولو بكلمة عابرة، أن يقف الحظ معك في حالات معينة كي تمضي بيسر مع خطواتك الأولى. لكن أساس نجاحك هو أن تعمل وتجتهد، وتضع في

مقدمة أولوياتك تعلُّمَ لغة البلد الذي تعيش فيه والتعرف على ثقافته وتقاليده، أن تطرح نفسك كمنافس وتثق بإمكانيتك في التفوق على أبناء البلد ذاتهم. والموهبة وحدها لا تكفي طبعاً للوصول الى النجاح، لأن كل قرية في هذا العالم مليئة بالمواهب، لذا عليك أن توظف موهبتك بشكل صحيح ومناسب، والعمل المضني يعطي ثماره في النهاية. أتذكرُ في بداية مجيئي الى هولندا كيف كنتُ أجمع النقود القليلة التي معي وأشتري الأعداد القديمة من مجلة أتيليه الشهيرة لأنها أرخص بكثير من الأعداد الجديدة، والآن أنا أكتب عموداً ثابتاً في ذات المجلة.

عموماً أشعر بنوع من الغبطة حين يشتري الفنانون الهولنديون المجلة لقراءة ما أكتب.

من ناحية أخرى حاولتُ هنا أن أدرب ذائقتي وأطوع مهاراتي على رسم أي شيء يصادفني، ففي النهاية، كل شيء صالحاً للرسم، مثلما ان كل السطوح صالحة للرسم عليها. تعلمتُ النظر الى الأشياء الصغيرة وتحويلها الى لوحات، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلني أمضي بسهولة ولا أتوقف عن العمل، سواء غاب أو حضرَ الموضوع المثالي للرسم.

أنظر حولي بمتعة وأنسجم مع الأشياء والتفاصيل وكأني أشاهدها لأول مرة. الرسم في جوانب كثيرة منه يشبه أي عمل آخر يقوم به الانسان، يحتاج الى توظيف نوع من المهارات، لكن الإختلاف هو إنك مع الرسم تملك الخيال، وهذا هو الذي يجعلك تحوّلَ الحجارة الى ذهب، تجعل الوردة بستان من الزهور، تصنع من الريشة عصفوراً. الخيال يعني أن تفتح النافذة أو ترسمها فالأمر سواء.

في هولند (هذا البلد الصغير) يوجد أكثر من ثمانمائة متحف، لذا توجد خيارات كثيرة وتنوع لا حصر له، حيث يمكنني التجول في المتاحف ثم أعود الى المرسم لأمضي مع عالمي وأنا مُحمل بطاقة رائعة، هكذا إزدادت خبرتي هنا كفنان في معرفة الطريق الذي سأمضي فيه، وبذلك تعددت الفرص التي مُنحت لي وفُتحت لي منافذ كثيرة.

في هولندا عرفتُ المعنى الحقيقي للطبيعة التي تحيطني من كل جانب، هنا تحسستُ المعنى الكامن خلفَ الطبيعة، واستطعت الإنغمار باللون الأخضر للمزارع والحقول والغابات، واللون الأزرق للماء الذي يغطي مساحات واسعة، هنا عَرَفتْ عيني الضوء الباهر للفضاء المفتوح. وهكذا جمعتُ كل ذلك وعكسته بطريقة خاصة على قماشات الرسم .

هنا شعرتُ بأهمية أن يتفرغ الفنان لإبداعه ويمنح كل وقته وطاقته لإنتاج اللوحات

وصناعة الأشكال التي يحبها. لذا تغمرني السعادة وأنا أتوجه صباح كل يوم الى المرسم، لأعيش يومي وسط الألوان وأدوات الرسم، فهذا الهدف لا يمكن التخلي عنه أبدا، وأقصد الذهاب الى المرسم للبدء بلوحة جديدة، فأنا لا أستطيع أن أطور تقنياتي سوى بالعمل اليومي الدؤوب.

وفي المرسم عادة ما أبدأ بتخطيط صغير يكون أساساً للوحتي، لكني أثناء الرسم أذهب بعيداً ولم يبق من التخطيط الأول تفاصيل كثيرة. والأمر يشبه عازفي الجاز الذين تعودوا على عزف الموسيقى دون نوتة موسيقية، بل يبتكرون النغمات وقت العزف ويتماهون مع تدرجات صوت آلاتهم الموسيقية بشكل مرتجل، لتخرج معزوفاتهم تشبههم تماماً لأنها جزء من أرواحهم.

هكذا أبدأ ببقعة لون في هذا الجانب من اللوحة، ثم أضع بضع خطوط في جانبها الآخر، أضيء هذه الزاوية وأعتم تلك المساحة، أغيّرُ هنا وأمحو هناك.

وبعدَ الكثير من التعديلات وسط هذه المغامرة، تأتي النتائج، التي تكون في البداية غالباً ليست جيدة بما فيه الكفاية، لذا أعاود العمل من جديد بحثاً عن الحلول والمعالجات المناسبة.

كفنان واجبك أن تكافح لتجد لك منطقة تقف عليها، تجتهد كي تفتح نافذة خاصة بك، تتعب كي تجد من يحب أعمالك ويشير إليها في بلد فيه عشرات الآلاف من الفنانين. تحاول هنا وهناك لتعكس صورة جيدة عن نفسك وعن بلدك الذي جئتَ منه.

في المعارض الهولندية عادة ما يتحدث الفنان للجمهور قبيل الافتتاح بدقائق عن أعماله وتقنياته وبعض التفاصيل المتعلقة بعمله، ثم يتحرك الجمهور ليَطّلِعَ على لوحات المعرض.

وقد حاولتُ في كل المعارض التي أقمتها، أن أتحدث عن العراق وبغداد والمكان الذي جئت منه. وأحياناً لا أكتفي بذلك، بل تكون عناوين بعض لوحاتي فيها شيئاً من العراق الذي أحبه، حتى إنّ واحداً من معارضي الأخيرة - والذي أقمته في غاليري لافاي- كان عنوانه (بغداد في الشمال) والذي تزامن مع صدور كتاب عن أعمالي باللغة الهولندية عنوانه (نساء التركواز) باللغة الهولندية.

عن أعمالي، في هذا المعرض إستحضرت بغداد لشمال العالم حيث هولندا التي أعيش فيها، وذلك ما دعاني أن أقول لأحد الصحفيين الهولنديين (بأني أشبهُ شجرة، جذورها ثابتة في بغداد وأوراقها تزهر في هولندا).

*** فنان عراقي يقيم في هولندا**

الظلال الحزينة

فوز حمزة *

قال لي بائع التذاكر:
- أتذكر أني رأيتك البارحة هنا، أليس كذلك؟
- نعم. لقد وصلت المحطة متأخرًا، فاضطررت لتأجيل الرحلة لهذا اليوم... قاطعني مندهشًا!
- ألم تسمع نشرة الأخبار، ألم تقرأ الصحف؟!
نفيت بهزة من رأسي، لكنه لم يمهلني طويلاً، إذ قال وكأنه يسرد فيلما شاهده في السينما:
- ليلة البارحة، وبعد ساعة من موعد الانطلاق تعرض القطار لحادثة كبيرة أودت بحياة عدد كبير من الركاب بمن فيهم السائق ومساعده وآخرون جرحى بين الموت والحياة.
وأنا ما أزال تحت تأثير الصدمة أضاف:
- لقد توقفتْ جميع الرحلات لإشعار آخر وهو يهم في القيام من مقعده وغلق الشباك قال:
- أنت محظوظ، أنصحك بذبح عجل كبير تقربا إلى الله لنجاتك من الحادث!
وأنا في الباص شدني منظر السماء والشوارع والبنايات وظلالها المائلة كأني أراها لأول مرة.
شعرت بحنين جارف إلى أهلي والبيت الذي يضمنا والشوق الأكبر كان لغرفتي المشمسة ونافذتها المطلة على مزرعتنا الكبيرة. أخذتني القشعريرة ولا أدري لماذا وأنا أتذكر حصاني الرمادي وكلبي الأسود وخرافنا الكثيرة.
تذكرت شاي العصر قرب النهر وأنا متكئ على جذع شجرة الكالبتوز العجوز.. أسندت رأسي على زجاج نافذة الباص وأغمضت عيني ببطء، فبدأت المشاهد تضمحل رويدا رويدا وتذوب.
استقبلني أهلي غير مصدقين أعينهم. لقد ظنوا حينما سمعوا بالحادثة أنني من ضمن الأموات أو الجرحى. قالت لي أمي وهي تقدم لي الشاي والحلوى التي أحبها بينما عينيها مغرورقتين بالدموع:
- لولا أن زوجة الجزار كانت من الذين ماتوا في الحادث، لعملت لك احتفالا كبيرًا

لسلامتك وختمت حديثها:
- دعواتي لك هي التي جعلتك تتأخر عن موعد القطار!
كنت على وشك أن أسألها عن الذين ماتوا في الحادث، ماذا عن دعوات أمهاتهم؟! لكني سكتُّ كي لا يزعجها سؤالي ولأنها أيضًا انشغلت مع والدي الذي أجزم بما لا يقبل الشك أنها إشارة من الله كي لا أسهو أو انقطع عن الصلاة ثانية.
وددت أن أسأله: هل الموت عقوبة عادلة لمن ينقطع عن الصلاة؟! سماع أصوات ولغط كثير جعل والدي يقفز من مكانه ويتجه صوب باب الدار.. إنهم أقرباؤنا وبعض الجيران، جاؤوا مهنئين على سلامتي، كل أحاديثهم كانت تدور على أنني شخص مبارك وذو كرامات وما نجاتي من حادثة القطار إلا دليل واضح على ذلك.
نظرت بتأنٍ إلى كل ما يحيطني، شعرت كأن رأسا ثانية قد استبدلت برأسي. بدأت الأفكار تهاجمني دون رحمة، تحاول زعزعة إيماني بأشياء كانت من قبل راسخة وثابتة، قلت لنفسي بصمت: ربما هذا ما يجب فعله، عليّ إفراغ ما في رأسي من أفكار لاستقبال أخرى.
وأنا ما أزال أعاني الإرباك، دخل جاري الذي يعمل صحفيا، سحبني من كوعي قائلاً:
كنْ مستعدًا يوم الغد لأجري معك مقابلة صحفية؟
سألته:
- لماذا؟
أجاب بصوت فيه الكثير من الدهشة والاستغراب :
- لماذا؟! لأنك الناجي الوحيد، ما حدث معك يشبه ما نشاهده في الأفلام! قاطعته:
- لكني لم أركب القطار، لقد تأخرت فقط!
- قال غامزا بعينيه:
- لا تقلق، ليست مشكلة، سأرتب لك قصة مشوقة، هذه لعبتي...
قاطعته مرة أخرى:
- كم عدد ضحايا القطار؟
صمت قليلًا ونظرات عينيه تدور في الفراغ تبحث عن إجابة.. قال بعد أن مط شفتيه وبانت تجاعيد جبينه:
- لا أعلم بالضبط، لكنهم تجاوزوا الأربعمائة راكب.. هذا ما سمعته. لو كنت مكانك لصليت لله كل يوم ألف ركعة.
هل حقا يحتاج الله إلى إنهاء حياة أربعمائة إنسان ليستجدي مني ألف ركعة. هناك إشارات أقل دموية بإمكانه إرسالها.
أردت إخبارهم أن ما حدث لا علاقة له بعناية السماء، بل بهمال أهل الأرض واستهتارهم بأرواح البشر، لكن صوتي كان ضعيفًا أمام ضجيجهم تلك اللحظة.
طلبت من أختي عند حلول المساء نقل فراشي إلى سطح الدار، كنت بحاجة لفضاء أوسع من أجل الأفكار التي تزاحمت في رأسي تحاول الفرار من سجنها .. بعد دقائق انشغلت عن كل شيء بالنظر إلى النجوم التي ملأت السماء والقمر المكتمل الذي سرعان ما حملني لعالم النوم.
في الحلم وجدتني محاطًا بألواح خشبية تتكئ على بعضها البعض وثمة ظلال حزينة، لكنها حقيقية، لاحت لي من ثقوب صغيرة في تلك الألواح بينما صوت أمي وهي تولول جاءني متسللًا منها وهي تتساءل: يا ولدي لو ركبت القطار بدل الباص لكنت الآن حيّا بيننا !

*** كاتبة عراقية تقيم في بلغاريا.**

تاريخان للشعر العراقيّ
وثيقة عن قصيدة النثر عام 1975-1976

د. شاكر لعيبي *

السجال في الثقافة العراقية، عن الشعر، مصاب بمعضلة الانقطاع والقطيعة، وأحيانا بالجهل للأسف، وغالبا بإشكالية انغلاق بعض مثقفي البلاد على نفسه لمدة تقارب الثلاثين عاما بحيث ظل يحاور نفسه، وينسى أن شريحة من الشعر العراقي موجودة في مكان ما، خارج البلاد رغما عن إرادتها.

قاد هذا النسيان، كما أوضحنا أكثر من مرة، إلى تثبيت أصوات بعينها وإلى "بداهات" نقدية تحتاج فحصا جديدا ثم إلى تدليس فاحش في تاريخ الشعرية العراقية. جل الكتابات النقدية والجامعية عن الثلاثين سنة هذه تبرهن على ذلك، ويمكن استعادة أسماء مؤلفيها وطروحاتهم إذا شئنا. إن زوال المبرّرات الموضوعية القاهرة يرفع الحجج والتعلات اليوم عن ناقد أو باحث يستعيد الأحكام المجترة غير الدقيقة المقالة منذ حين.

متى أُستعيدتْ قصيدة النثر العراقية كتابة وتنظيرا؟ سيجيب النقد العراقي، بثقة، في الثمانينيات وسيقترح مجموعة منتخبة من الأسماء، بل سيعد جيل الثمانينيات في داخل البلد حاملا للواء قصيدة النثر.

هذا تزوير مزدوج، سيدعمه صديقنا الشاعر والمترجم سهيل نجم بفكرة مطلقة من قبيل: "أريد أن أؤكد، أن المجموعة التي ظهرت في الثمانينيات هي من تحمل وزر ترسيخ قصيدة النثر وهم من حفزوا ودفعوا أكثر الشعراء الذين ظهروا في السبعينيات إلى تبني هذا النمط من الكتابة الشعرية، وبهذا قادوا الثورة الحاسمة الثانية على القصيدة الكلاسيكية ومن ثم على القصيدة التي سميت بالشعر الحر التي كتبت في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات" (جريدة الصباح يوم 10 آذار/مارس 2012 عن مجموعة محمد النصار الشعرية).

سأتحدث عن نفسي (بغياب من يمكن أن يتحدث بتدقيق موضوعي وزمنيّ)، وأتكلم فحسب من الزاوية التاريخية، وليس من الناحية الجمالية والنصية المتروكة لإحكام النقد العراقي الذي يركن إلى المسلمات المصنوعة بالعنف الرمزي والحقيقي والتدليس طيلة السنوات الماضية. مجموعتي

"نص النصوص الثلاثة" الصادرة عن دار العودة بيروت عام 1982 تعلن انغماراً نهائياً بقصيدة النثر. جميع قصائدها المكتوبة قبل صدورها بالطبع، مؤرخة بدقة لحسن الحظ. ها هو السياق الذي خرجت منه القصيدة النثرية الطويلة في تلك المجموعة: في سنجار حيث كنت أقضي نهايات الخدمة العسكرية الإلزامية كتبت قصيدتي "شهوات فتيان أور" بتاريخ1979/7/13، المشدودة بعد إلى الوزن والقافية والجمل القصيرة، ثم كتبت في بغداد قصيدتي "رثاء أور" المؤرخة بـ1980/3/10 ،وهي قصيدة مدوّرة ومرتبطة أيضا بقوة إلى الوزن، تلتها قصيدة "مرثية أخرى لأور" المكتوبة بين بغداد - بيروت بتاريخ1980/8/11 حيث الوزن عينه لكن بالقليل من الانفلات باتجاه لغة أقل صلابة، ثم كتبت "فتى أور" في بيروت بتاريخ1980/12/29 التي ما زالت مدوَّرة وعلى وزن الرجز ببعض من التحرّر الداخلي، لكن "نص النصوص الثلاثة" الطويل المكتوب في بيروت بتاريخ1981/9/19 سيقودني إلى نقلة أساسية: أنها قصيدة نثر صافية لم يبق فيها إلا القليل مما تعلمته في العراق الموزون. من يومها سأكرّس نفسي، بشكل أساسي، لقصيدة النثر التي كنتُ قد كتبتها في وقت مبكر نسبياً من عمري في بغداد، أعني قصيدتي النثرية - الديوان غير المنشورة والمكتوبة عام 1975 "أناشيد الجنون" والتي كتب لها الشاعر عبد الرحمن طهمازي مقدّمة يومها (نسخة منها مع دمغات وملاحظات الرقابة بتواريخها، موجودة اليوم لدى باحث عراقي في البلد ونسخة في دار أختي في بغداد). سأعود قريباً لهذا النص من أجل تصويب التدليس النقدي بشأن قصيدة النثر العراقية سنوات الثمانينيات، وليس فقط لنصيَّ النثريين الطويلين في مجلة (الكرمل) أوائل الثمانينيات عينها: "ربيع الثعلب" في العدد رقم 9، و"ثمة الحرس أيتها العالية" في العدد المزدوج 19-20، وكلاهما صدرا بعد وقت من كتابة النصين المذكورين.

يعرف كثيرون، صامتون أن قصيدتي النثرية الطويلة "ربيع الثعلب" المنشورة في مجلة "الكرمل" والمؤرخة بعام 1982، قد أثرت بشكل مباشر على شعراء الثمانينيات في العراق ومنحتهم الحماس للانغمار الكامل في قصيدة النثر، عكس ما يقول سهيل نجم، إلا إذا اعتبرني شاعرا هندياً سبعينياً .

إن الشهادات في هذا المجال قليلة، أذكر منها شهادة الشاعر زعيم النصار المعنونة "عشرون نسخة من ربيع الثعلب في مقهى حسن عجمي" التي ألقاها، بأريحيةٍ وصدق، في بيت (المدى) يوم الجمعة، تموز 2011 والمنشور بعضها على أحد المواقع الإلكترونية. وثمة أشياء أخرى سأؤجلها بانتظار آراء الآخرين الذين يعرفون المزيد، وأنا أرى في هذا المقام كيف يختلط من جديد المجال السوسيولوجي بالحقل الأدبي الشعري.

ما فائدة هذا العرض كله؟ هل هو استعراض ذاتي يائس يثير الريبة؟ يمكن، من باب النبل والموضوعية، أن أشير إلى شاعر وناشر سبعيني آخر غيري لم يكتب طيلة حياته إلا قصائد النثر، لكنه يستطيع أن يفعل. أستطيع أن أضيف الشاعر غيلان أيضا بثقة، ولا أظن شعره مقروءاً في العراق.

بدلاً من الدروس الذاتية، نفضّل أن نستخرج عبرة لعلها مثال على كيفية اشتغال الثقافة في العراق. علينا الاعتراف أن أنساق التفكير المستلهمة من ثقافة الثلاثين عاما المنصرمة ما زالت فاعلة، خاصة وهي تقرأ بشكل أساسي وتتطلع إلى الشعر الذي تأسس في

شروط سابقة معروفة، حتى أن الاستنتاجات الأدبية الطالعة من تلك الشروط تظل هي نفسها بحذافيرها اليوم.

بعضه شعر بارع دون شك. إنها تجهل إلى حد بعيد الشعر العراقي خارج البلاد، أو تتجاهله، بينما تؤمن نظرياً فحسب بوحدة (الداخل والخارج)، بل أن بعض الأصوات في البلاد والمسؤولين الثقافيين وغير واحد من المثقفين والشعراء يتوجّه صُراحاً بموقف سالب وعدائي من شعراء "الخارج". يكفي فقط أن نقرأ الأفكار الغريبة في المقابلة التي نشرت في جريدة (الصباح) مع محمد حسين آل ياسين بعنوان "أدب الداخل كان يمطر جمراً وحيوية ويضج صدقاً وانفعالاً"، وطبيعة الدعوات إلى العديد من المهرجانات وآخرها مهرجان قصيدة النثر في البصرة (وهذه مناسبة تتعلق من بعيد بالكلمة الحالية)، لكي نتيقن من درجة فقدان المودة والتجاهل لشعراء العراق خارجه. فضلاً عن التجاهل والجهل هناك الكثير من "الجهد" المبذول من أجل الابتلاع الواعي لمنجزات الآخرين ليس النصية فحسب، أنما النقدية أيضاً وهو ما سأعود إليه بتوسّع في مناسبة قادمة.

ملاحظات الصديق سهيل نجم تعني، دون رغبة منه وبحسن نيّة في الغالب، أن هناك تاريخين منفصلين للشعر العراقي، بالتفاصيل الزمنية وبالنتائج النقدية الأخيرة. وهو ما يدلّ عليه أيضا الإفراط في التناول الصحفي للمنتوج الشعري المحليّ، والسهو النقدي عن الشعر العراقي خارج البلاد.

علينا أن نقول الأمر بوضوح: إن من يؤسّس لهذين التاريخين الافتراضيين بشكل بارز هم نقاد العراق وبعض شعرائه أنفسهم داخل البلد قبل غيرهم.

يبقى أن نشير إلى نشيد (شعراء أيديولوجيين) الملتصق كالطحلب المريض بحقبة السبعينيات، والمكرر كلازمة الببغاء: لعل هذا النص نموذج للهواجس التي كان تورّق بعض شعراء تلك الحقبة.

ادناه: صورة فوتوغرافية لصفحتين من مخطوطة القصيدة - الكتاب "أناشيد الجنون"، قصيدة نثر، كما كتبتُ يومها جوار العنوان. وهناك دمغات رقابة المطبوعات العراقية، لأني كنت أنوي إصدارها بكتاب صغير مع مقدمة كتبها يومها الشاعر عبد الرحمن طهمازي. القصيدة مكتوبة عام 1975 بينما دمغات الرقابة عام1976.

ما أجّل طباعتها هو ذهابي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية. المخطوطة محفوظة اليوم لدى أختي ابتسام لعيبي زوجة محمد غازي الأخرس.

*** كاتب وشاعر عراقي يقيم في لوزان - سويسرا**

*** صورة فوتوغرافية لصفحتين من مخطوطة القصيدة - الكتاب "أناشيد الجنون"، قصيدة نثر، عام 1975 .**

غيمتان تائهتان.. وعاشقة

خالد الحلّي *

(1)

غيمتانْ
ضلّتا دربَهُما بين الغُيومْ
التقتا فوقَ جَبَلْ
قالتِ الأولى: دعينا وحدنا
نتحرّى أمرنا
دونَ خوفٍ و هُمومْ
بعد إطراقةِ رأسٍ و وجلْ
قالتِ الأخرى: دعينا نختفي
في مغارةْ
بين أحشاءِ الجبلْ
فأنا مثلكِ،
لا أرغبُ أنْ يرشفني الدّمعُ
و أخشى أنْ أذوبْ
عصفت ريحٌ غضوبْ
هاجتْ الدنيا فما قاومتا
بإكتئابٍ وإختناقٍ بكتا
و بإغماضةِ جفنٍ،
ذابتا.. و إختفتا

(2)

غَيْمَةٌ
قالتْ لها عاشقةٌ:
أتمنى أن أكونْ
غيمةً تُشبِهُكِ
أتهادى في الفضاءْ.
ردّتِ الغيمةُ: إنّي
لا أرى عاشقةً أجملَ منّي
و أنا غيريَ مثلي لا يكونْ.
قالتِ العاشقةُ الظمأى: إرحميني
و إغمريني
بحنانِكِ
طهّريني، و إطلقيني
في فضائِكْ
و دَعيني
أعشقُ الأرضَ، كما أهوى السماءْ
ردّتِ الغيمةُ: لا تنتظريني
فأنا!...
قبلَ أنْ تَسْتكملَ الجملة
صارتْ مطرا

* شاعر عراقي يقيم في ملبورن - أستراليا

انت لا انت

شوقي عبد الامير *

تموت الحكمة
عندما تتركُ جثتها في جميع الوجوه
ترسم زاويةً على الورق
لتجدَ لك ملجأ فيك
تتذكر ؛
تبحث عن ملح نهر جف
خارج عنك
لا تُحسن الامساك باللحظة
هي التي تُمسك بك
تريد ان تعود
لانك لا تعرف اين انت
الحرائق التي لا ترى نارها
انت رمادها
تكتب ؛
تتمرن ان تستنطق قنينة فارغة
عن ماضيها
لا استفاقة لك
بعد ان تثملّ من الصحو
تبعدُ عن نقطة .. تقترب من اخرى
هذا ديدنك ..
الا انك تخاف
ان تكون الخط المستقيم

عندما جف نهر بلادك
كانت المنائر سكرى بالصراخ
وانت تسأل الضفاف
ماذا كان يفعل الماء
في سرير النهر الجاف ؛
ينام وجهك،
في بئر الماضي
تهرول اقدامك.
ثمة انتَ لا تعرفه
هو يعرفك..
ثمة كينونة تخرج عليك فيك ؛
هذا النص

*شاعر عراقي يقيم في باريس - فرنسا

ما أحلى البوح اليها

شاكر السامر*

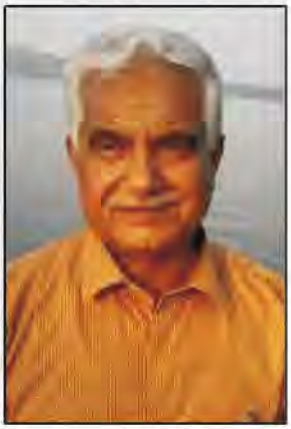

ايُّ بكاءٍ يليقُ بالشجر،
بالطفلِ الذي علّمَ الأراجيحَ
نبوءةَ الأعياد،
ها أنتَ تنوءُ بأسرارِكَ الذبيحة، أراكَ
تحتُّ الشوقَ
ليسري في المواعيد،
فضّت بكارةَ عريها
لذةُ المعاني،
واستبدت ريحُ اشتياقِكَ
للذوبانِ في شرابِ النهود،
اِغترفْ
من عصيرها الجاري على راحتيكَ
عطرَ الليالي،
امهرِ العطشَ المتورّدَ
في ضفةِ العمرِ
موجةً تكسرُ حرقةَ الانتظار
بعذوبةِ الرضاب،

.....

ها انيِ انتظرتُكِ
ألفَ بَصيصٍ مُرتجى
ولا يرحلُ للنعاس..
غلبَت عفويّتي نداءَكِ الكذوب..
ولا فرار من محنةٍ قادمة..
ما أحلى البوح اليكِ
فدعيني أرضع خديكِ
فحلمتا أمّي ذبلتا
ولاذتا بالتراب،
وما زلتُ لم أفطم بعدُ
وما زلتُ لم أرتو
من ماءِ الوردِ
وشهدِ البرتقال.

* شاعر عراقي يقيم في تركيا

أغنية سومرية

سعد جاسم *

في الطيفِ الحُلميْ
أو في الصحو الفجْريْ
لا أعرفُ بالضبطِ متى
أفرشُ منديلاً أزرقْ
بحجمِ البحرِ وأعْمقْ
لكنّهُ أجملُ زرقة
وفيروزاً ولا زوردْ؛
أفرشُهُ وأعني المنديلَ
على رملِ الايام
فيَبْتَلُ بمياهِ حضوركِ
حيثُ لا مسافات
ولا وحشة منفى
ولا هواجس غياب
لأنّكِ حاضرةٌ وخالدةٌ
في القلبِ والروحِ والذاكرة

***

أينكِ الآنَ ؟
ياطفلة الماءِ
والقصائدِ الجريحة
والذكرياتِ الجارحة
والألوان القزحية
والأحلامِ المنهوبة
والأغاني الشجية
و (للناصريهْ
للناصريهْ
بو جناغ أروحْ وياك
للناصريه ...

وبثنين إديَّهْ ...
بثنين إديَّهْ
تعطشْ وشَرْبَك مايْ
بثنين إديَّهْ

****

سلاماً سيدةُ الشغفِ
والترفِ والعنفوانْ
وسلاماً يا إمرأةَ المرايا
واللوحاتِ والهدايا
وأميرةَ الألوانْ
سلاماً...
سلاماً...
سلاماً عليكْ
وعلى روحكِ السومريَّةْ
وهْيَ تتلألأ في قلاع
وزقورات : أور
وأريدو ولكشْ ولارسا

**

وفي المتاحفِ
والمنافي
والمراسمِ
والكاليريهاتْ
وسلاماً على اللون
والكونِ والطين
وهوَ يُحَنّي يديكِ
فتُضيءُ الحياةْ

* شاعر عراقي يقيم في كندا

إشارات :

- للناصرية:
أغنية من الفلكلور الشعبي العراقي وقد تغنت بها مجموعة من الفنانات والفنانين العراقيين والعرب القدامى والمعاصرين والشباب وكذلك ترنم بها وبصوته الشجي الشاعر الكبير مظفر النواب.

- قلاع وزقورات :
أور وأريدو ولكش ولارسا من آثار الحضارة السومرية الخالدة.

نصفهُ الآخر

إنهاء الياس سيفو *

إننا ذاك المعتم من وجه القمر
النصف الذي يعرفُنا
ولا نعرفه ..
يراقبُنا حين نُبدل بالعري ما يستُرنا
نمضي الى سرير الخيبات
ويبقى وحده ..
عالقًا في الظلمة
وبيننا عهدٌ ..
أن لا يبوح بما أشعلَ النار فينا ..
يولد..
ونولد معه
نحن الذائبون في وهجهِ
وهو المارد حولنا ..
يتوغل في أيامنا ..
حين ننطفئ ..
ويوصينا أن العشق درس واحد
لا يحتمل التكرار..
ونحن تعِبَ فينا السؤال
أين تراه نصفك الآخر..
وأيّانا فيه ..

* شاعرة عراقية تقيم في أمريكا

موتُ الدكتاتورِ وقيامتُهُ

ليث الصندوق

قدَرُنا بيديكَ سيدي الدكتاتور
تعصِرُنا ، وتشرَبُنا بالكأس أو بالقصبة
وقدَرُكَ أيضاً بيديك
فبعدَ قرون من التخمير في الرَحم المقدّس
فتحتَ بيديك علبة الحلوى
وخرجتَ للنور معجوناً بالسُكّر
ولأني أتحاشى السُكّر
تركتُ محبتكَ للنمل والصراصير
فمحبتُكَ تتسبّب بانفجار المثانة
فاعذر مثانتي
واعذرني لأني لا أحبّكَ سيدي المحبوب
بل لا أحبّ حزبَكَ المُدعّمَ بالأحذية المصقحة
ولا وزراءَكَ الذين ينسَطِلون بضغطة زرّ
ولا جنرالاتِكَ المتخذين من رؤوسَ جنودهم رايا
لرصد قطعات القمل المعادية
ولا سكرتيركَ المزوّدَ بألسِنة إضافية لاصطياد اللقالق
وتسخيرها قاذفاتِ قنابل
ولا رجالَ مخابراتِكَ المتكاثرين ذاتياً بالانشطار
ولا إخوتكَ المُتدرعين بأطنانٍ من الأوسمة
لإجبار الأنهار والسواقي المتداخلة على طلب الطلاق
ولا أصهارَكَ الذين يشمّون نتنَ بطونهم

فيتّخذون مواقعَ دفاعية
ولا أمَّكَ التي أنجبت من مِزق الثياب أجيالاً من القوارض
ولا (زوجتَكَ) المطلية بصفار البيض
لتتحرّرَ بالزَنخ من الجاذبية الأرضية
ولا أبناءَكَ المولعين بالحيوانات المفترسة
يغرسون في فِرائها دولاراتِهم المزيفة
ولا بناتِكَ بوجوهِهنّ المطّاطيةِ المتخذةِ مناضدَ ترامبولين
ولا خُطبَكَ المكويّة بآذان المجبرين على الإصغاء
ولا صلاتَكَ المعبّأةَ بصواريخَ
موجّهةٍ نحوَ مَلائكةٍ يخافون الصواعِق

***

بالرغم من كُرهي لمذاقِكَ السُكّريّ سيدي الدكتاتور
غنّيتُ من أنفي لكَ أغانيَ لزجة كالمُخاط
ولبستُ بيريّتَكَ المُصمّغة
لأبدو كزرزورٍ خرج كالفقاعة من بالوعة الحمّام
هكذا مَشّطتُ ريشي استعداداً للطيران
فالحربُ أفرغتْ في باحاتِ بيوتِنا
ما في كيسِها من الأعاصير
النوافذ المتحمّسة انتزعتْ أحشاءَها من بطون النائمين
والمتطوّعون تدفقوا كالنزيف من شرايين آبائهم
الحربُ المقدسة تناديكم أيها المجاهدون
ضمّوا صفوفكم لبعضها بالإبرة والخيط
توجهوا إلى جبهات القدور المغليّة
لاستعادة الزائدةِ الدوديةِ للدكتاتور
فقد سُرقتْ أثناءَ نومِهِ من فمِهِ المفتوح

***

رأيتُكَ في الحُلم غاضباً سيدي الدكتاتور
تتطايرُ حولي أظفارُكَ المقتلعة كسكاكين لاعبي السيرك
وسألتني كأبٍ يهمّ بأكل أبنائه
عن اتخاذي لحذائي وسادةً
دونَ إخطار دائرةِ الأمن بأنّ رائحتَهُ
تتسبّبُ في انهيار أسعار النفط

وعن قِميصي الذي عبرَ ثقوبه
أكشفُ أسرار علاج كلابك من حموضة المعدة
وفي نوبة من الغضب
أخرجتَ الحرسَ الرئاسي من المُجمّدة
ثمّ اقتلعتَ من لثتكَ إحدى قنابلك الذريّة
عندئذ أدركتُ أني لا محالة مأكولٌ على العِشاء
فسبقتُكَ بإعلان ولائي
للقلم الذي توقع به صكوكَ التكريم
وقراراتِ الإعدام
وأعلنتُ براءتي من وطن
لا تفقسُ بيوضُ دجاجاتِهِ صيصاناً يشبهونك
ورجوتُكَ قبلَ أنْ تتعقنَ الجبالُ من النوم
أنْ تعجنَ كُرةَ الأرض أرغفة للحيتان التائهة
لعلها تأتي بالمحيطات مكبّلة بسلاسلَ
إلى استعلامات القصر الجمهوري

***

نعم ، أنا لا أحبّكَ سيدي الدكتاتور المحبوب
لكنّ عينيك الفائرتين ككأسين من الجعة
تُشعراني بالعطش
كلما أفرغَهُما السُكارى ، فاضتا من جديد
آهٍ ، كم أحبّ عينيك سيدي الدكتاتور المكروه ؟
أطلّ عبرَ قوّةِ إبصارهِما على قدَرٍ أعمى
فأنتَ الخالدُ الوحيد في زمن الضروس المتساقطة
منذ قرونٍ وأنفاسُكَ تغطي الشرق بالخيام المهترئة
وأقلامُكَ تنفث دخاناً بنكهة النعناع
كلما مُتّ ، ودُفنتَ ، عادت أورامُكَ تنمو ،
وتنزّ في سواقي الحدائق العامة
وعادتْ كلماتُكَ المدعمة بجيوش من الجرارات
تحفر في الجماجم مجاريَ للمياه الآسنة
فليطمئنّ الذين لم يولدوا بعد
ما دامتِ القاطرةُ العرجاءُ تعملُ بالطاقة المستجدّة
فسيبقونَ إلى أبد الدهر
يتلمسون بأطراف العُكازات الطريق
إلى بطانات معاطفهم.

البحرُ يناديني

حسينة بنيان

البحرُ يناديني
وأنا مرهونةٌ
مابين الساحل والمرسى
البحرُ عميقٌ يحترفُ الخوفَ
ودمي بئرٌ موؤدة
تصطفُّ وقوفاً
أثرَ الموج القاتل
تناديني
كلٌّ يقتربُ
ونفسي تغتربُ
وذاك العمرُ المسروق
قدَّمَ شكواه
ليكون الشاهدَ
بنداء الجرح المهجور
عند أفول الورد
يترقبُ خطوتهُ
بين الحلُم وبين سكون الفجر
أين أجدها..روحي
كي تسمو..تعترفُ
بكلِّ رنينٍ هاجرني
يبعدُ عنّي
وخطوي أقربُ منّي
كيف سأصحو
والصخرةُ تمحو
أثرَ الموجةِ..وتعاندني
حين وقوع العصفِ
تتمادى في شأن الثأر
منها..تلك سنوني

ويغيبُ سوادُ الوله
ليثورَ رقيباً
عند وجوب الحذر
ورهان القانون الفاني
أين أجدهُ
ظلّي
ومزاميري طاعنة
في عشق الالم
دعني معهُ
قد أحملهُ روحاً أخرى
تغمرني
حين أفول النور
دعني معهُ
كلَّ صراعي
سيسكنُ حيناً
عند هبوب الحرف
ليرممَّ أغنيتي
ما لوَّحَ منها
علَّ الموجة
تحملني نحو السهل المارق
لأحضرَ فيهِ
وأجمعَ تلك القطرات
من جُرح متماثل
عند عبور العمر
خارج ناصيتي
ليؤشرَ حول سمائي
تأبين النار.

بائع الغناء

صلاح جبار الحسيني

حزن يخيم على أجواء البلاد، والناس ينتابها القلق، وأناشيد وبيانات الحرب تثير مخاوف أبناء القرية، بينما جميل اعتاد أن يجوب شوارع مدينته الجنوبية متأبطا مسجلا احمر اللون يبث عبره الأغاني الجميلة وهو يجوب الأسواق، الساحات العامة ويلتف حوله أبناء القرية من كبار السن والشباب، يستمعون إلى آخر الأشرطة الغنائية بدل أناشيد الحرب التي تبث عبر الإذاعة الوحيدة، كان شيئا مألوفا بالنسبة لهم حيث الحرب عام 1980 بانت ملامحها وآثارها وكان مسجل جميل هو المتنفس الوحيد لأبناء المدينة يسمعهم الأغاني المتنوعة منها الريفية كأغاني داخل حسن وأخرى السياسية كأغاني فؤاد سالم أو قحطان العطار، البعض من هذه الأغاني كان ممنوعا بسبب مواقف سياسية من قبل مطربيها.. الحرب والسلام الغناء والبكاء مفردات ومضادات اجتمعت في لحظة واحدة في ناحية كرمة بني سعيد، المدينة التي تغفو عند حافات الاهوار، حيث سيمفونية الطيور وخضرة الطبيعة وحركة السائحين المستمرة الذين جاءوا من أقصى شمال الكرة الأرضية، يرمون بسناراتهم الى أعماق الاهوار يصطادون سمك البني ذا الاصداف الذهبية والحمري الأخضر اللون والكطان ذا المذاق الطيب، وأبناء القرية كانوا يلتفون حول هؤلاء السياح يداعبونهم بكلماتهم الانكليزية واغلبها كانت تحايا، وقد اعتادوا على رؤيتهم في جميع الفصول، القرية تنوعت بدياناتها المسلمين بشتى مذاهبهم مع الصابئة وغيرهم، وجميع هؤلاء يعيشون ويتجاورون بالقرب من الماء، مياه الأنهر، مياه الاهوار، يسكنون في بيوت من الطين والقصب، الصابئيات الجميلات هن أكثر التصاقا بالماء، انه جزء من عباداتهم وحياتهم، يقضين أوقاتهن قرب ضفاف الأنهر.

هكذا تبدو القرية المليئة بالحكايا والجمال، صابئية أحبت مسلما فتزوجها، مسلمة أكثر صداقاتها النساء الصابئيات،.. أصوات

الأغاني المنبعثة من مسجل جميل تنشر الفرح بين هؤلاء القرويين من مختلف الديانات.

بائعات السمك والخضار والعمال الكسبة، اعتادوا كل صباح أن يروا ذلك الإنسان الذين يحمل لهم بضاعته الفنية من غناء ريفي أو غيرها وهم ينتظرونه في الطرقات بفارغ الصبر يأتيهم وهو يرتدي دشداشة الزرقاء كلون السماء والكوفية الحمراء والعقال ويفوح جسمه بعطر التيروز ويحمل لحنا سومريا يوزعه عبر نسمات الصباح عبر أغانيه، والتي هي عبارة عن شجن عراقي، وغالبا ما يذهب جميل آخر الليل إلى أعماق الاهوار، لأنه يعشق الطبيعة وجمالها وهناك يتمايل طربا مع صوت داخل حسن وحضيري ابو عزيز وأحيانا يطلق هو صوته الشجي بطريقة لا إرادية (ياويلي) الذي يطرب صيادي السمك و يمتزج صوته مع زقزقات الطيور ونقيق الضفادع، سحر المكان بخضرته وسمائه وهدوئه جعلت مملكة القصب لا تفارقه لحظة واحدة، وأحيانا يبقى حتى الصباح فوق (الايشانات) يستمع إلى أحاديث الصيادين ونكاتهم العذبة وقهقهاتهم العالية والتي تشبه أصوات طائر (الغرنوق) ويستمعون إلى أغانيه وهم يتمايلون في مشاحيفهم فرحا وطربا، الغناء وسط الاهوار له سحره، له جماليته، ليال طوال وما زال جميل يوزع الغناء في كل بقعة من هذه القرية في اليابسة وفي مستنقعات الاهوار، وغناء الاهواريون له نكهته الخاصة، يعشقونه، يتمايلون معه طربا، وأحيانا يبكون عندما يغنون، فغناؤهم غناء سومري، يبثون من خلاله اللوعة وعشق البيئة، بل وحتى حكاياتهم ما أعذبها.. سمك البني والكطان المسقوف الأكلة المفضلة لجميل وهو يداعب الصيادين بالأغاني الجميلة، زخات مطر ربيعية تهطل فوق هور الحمار، ما تجعل الاهوار أكثر جمالية والصيادين أكثر صخبا، إلا أنهم يحتمون بأكواخهم القصبية التي بنوها وسط الهور، يقضون ليلهم بالضحك وسماع الأغاني، أصداف سمك البني أكثر لمعانا في منتصف الليل، والذي يملأ قوارب هؤلاء الصيادين فيبدو وكأنه لؤلؤ وهدايا هذه المستنقعات لهؤلاء البشر. هذا السمك هو بضاعة هؤلاء الصيادين إلى العاصمة بغداد، فالبغداديون يعتبرون سمك البني هي أكلتهم المفضلة.

أسئلة تراود جميل تجعله أكثر قلقا، حيث القرية ارتدت الألبسة الزيتونية والخاكية، والعشرات من شباب القرية يساقون قسرا إلى جبهات الموت.

يا ترى ما الذي ينتظر القرية من مصير مجهول؟

ومتى تنتهي هذه الحرب؟

وما هو مصير الاهوار التي أصبحت مأوى للهاربين من الجند الذين رفضوا الالتحاق إلى سواتر الحرب؟

أسئلة مبهمة لم يجد جميل جوابا لها، بينما ضحايا الحرب من الشباب يأتون تباعا، عباس ..محمد ..سامي ..ثلاثة أصدقاء قتلوا بقذيفة هاون واحدة في لحظة مشؤومة، مشاهد مؤلمة بدأت تخيم على أجواء القرية، لكن جميل لم يستسلم لها ويقول:

(لا بد أن استمر بنشر الفرح في شوارع القرية عبر هذا الغناء)

يرددها بألم ولوعة.

الغناء ، الغناء ، الغناءءءءء

(لا بد لقصب الاهوار أن يعزف سيمفونية (أور نمو) لكي تبقى شبعاد الجنوب سعيدة بقيثارتها)

لا بد ولا بد ولا بد...

الغناء يداعب مشاعر أبناء القرية الذين سئموا الحزن، ويبحثون عن الفرح حتى وان

كان مؤقتا، ليل القرية جميل كنهارها، وبائع الغناء يقضي وقته في المساء بين كواهين القصب، يستأنس بأصوات طائر البرهان الذي يتألف مع الإنسان، يداعبها ويسمعها الغناء الريفي، معتقدا أن هذه الطيور تفهم الغناء أيضا، الغناء الغناء الذي لا بد أن ينتصر على الحزن، الهور هذا اللغز الذي لا يستطيع احد تفسيره إلا هو كان يعرف قصص الصيادين ومغامراتهم، كان يعرف حكايا العشاق والعاشقات ويستمع إلى قصصهم العذبة، احدهم ذات يوم شتائي كان يدفع قاربه وهو يئن بصوت أذهله حد البكاء، انه حميد الذي عشق أنغام ذات العيون الزرقاء ابنة الحاج حسين بائع المشاحيف.

سأل جميل حميد لما تغني هكذا؟

أجابه إنني أحببت امرأة ريفية اسمها أنغام من قرية أم الخنازير...

كانت أنغام تحب الغناء، تغفو على ذراعي حينما كنا نلتقي سرا وسط هذه (الكواهين)، أو قرب (الايشان) الكبير وسط هذا المشحوف الصغير حينما كنت اغني لها أحيانا كانت تبكي، أحيانا تضحك، أحيانا نغني معا سوية، صرخ بصوت عذب (ياويلي ..ياويلي)، كانت لحظات جميلة استمرت ثلاث سنوات متتالية...

عدة مرات خطبتها من أبيها ولكن الأب الحاج حسين كان يرفض بسبب إنني اغني مجانا في الأعراس.

فيقول أبوها (انه ولد طائش وغير متزن) فيرفض الخطوبة.

وذات يوم كانت أنغام قرب هذا الايشان السومري، تداعب أفراخ طائر البرهان وجميل كان مستلقيا على ظهره في ذلك المشحوف الصغير، يغني بصوت خافت ويداعب موجات الماء بالمجداف، سمعها صرخت بصوت عال (آخ آخ آخ) حمييييد، فوجئ بثعبان أسود طوله ذراع، هجم عليها فلدغها واختطفها منه في غفلة من الزمن، كان ذلك الثعبان الذي قتله ينظر إليه بشزر، انه ثعبان اسود اسود اسود، هنا تأوه حميد.. تناول سيجارة موضوعة فوق المشحوف أخذ يدخن.. يغني والدموع تنهمر فوق خده كان يطلق كلماته بتأوه وحسرة..

يقول: كان حبنا شريفا نقيا كنقاوة نسمات هذا الهور الذي يخفي أسرار أبناء القرية!

لقد كانت فاجعة قتل أنغام أشبه بالصاعقة على صديقه حميد مما جعلته أكثر حزنا، ... يرتدي دشداشته السوداء حزنا على تلك المرأة التي ماتت قبل حوالي خمس سنوات متتالية، وكل يوم يمر يأتي حميد إلى هذا (الايشان) الذي غادرت فوقه أنغام، ليشم عطرها ويغني يغني وكأنها تسمعه حينما يتأوه غناء ولوعة وأحيانا يغفو فوق هذا المكان وأصبحت حكايته حديث النسوة في هذه القرية:

إحداهن قالت انه مجنون أنغام!

ثانية أردفت قائلة: انه قتله الحب !

عرافة الأرياف هي الوحيدة التي تنبأت بموته فقالت: انه سوف يموت قريبا لأن غناءه يبكي الصيادين والنساء الريفيات وسوف يقتله هذا الغناء!

الغناء أصبح لحميد أيضا متنفسه الوحيد، بعد موت حبيبته أنغام، أنغام التي كانت كلماتها أشبه بمعزوفة غنائية تنساب فوق شفتيها الورديتين، الليل أكثر قسوة عليه من النهار حيث النفوس تنام إلا هو يعيش القلق اليومي، القلق على مصير البلاد.. الاهوار .. أبناء القرية ، الذين يموتون بالمجان في سواتر الحرب المجنونة، سيجارته التي لا تفارقه ومع دخانها المتطاير يستذكر لقاءاته المتكررة خلسة مع أنغام بين أعواد القصب والبردي، حيث الحب الجميل يختبئ تحت أعواد القصب، يستمع إلى زقزقات عصافير الهور الجميل المطرز بزهور الكعيبه

والعرمط ونبات زهير البط الملون.
انه الهور الذي يمتد عمره بعمر هذه البلاد والذي يخبئ آهات وحسرات حميد وأنغام والتي أصبحت حكاية أبناء القرية.
قصص وحكايا أبناء القرية جميلة كطبيعتها، حيث العشق الريفي، وغناء النسوة العاشقات، ومواعيدهن بين غابات القصب، إنما تدل على جمالية الحياة في هذه المنطقة، الحياة التي تبدو بسيطة وغير متعبة حياة يملأها الفرح والسرور، وقصصهم اغلبها نابعة من طبيعة المكان، ذات يوم من أيام القرية، الناس كانوا نياما، فوجئ الحاج محمد شيخ عشيرة الحسن بحريق يلتهم مضيفه القصبي، فهبت القرية لإطفاء الحريق وأطلقت النسوة أهازيجهن كنداء للقرويين النيام، أما حميد فقد عرف من احرق المضيف، لكنه لم يتفوه بكلام حول هذه الحادثة، وبقي يراوده ذلك الحدث، فالحاج محمد كان من المعارضين لسياسة السلطات الحاكمة، ومضيفه أصبح في الآونة الاخيرة مقرا لأصحاب الكفاح المسلح، ما حدا بالسلطات الحاكمة لأن تراقب تحركاته عن قرب وعن بعد. إنها حادثة يستذكرها في كل لحظة. الحرب طالت سنواتها. الاهوار أصبحت مأوى للهاربين من الموت المجان، وأخذت تقلق الحكام لأنها تحولت إلى منطقة عصيان للحاكم. أما جميل فقد اخذ الخوف والقلق ينتابه من الغد المجهول، الغد الذي يبدو كأنه سراب صحراوي، حتى عندما يذهب إلى أعماق الاهوار يرى هؤلاء يلوذون بأعواد القصب خائفين من أزلام السلطة تلاحقهم إلى هذا المكان. إنهم يبحثون عن الحرية المفقودة بين نباتات القصب والبردي. طائرات السلطة تحوم فوق مستنقعات الاهوار.
وهؤلاء الهاربون يلوذون بالماء مختبئين، وقد اعتادوا على هذه الممارسات السلطوية التي تتابع تحركاتهم، الغناء يبدو هو المتنفس الأخير لأبناء القرية، الذين بدأوا يقلقون أيضا على مصير الاهوار. ذات مساء شتائي من أيام القرية، والناس مشغولة بأخبار الحرب، فوجئ أبناء المنطقة باختفاء جميل فجأة، ولا أحد يعرف مكانه. هل اعتقل من قبل السلطة الحاكمة بسبب الغناء، أم أكلته الحيوانات المفترسة في أعماق الاهوار، كلها تساؤلات تراود الجميع. وقتها هرعت القرية صباحا بأكملها تبحث عنه بين غابات القصب.
أما صيادو السمك فقد شاركوا أبناء القرية بالبحث عن صديقهم الذي كان يبيعهم الغناء مجانا. أصبحت حادثة غياب جميل أحاديث أبناء القرية، الذين أحزنهم هذا الغياب. أما الغناء فقد غاب من الشوارع والساحات، وبدأت الناس تبحث عن أشياء أخرى تسلي بها أنفسهم. لقد غاب الفرح عن القرية، وارتسم الحزن على قسمات وجوه الاهواريين. أما الاهوار فبدأت تجف قطرة ..قطرة.. أسماك البني وطائر البط والحذاف والغرنوق هاجر المنطقة، ولم يبق فيها سوى ابن آوى. هكذا أصبحت وأمست القرية بعد غياب جميل: تتسول الفرح، وغابت زقزقات عصافير الاهوار.
ولم يسمع فيها سوى عواء ابن أوى، الذي يجوب الشوارع مساء، ذات مساء شتوي بعدما تعب أبناء القرية من العثور على جميل، فوجئ صياد السمك الماهر الحاج عبود الجازع بجثة مرمية تطفو قرب الجسر وعليها آثار جروح بليغة.
انه جثة جميل بائع الغناء، قتلوه في لحظة مشؤومة باتت القرية ما أحوجها إلى الغناء والفرح وأصبح مقتل جميل مناسبة يحتفل بها أبناء القرية لأنه مات وهو يرسم الفرح فوق وجوه هؤلاء الاهواريين.

انتفاضة تشرين

من بغداد الى برلين.. تشكيلياً

عصام الياسري *

الألوان التعبيرية وبلاغة اللغة التصويرية وأسلوب التكنيك واكتمال الدلالات الرمزية المثيرة.

هي السائدة بشكل منتظم في لوحات الفنان التشكيلي العراقي المقيم في برلين علي محمود، التي تيسر لنا مشاهدتها في معرضه الاول في مركز (آب تسيل) ببرلين مؤخرا.

شاركه بالعزف المنفرد على العود من التراث العراقي خلال أمسية الافتتاح الفنان العراقي الشاب المقيم منذ تسعة أشهر في بوتسدام "قاسم كزار"، الذي ابدع في جعل الانغام الموسيقية الشرقية كحروف الهجاء تتناثر في فضاءات الفن التشكيلي، تالقت وجوه النساء المتنوعة المعانى والوجدانية والتي لا تقترن بزمان ومكان.. ان مساحة الخيال السمعي للموسيقى في فضاء المعرض، لم تناجي المرئيات او الكشف عن مسيرة قاسم الفنية التي لازمها بإصرار فحسب، انما عبرت عن قيّم تعبيرية تحاكي مصير وطن أسمه "العراق". فقد ترك وظيفته للالتحاق بشباب الانتفاضة. وبسبب رفضه الوشاية والتجسس عليهم، صدر بحقه أمر القاء القبض (لتنفيذ قرار الحكم بالسجن) مما اضطره لمغادرة بلاده.. آنذاك كتب يقول). لأبيض - أسود؟ يجب تحديد موقفك أما أبيض أو أسود لا توجد منطقة رمادية، لأن ما يجري حدث عظيم يجب أن يكون لك موقف فيه على الأقل أمام نفسك أو لا" ، أذ لا يمكنك أن تصدع رأسي ولسنين في

الأماكن العامة والخاصة بالشكوى عن سوء الأوضاع وبأننا شعب جبان وعندما تحدث ثورة لا يكون لك موقف حتى في مواقع التواصل الأجتماعي! لأنك ان لم يكن لك موقف فأنت تندرج تحت واحد من تصنيفات ثلاث:

الأول : موظف مستفيد من الحكومة الحالية ويخشى على وظيفته (جماعة قلوبنا معكم وسيوفنا عليكم).

الثاني :غير مستفيد من الحكومة الحالية لكنه جبان رعديد (لهسة بيه خوفة صدام).

الثالث :المنافق الذي يقف في المنطقة الرمادية والذي ينتظر أي الكفتين تفوز ليقفز لها (وهذا هو الأنتهازي الذي يتسلق على رقاب الاخرين).. و كل الأنواع السابقة لا أتشرف بصداقتها..

الخلاصة:

هذا هو المنشور الذي اعلنت عن طريقه موقفي الصريح ومعارضتي ووقوفي مع ثورة تشرين..

أيضا علي محمود الفنان العراقي بالفطرة منذ الخامسة من عمره (مواليد بغداد عام 1993) حاملا المواهب المتعددة، وإصراره على إختيار الفن التشكيلي تحدٍ للمنطقة الرمادية .. تضمنت رحلته الفنية محطات عديدة، فهو يجيد فن الخط والتصميم والديكور كان لها الأثر البالغ في سعة آفاقه الفكرية والثقافية. تواصل مع طلبة اكاديمية الفنون الجميلة ببغداد بهدف الالتحاق لاكمال دراسة الفن التشكيلي الا انه اضطر لمغادرة بلده العراق بسبب تفاقم الاوضاع السياسية والامنية، لكنه لم يغادر محاكاة العراق، ضحى لاجله في ثورة تشرين شباب أبرياء يريدون صناعة

مستقبل افضل. شاركهم الهم عن بعد فعبر في العديد من اعماله الفنية عن مشاعره وتضامنه معهم. شارك في العديد من الأنشطة الفنية، في العراق وأوروبا.

يعيش حاليا في العاصمة الالمانية برلين. يتمتع برؤية فنية ثاقبة في كيفية صناعة اللون في لوحاته من دون تكلف او تصنع. تتجلى فيها معان تعبيرية كثيرة ترصد الظواهر المجتمعية والسياسة بطريقة تكشف عن عوارض القلق وسرديات المحيط.

احيانا التعبير عن الذات، وحينا اخر تضع المتلقي امام مظهر من مظاهر المشاعر الشخصية او الانفعالات الوجدانية غير النمطية. يرسم بمهنية عالية ومواد والوان مختلفة كالمائي والزيت وقلم الرصاص والفحم. تتميّز رسومه بالتنوع والاساليب المختلفة التي تتجلى فيها عوالم مليئة بالأمل والجمال وبث روح الإيجابي.

في معرضه الاول الذي اقامه في برلين، عرض الفنان علي محمود خمسة عشر عملا فنياً باحجام مختلفة. استحضر في أغلب اعماله "المرأة" باشكال والوان مبتكرة، ذات طابع متنوع غير محدد، منها السريالية أو تمثلها بشكل مختلف. لكن الطابع الاغلب يتنوع بين الواقعية

والانطباعية والتعبيرية بهدف الارتقاء بذائقة المتلقي. فالسردية في اعمال علي تُظهر صورا للواقع، وليس اشكالا غريبة غير معتادة كما يراها البعض.

وعمل على تعريف واضح، لا يقتصر على الأساسيات لـ "ترتيب الألوان"، وانما على طريقة مفصلة للغاية.

ولعل أكثر إثارة تلك الرسوم التضامنية الثلاثة التي تتحدث عن انتفاضة تشرين بطريقة فنية تتميز بنقاء الألوان التعبيرية وبلاغة اللغة التصويرية، يجسد فيها مشاعره تجاه وطنه ووفاءً لشهداء الانتفاضة.

تثير هذه الاعمال جدلا فنيا يتمحور حول مفرداته المتميزة، التي تحمل ظواهر اجتماعية، استطاع أن يقومها بطريقة "سيميائية" لا تخلو من احساس داخلي غير مرئي لكنه ملموس، تتموضع فيه الأشكال البنيوية والألغاز على نحو مثير. واظهار الرمزية للعيان أو عن طريق توظيفها ابداعياً.

هنا عن أثر "البعد الثالث" وكأننا نبحث عن القيّم الفنية التي تشكل عادة أعمدة العمل التشكيلي، كالطاقة والحركة والظل واللون والأسلوب الجمالي فضلاً عن الظواهر "السوسيولوجية".. ومن المنظور النظري الجمالي والمصنفة في علم فنون الرسم بالواقعية، حيث تتميز بثنائية التصنيف، متمردة على الأزمنة روحيا وبصرياً، وتجسد مظاهر الحدث أو شكله من ناحية التراتبية والملائمة وكأنها مشاهد خياليّة.

تمتاز بالألوان المائية "أكريليك" والمتقاربة من بعضها والمنسجمة في أسلوبها الفني، كما لو كانت تشكل كلها جدارية، تتسم برؤية تعبيرية تعد من ابرز فنون الرسم الواقعي المعاصر.

*** كاتب عراقي يقيم في برلين**

ثنائية الحزن والفرح في مسرحية (أمل)* لجواد الاسدي

أ.د. عقيل مهدي يوسف **

تظهر (امل) وكأنها مومياء بـــــمعطفها السميك ودثار رأسها، المغطى بلفات من قماش وهي تحمل بيدها كتابا وتسير ببطء وحذر. يطل من الجهة اليسرى، المقابلة لجهة امل زوجها (باسم) من بين كواليس قماش سوداء وهو يسير باتجاه خزان (بلاستيكي)، يفيض منه الماء لتطفو على الارضية (كتب) مترامية. ونشـــــاهد من شاهق مكتبة مائلة توحي بالسقوط على رأس ساكنيها محتشـــدة فيها، مجلدات ، وكتب ، ومخطوطات ، ونشريات متنوعة الاشكال والحجوم. يظهر باسم بمعطف اسود يغطي جانباً من جسده، ونصفه الثاني عارياً ، متجهاً الى خزان الماء ، ليغتســـل ويرشق الماء بقوة على وجهه وقمة رأسه بطريقة هستيرية. تستمر حركة امل وباسم، بدوائر مرتابة حذرة، متوجسة من (المجهول) الذي يشـــــكل تهديداً خطراً لمستقبـــل غامض، مخيف مرعب، ومن حاضر معاش متردٍ، تسرع امل لاسعاف باسم حين تراه يستشيط ألماً والتواء واختناقاً لتضع على (فمه) جهاز الاوكسجين للتنفس حـــيث تخرج من فمه سحـــائب دخانية متجانسة مع سحب (المكان) الغارق بالرثاثة والفوضى واكداس الكتب المتوزعة على (مقعد) في الخلفية قرب كرسي في اليمين واخر في اليسار تتوسطهما طاولة غارقة في لجة الماء والدخان وعطن الرطوبـــة وغبار السنين. (امل) تستمر بتدخين سجائرها بيد مرتجفة وتبتلع حبوب طبية لتداري مأساتها المرضية. وتدور حوارات متقطعة حين تتصل هاتفياً بطبيبة نسائية تتشنج وتصرخ بغضب لتكشف عن سر معاناتها بمقتل اخيها، الذي كان بعزفه الموسيقي ويغني (للحرية)، مستقطباً جمهورا من المنتفضين معه لكن تدهمه (شلة) لتحرقه وتصرعه، متفحماً. هذه المأساة جرت عليها الويلات والاسى والحنق، لذا تحاول اسقاط (جنينها) حتى لا

جواد الأسدي

يلاقي المصير الاسود الذي انقض على اخيها. مصير ظل يلاحقها في مصيرها الزوجي البائس الذي تعيش مفرداته مع (باسم) زوجها، الواقف ضد محاولتها اسقاط الجنين، ويتمنى لو كان لديه (الرحم) لحماه داخل جسده وروحه.. ثم تتعقد الصراعات وتتراكب ما بين الزوجين، حيث تقرر الخروج الى الشارع مغلقة الباب خلفها بقوة وكأنها تذكرنا بالبطلة (نورا) في مسرحية (ابسن): (بيت الدمية) تاركة زوجها وحيدا مع الامه وهو يردعها عن الخروج الى (شارع) تسوده الرصاصات الطائشة والفوضى الوحشية والاقتتال الجهنمي بين جهات مجهولة واخرى معلومة !! خوفاً عليها من موت محقق. باتت فجاج الارض ضيقة معتمة عليهما داخل البيت .. يسمع، صدى مأساوياً وكانه تمزق كوني شامل معاد . اراد المخرج ان يبين في العرض تنازع هذه المصائر الانسانية مع موت يحفها بمقام (دار الهوان) الذي يظهر للجمهور وهو اشبه بشكل يحمل ملامح المسرات. هذا البعد (السينوغرافي) الذي صممه (علي السوداني) بجدارة واضحة، وما تتخلله من زخات للماء وثقوب الخزان الذي فاضت به ارضية المسرح. وكذلك ما تتخلله من اصوات ومؤثرات موسيقية، موحشة شنيعة.

يزداد عنفوانها مع تشابك افعال الشخصيات: امل (الممثلة رضاب احمد) وباسم (الممثل حيدر جمعة)، حيث تتراكب احداث العرض مظهرة لنا نوبات الغضب، وآلام المرض وسوداوية الشخصيات وهي تتلو حواراتها بتوافق صوتي ما بين الالفاظ وما تقتضيه محسناتها البلاغية من قدرة على تصوير معاني العذاب وكنايات، تغور عميقاً في الاحزان المستدامة، وتشبيهات، تقارب جمرات الروح التي باتت متفحمة بغصاتها وبخيالات، تصوغ (صورها الفنية) بضربات (الاسلوب الطبيعي)، الموغل بتطرفه عن الواقعية في تقديم جلد الذات بين البطلين حين يتداخل البعد

(السادي) مع (المازوكي) للبطلين الدراميين، سواء في انفرادهما ام باتحادهما معاً سوياً باستعارات، تجعل لذة العرس ذكرى سالفة ومتحولة الى رماح واسلاك وامراض تشل شفافية الروح، لتحيل بهجتها الى خناجر وسيوف تنشب اظفارها بقلبيهما. لكن البطل والبطلة يبتكران مثالب كل منهما يصبه كالرصاص على الاخر وهما رهن هوس حزين وانفجارات ينهمر فيها الدمع وزفرات الروح التي تصعد تارة وتهبط تارة اخرى لتجتمع فيها الاضداد، بصراع، ينتصر فيه عسر الحياة على يسرها.

بعد ان تفككت عرى العلاقة الزوجية التي باتت تدعو للرثاء. وهذا ما يرسمه القول بحليته البلاغية وحالاته المفعمة بالاحزان والخيبات. اجاد الممثل: (حيدر) والممثلة: (رضاب).. مؤديان متطابقان مع متطلبات الدور ودلالاته الصادمة الموحية بما يكابدانه. وهما يجسدان ذلك، بالصوت، والهمس والصراخ والبكاء، بوضعيات الجسد والاشارات وتعبيرات الوجه، حيث يبلغان اقصى حد لما يرنو اليه المخرج، من تشكيلات فنية و(ميزانسينات) تخص ابعاد الشخصية، وهي تهرع الى الفتك بقرينها الاخر او الاسرع الى انقاذه حين تراه يكاد يلفظ انفاسه (اختناقاً).

هذا الخطاب الفني محمل باتجاهات كارثية مموهة بموقف سياسي وهجاء وفقر ومرض، وهي محمولات لمشاهد فنية متنوعة فيها الترادف، والتكرار، لحوارات متقنة الصياغة متناسبة مع اختلاف مشارب البطلين فكل منهما يتطلع الى فضح الفساد، وتردي القيم وانحطاطها وتمكين الفاشل الوضيع من أشرار القوم، على الرفيع من خيارهم، وشيوع الجوع والمذلة والحرمان، فالبطلان يستحضران بنقاشاتهما ضرورة انتصار شرف الانسان وحكمته على طيش الصعاليك وصواعقهم العاتية.

يهدف العرض الى تحول كلا البطلين الى ما يشبه الاعواد باستخدام البخور الذي يزيد شواظ حواراتهم المحترقة، عطراً طيباً وشذى مزداناً بحسن (البيان) المشرق رغم من عتمة الحوارات بين (نفسين) سويتين. يظهران العداوة لكنهما يضمران قطرات ندى تمكث في قاع الروح، نقية متسامية الى موضع العزة والشرف، متعالية على السفه والفسق والانحلال. وهما ينبذان التزلف وموبقات الوصوليين.

كأنهما بعد هذا الصراع الذي طبع العرض المسرحي بطابع الحريق الملتهب بين زوج يريد ان تلد الزوجة طفلا، يحقق المسرات، وزوجة تسعى بإرادتها لإجهاض الجنين حتى لا يكابد مرارة الحياة المتخمة بالقسوة وظلم الانسان لاخيه، اذ نراهما في العرض في لحظة (الختام) يعاودان الحياة من جديد، اذ كلاً منهما ينتحي بجانبه.. يقترب تارة من موضعها وهي تقترب تارة اخرى من موضعه قرب خزان الماء، كما لو انهما يعاودان الحياة من جديد ربما ليخوضا جولة اخرى مع الحياة على الرغم مما ظهر منهما من تقريع احدهما للاخر فهما يهفوان الى السكون في بيت مزدان (بالكتب) والمعرفة حتى ان تجرأت عليه (النازلات) من خارج جدرانه لتجعل من الزوج (باسم) يقوم بجناية تمزيق الكتب ورميها في الماء. (لكن) ترجع (امل) بعد ان تركت المنزل لتعاود الحضور، بانتظار فجر جديد قادم.

*** تقديم الفرقة الوطنية/ منتدى المسرح - بغداد.**

**** مخرج وكاتب وناقد مسرحي عراقي، عميد كلية الفنون الجميلة الأسبق.**

الفجر جرح أسود
رواية الأحلام القاتمة

زينب حداد/ تونس

صدرتْ مؤخرا عن دار النسيم للنشر والتوزيع بمصر رواية "الفجر جرح أسود" للكاتبة الجزائرية والأستاذة الجامعية وهيبة سقاي وهي باكورة رواياتها وليست أولى كتاباتها فقد نشرت قبلها مجموعتين قصصيتين ورواية مترجمة من العربية إلى الانجليزية.

تعدّ الرواية مائةً واثنتين وأربعين صفحة وتوزعت أحداثها على خمسة عشرَ فصلا في بناء الرواية وبين الجزائر وأوربا أطرًا مكانية لحركة مجموعة من الشبان الحاصلين على شهادات عليا وعاطلين عن العمل.

أصبح الموضوع في حدّ ذاته مستهلكا إذ تناوبت عليه أقلام الأدباء نثرا وشعرا وعالجته البحوث الاجتماعية، وكذا الباحثون في الاقتصاد والسياسة وهذا الاهتمام من شأنه أن يمثل صعوبةً أمام الكاتبة إذ عليها أن تتميّز وأن تكون لها إضافة وبصمة خاصة ولعلّ حرصها على إنتاج نصّ سردي طريف ينم عن موهبتها التي جعلتها تغوص في نفسية شخصياتها حتّى لتنصهر فيها فكأنها هي، وهذه المقاربة النفسية، تبدأ من عتبة الرواية/ عنوانها الفجر جرح أسود.

نحويا: ينهض العنوان على جملة أسمية مكونة من (مبتدأ) ورد اسما مفردا معرفا (الفجر) و(خبر) هو مركب نعتي اسمي (جرح أسود) فهي بهذه المكونات تدلّ على الثبوت والاستمرار وتوكيد المعنى، وبهذا المعنى لن يكون الفجر مجرد إطار زماني للأحداث يتغيّر بحسب الدورة الفلكية بل هو قائم ثابت لا يتزحزح ولا تتغيّر خصائصه التي ذكرت (جرح أسود).

بلاغيا: العنوان، تشبيه مؤكد أي حذفت منه الأداة مما يقوّي وجه الشبه وهو (السواد) وبهذا تنزاح الكاتبة بالفجر عن دلالته التقليدية في الادب وهي التبشير بالتحول من وقت الى

وقت ومن حال سلبية عموما إلى أخرى إيجابية لأنّ الفجر يعلن عن الضوء والنور والشروق إلى دلالة مستَحدَثةٍ نلمسها في الاستعارة (جرح) وكظاهرة بلاغية تتواشج مع التشبيه للتأكيد على أن الفجر هو زمن الأوجاع القاتمة والمعاناة التي لا تنتهي، ويصبح الفجر امتدادا لليل، ويعلن عن رواية "البدايات فيها نهايات" وتلك خصائص المأساة. نستنتج أنّ العنوان قد:

- كشف قدرة الكاتبة على التحكم في سجلاتها اللغوية (لأنها المسؤولة عن اختيار العنوان وليس الراوي)
- قد حدّد نوعية السرد في الرواية: القتامة فيها ثابتة.
- رواية التفاعل والانفعال أكثر مما هي رواية الأحداث والأفعال

بنية الحكاية:

حكاية "ناصر"، خريج الجامعة وابن شهيد قدم حياته في سبيل استقلال الوطن والعيش الكريم لن يحظ بالعيش الكريم وسيمثل في الرواية شريحة متعلمة ومهمشة منهم (كمال الحاصل على شهادة في إدارة الأعمال وأحمد الحاصل على شهادة في الترجمة من سنوات وشريف خريج كلية الحقوق بتقدير جيّد وخالد الخبير الكهربائي و سعيد مهندس الإلكترونيك ص27)تقول عنهم الراوية"شباب من خيرة ما أنجبت كليات الوطن "وستنضاف إلى قائمة الشخصيات هذه شخصية نسائية هي حنان خريجة كلية الحقوق، سيكون للشخصيات الرجالية تجربة موحدة يستقطبها ناصر لذلك سيعمد الراوي الى بناء هذه الشخصية صعدا عبر رواية الأحداث ويكتشفها القارئ من حيث الخصائص الفيزيولوجية والانتماء الاجتماعي والطبع والمزاج تدريجيا ليتبين فعلا أنه انموذج لشريحة ناضلت اجتماعيا حتى ترتقي بوضعها لكنها ستصطدم بفئة أخرى من دعاة النضال والانتهازيين الذين سيتحكمون في مصائر الناس من دون وجه حقّ وسيتخذ بعضهم المتاجرة بالبشر وسيلة لربح الأموال، يمثل هذه الفئة في الرواية شخصية عيسى الضابط المتقاعد سمسار قوارب الموت وجاء على لسان فاطمة (أم ناصر) "يا اكذوبة من أكاذيب زمن الثورة... منذ فجر الاستقلال وانتم عاقدون العزمَ على تدمير الطاقات الشابة من النخبة المثقفة"...

هذه الوضعية الاجتماعية المتأزمة ستمثل ما قبل الرواية لأنّ الحكاية المروية ستنطلق من رغبة الشخصيات في الانعتاق (واقفٌ هو على حافة الجرف الصخريّ يتأمّل البحر الأزرق المترامي...)، وهذه الرغبة ستكون بمثابة اللحظة المفصلية التي ستتحكم في نموّ الرواية في اتجاهين: اتجاه الماضي الذي تعود فيه الشخصية إلى مسافة ما قبل الرواية لتنتقي ما يخدم سيرها في اتجاه الحاضر/ المستقبل، ثم تنمو الحكاية في خطّ البحث عن حلّ للمشكل وكل شخصية ستعيش مغامرة البحث بشكل فردي: فناصر وأصدقاؤه سيختارون قارب الموت لكنّ كلاّ سيتجه في طريق بعد ذلك، أما حنان فستجد حلا لوضعها الاجتماعي في صفقة زواج بمحام ثريّ وأما فاطمة أمّ ناصر فسيكون سبيلها إلى إنقاذ ابنتها من الإعاقة العضوية الوساطة، وما تحرك الشخصيات بشكل فرديّ إلا دليل على فساد الحكم في الجزائر وتهميش رأس المال البشري وعجز المؤسسات عن إدارة شؤون الناس وتفريغ الوطن من كفاءاته، فيكثر الانتهازيون والاستغلاليون وتحتدّ الطبقية وتنحلّ القيم فيتحلل النسيج الاجتماعي نفسه بل تهيمن المافيا وأساليبها الإجرامية، وفي وضع كهذا يتساوى الموت والحياة لذلك كانت خاتمة الطريق بعد ستّ سنوات (زمن ديمومة الأحداث) درامية بالنسبة الى كل الشخصيات

ماعدا كمالا، نهاية اختزنها عنوان الرواية كما بيّنا أعلاه ونهاية حتمية بحكم الجمود الذي ارتهن إرادة التغيير وتحول العقلية الاستعمارية من قوى القمع الخارجية الى قوى داخلية، وكأنّ قدر شعوب الدول النامية أن تنغلق أمامها أبواب المستقبل فتعيش تاريخها ليلا أبديا.

*** خصائص السرد في الرواية**

الراوي هو هوية أدبية لا تعيش الا داخل النصّ وهو ذات متميزة عن الكاتب لكنه يبقى صنيعه.

السارد في هذه الرواية يسرد حكاية غيره، ويتخذ موقعا خارجيا يكون عن طريقه ملاحظا يتابع حركة الشخصيات، وأوكلت إليه الكاتبة وظيفة هندسة العالم القصصي، وتتبّع الشخصيات فهو من هذا المنطلق تتساوى معرفته بمعرفة المتلقي، لكنّ القارئ سيكتشف أنّ الراوي يخترق ذهن الشخصية ويعيش انفعالاتها وينقل مواقفها بل ويستشرف مستقبلها وهو يسرد بضمير الغائب كما في قوله "همهمات الرياح يحسها موسيقى جنائزية تعزفها فرقة هياكل موتى تفوح منها رائحة العفن ص8""ذكريات مشحونة بالألم و رائحة الموت انتصبت بين الاثنين فأفسدت ما كان من ودّ ومحبّة وتقارب روحيّ ...ص7" ،وكثيرة هي المواقع التي ينصهر فيها الراوي بالشخصية بل يمكن ان نذهب الى أبعد من ذلك فنتبّين انّ الانصهار ثلاثيّ: الراوي/الشخصية /الكاتبة إذا تعلّق الأمر بتعرية الواقع وإصدار موقف منه فالكاتبة في حقيقة الأمر هي المسؤولة عن اللغة وعن قناعات الشخصية وإن تدارت بالراوي ودسّتْ في ما ينطق به جهرا مواقفها همسا وقد يصبح الأمر مفضوحا في سرد الأقوال خاصة فعندما تصرخ فاطمة المرأة المتواضعة تعليما وثقافة في وجه عيسى الضابط المتقاعد "مجنون وخبيث بوجهين قبيحين...ترتدي وجه المخادع السافل على وجه الوطنيّ المحنّك ...السمّ في أعماقك والزيف يلطّخ وجهك كأصباغ على وجه مومس..."ص39 لا يغيب عن القارئ تدخل الكاتبة في الاختيارات اللغوية وكذلك في الموقف من تلك الشرذمة المتاجرة بالوطن والوطنية ويتأكد ذلك في استقراء ناصر للواقع الدرامي "اقصد أولئك الذين امتصوا خيرات الوطن ...غرسوا أذرعهم الطويلة السامة في كل زاوية من زواياه ثمّ شدّوا الخناق عليه وها هو يصارع حتى الموت...لقد استحلوا كلّ شيء باسم الثورة و التاريخ النضالي والوطن و أنتِ ما زلت بسذاجتك تؤمنين انه بإمكانكِ الحفر في الرمل حيث السراب علّك تعثرين على منبع ماء عذب"، ص55 .

انّ الهمس بإدانة النظام السياسي وفضح كل الممارسات اللامسؤولة التي أدّت إلى غياب الحرية والعدالة الاجتماعية وانهيار القيم وتهميش الشباب ودفعه بالتالي الى ركوب قوارب الموت في مغامرة نهايتها سوداوية "لقد رحل (ناصر) وحيدا وبعيدا كطائر سقط في دبق الأكاذيب والخداع وعجز عن متابعة مباهج هجرته.....سيتفتت جسده في صمت مفجع في مياه التايمز الجليدية البرودة ...لا أحد سيسمع نحيبه الأخرس وصراخه المكتوم ...لا أحد أبدا"، ص140

تلك كانت نهاية ناصر الشخصية التي اختزنت مآسي جيل بل أجيال في أوطان ظنت انها قد استقلت من الهيمنة الخارجية وستكون الكرامة فيها مضمونة فلم توفر لهم سياسة الفساد والتخريب غير الموت فكان الخروج من الليل الى الليل وكان الفجر جرحا أسود صوره الراوي ومن ورائه الكاتبة بلغة تنضح مأساةً وعاشت خلاله الشخصيات مغامرات قدرها الفشل.

الماشي

قصة : ري براد بري
ترجمة : ناظم مزهر

* عن الكاتب والقصة:

ري دوغلاس براد بري 1920-2012 من أشهر كتّاب أدب الخيال العلمي ومن الذين تبنت وكالة ناسا الفضائية الكثير من أفكاره وتوقعاته المستقبلية.

ومن أشهر أعماله " في درجة 415 فهرنهايت" "التفاحات الذهبية للشمس" "الوقائع المريخية" التي أرسلت بنسخة رقمية إلى كوكب المريخ سنة 2008 من قبل وكالة ناسا. ومن أطرف ما عُرف به براد بري أنه لم يتعلم سياقة السيارة مكتفياً بدراجته الهوائية وسيارات الأجرة.

تقول زوجته مارغريت التي كانت تعمل في المكتبة التي كان يرتادها في شبابه انها كانت تراقبه مخافة أن يسرق كتاباً لكنه بدلاً من ذلك سرق قلبها. في هذه القصة يعطينا الكاتب صورة شبحية لمستقبل الإنسان وانغلاقه على نفسه نتيجة لسيطرة التكنلوجيا على خصوصياته وحريته الشخصية بأسلوب لا يخلو من السخرية على الرغم من سوداوية الموقف. نشرت لأول مرة في مجلة (ريبورتر عام 1951 ثم تكرر نشرها في عدة مصادر وتعد الركيزة الأولى لروايته في درجة 451 فهرنهايت الصادرة سنة 1953.

** أن يدخل صمت المدينة المُلفّعة بالضباب ويضع يديه في جيبيه وهو يعبر وصلات الثيل ليضع قدميه على الرصيف. هذا ما كان يحبه السيد (ليونارد ميد). الساعة الثامنة من مساء تشرين الثاني سنة 2052.

يروق له أن يقف عند تقاطع الأرصفة ويفكر تحت ضوء القمر أي رصيف يختار. لكن لا فرق في هذا طالما كان وحيدا. مهما يكن فقد وضع قدميه على الرصيف وهو ينفث أنفاسه المضببة كدخان السجائر.

يمشي أحياناً لساعات ويقطع عدة أميال ثم يعود الى منزله بعد منتصف الليل ويتطلع في طريقه الى نوافذ البيوت المظلمة وهو أمر لا يختلف عن السير في مقبرة حيث لا يرى غير لمعان خافت لفراشات الليل وهي تخرج من السراديب ذات الشواهد المرمرية التي مَسّها ضوء القمر الباهت وربما يسمع أحياناً غمغمة تخرج إليه من المجهول. يتوقف السيد (ميد) أحياناً ويرفع رأسه مرهفاً السمع ويتطلع ثم يواصل مشيه بهدوء. كان قد غيّرَ حذاءه الجلدي بحذاء رياضي منذ زمن تجنبا لإثارة نباح الكلاب البوليسية التي ما أن تشعر بوجوده حتى ينقلب سكون الليل الى مصابيح كاشفة. لقد اختار أن يمشي هذا المساء غرباً نحو الساحل. كان البرد قارساً يَقطع الأنف ويثلج الرئتين ليجعلهما مثل شجرة عيد الميلاد تضيء وتنطفئ وهو يرهف السمع الى هسهسة خطواته فوق أوراق الخريف أو يُصفر لحنا هادئاً، ومن حين لآخر كان يلتقط إحدى أوراق الخريف، يشم رائحتها القديمة ويتأمل عروقها تحت ضوء القمر الباهت.

" مرحى يامَن هناك!" هكذا يهمس مخاطباً لا أحد كُلما مَرَّ بأحد البيوت، "ما هي أخبار القنوات4،7،9 لديكم؟ أين ذهب الأمريكيون؟ هل لاحت رؤوس حراب الفرسان فوق الروابي وجاءوا لإنقاذنا؟."

كان الشارع صامتا فارغاً على مَد البصر إلا من ظِله كأنّه ظلٌ طنطل وسط البلاد. لو أغمضَ السيد (ميد) عينيه ووقف ساكنا، لوجد نفسه مُحلقا فوق سهول أريزونا الساكنة شتاءً حيث يبعد منزل عن الآخر مسافة أميال .ليس هناك من يرافقه في سيره غير قيعان الأنهر الجافة والشوارع الخالية.

"ما لذي يجري الآن؟" خاطب البيوت وهو ينظر الى ساعته، " الثامنة والنصف مساءً؟" أهو موعد عرض مسلسل القتلة؟ أهو موعد برنامج اختبر معلوماتك؟ هل حانت فقرة الرقص الاستعراضي؟ أم تمثيلية هزلية رخيصة؟ ".

خُيلَ إليه انه سمع غمغمة ضحك في أحد البيوت التي كساها ضوء القمر؟ تردد قليلا لكنه واصل المشي بسلام، فقط تعثر بحافة الرصيف، كانت مرتفعة قليلا فوق المستوى المطلوب ولم يرها لأنها مغطاة بالعشب. مضى على خروجه للتمشي اليومي عَشرُ سنين، لا فرق لديه نهاراً كان أم ليلاً، لكنه لم يلتق بشخص يمشي مثله طوال تلك السنين.

وصل الى تقاطع الطريق المؤدي الى مركز المدينة وقد ساده الصمت ولا يسمح بالانعطاف نحو اليسار.

كان الطريق هذا ذات يوم مزدحما بضجيج السيارات ومحطات الوقود تعمل ليل نهار وكانت السيارات تتهادى عائدة الى الديار أينما تكون. لكن هذه الطريق بدت خالية الآن من سيل السيارات مثل الأنهار التي جفت ولم يتبق منها غير الصخور البيض وهي تعكس ضوء القمر.

استدار راجعا. كان على مسافة قريبة من منزله عندما فوجئ بظهور سيارة الشرطة من أحد الأزقة وسلطت مصابيحها الحادة على وجهه. صعقه الضوء مثل فراشة ليل.

" قف! لا تتحرك!" خاطبه مُكبر صوت.

" ارفع يديك "!

" ولكن " " ! ارفع يديك وإلا نطلق النار "!

شيء غريب حقاً! أن تكون سيارة شرطة واحدة لمدينة سكانها ثلاثة ملايين نسمة. لقد تم تقليص عدد السيارات بعد انتخابات سنة 2051 نظراً لتراجع معدلات الجريمة ولم يعد واجب الشرطة غير التأكد من خلو الشوارع فقط.

" اسمك ؟" سأله مكبر الصوت.

" ليونارد ميد ".

" ارفع صوتك " !

" ليونارد ميد " !

" مهنتك ؟ "

" تستطيع أن تقول إنني كاتب ".

" هذا يعني انك عاطل في نظر القانون ".
بـــدا والأضواء مســـلطة عليه مثل تمثال في متحف.
"نعم ، ربّما أنتم على الحق في هذا ".
لم يكتب السيد (ميد) شيئاً منذ أن توقف بيع الصحف و المجلات والكتب لأن كل شيء كان يُبَث في بيوت كأنها المقابر باستثناء الضوء الرمادي للشاشـــات الذي ينعكس على الوجوه الشاحبة.
" ما لذي جعلك تخرج إذاً وأنت بـــــلا عمل؟" سأله الصوت المعدني الأخَن.
" أتمشى ".
" تتمشى"!
" نعم، أتمشى فقط ".
" هل قلتَ تتمشى فقط؟ "!
" نعم سيدي".
" إلى أين ؟ ولأي غرض؟ "
" للتنزه في الهواء الطلق ".
" عنوانك؟ "
" شارع جيمس 11 سانت ساوث".
" هل لديك مكيف هواء يا سيد نيد؟ "
" نعم ".
"هل لديك شاشة عرض ؟ "
" كلا".
" كلا؟!" ردد مُكبر الصوت متسائلا بقلق ثم صمتَ مسجلاً تهمة المخالفة القانونية.
" أمتزوج أنت يا سيد ميد؟ "
" كلا ".
" لستَ متزوجاً ؟!" زعق مكبر صوت السيارة من وراء المصابيح المسلطة.
كان القمر بدراً يكسو البيوت الصامتة بضوئه الرمادي.
" نعم ، لم أكن مَحط إعجاب النساء ".
" أجب على قدر السؤال يا سيد ميد ولا تضف شيئاً " !
ظل السيد (ميد)منتظراً في الليل البارد.
" هل قلتَ إنك تتمشى فقط يا سيد ميد؟"
" نعم ".
" لمْ تذكر لنا سبباً لذلك".
" قلت لكم أتنزه في الهواء الطلق ".
" أتفعل ذلك منذ مدة؟"
" نعم كل ليلة منذ سنين ".
كانت سيارة الشرطة تقف كحاجز مانع وسط الشارع ومكبرة الصوت في طنين مستمر.
" حسناً يا سيد ميد ".
" حسناً، أفهم أن المشكلة منتهية ".
" نعم ، لكن تفضل معنا ." سمع السيد نيد صوتا خافتاً سرعان ما تحول الى صرير عال لباب السيارة الخلفي وهو ينفتح واسعا بشكل تلقائي.
" هيا اصعد ".
" لكن مهلا يا سيدي ، لم أقترف ذنباً " !
" اصعد".
" أنا احتج ".
" سيد ميد" !
أطلَّ برأسه الى داخل السيارة ولمّا لم يرَ أحداً في المقعد الأمامي كما توقع ، نظر الى المقعد الخلفي فوجده مجرد زنزانة صغيرة تفوح منها رائحة حادة لقضبان الفولاذ ومواد مطهرة.
وخاطبه الصوت الآلي:
" لو كان لديك زوجة لقـــــدمت لنا دليلاً على براءتك ... ولكنك...
" إلى أين تأخذونني؟ "
لم ترد عليه مكبرة الصوت بغير طقطقة خفيفة ثم خرجت له بطاقة مثقبة من أسفل كاميرا صغيرة طُبعَ عليها: (إلى مركز العلاج النفسي للتأكد من ميولك العدوانية)
حين أصبح داخل السيارة، أُغلِق الباب عليه بصوت مكتوم وانطلقت السيارة بمصابيحها المشعشعة ومرت بالبيت الوحيد الذي أضيئت نوافذه بلون أصفر دافئ أما البيوت الأخرى فكانت غارقة في الظلام.
" هو ذا منزلي" !
لم يرد عليه أي صوت.
كانت الشوارع التي تسلكها السيارة مهجورة مثل أنهر بلا مياه؛ لا صوت لا حركة ،ذات ليلة باردة من ليالي تشرين الثاني.

المقاربة بين الأديان في الفلم الهندي PK

محمد الأحمد

هو الفلم الاكثر غرابة في طبيعة الأفلام الهندية التقليدية، حيث تعرض الى جملة من الأفكار الفلسفية الجديدة، والمتعلقة بطبيعة الانسان، والمطروحة بنسق روائيّ جميل، متقن، وبليغ.. يكتشف المشاهد في مجمّل لقطاته، كيفيّة التناغم ما بين المخرج العبقري "راجكومار هيراني" 1962 مع بطل الفلم القدير "عامر خان" 1965. يقوم الفيلم على حكايتين متداخلتين ، الأولى قصة "جاكي"، والثانية قصة "PK" في توصيل تلك الأفكار التي سوف تدفعنا الى إعادة النظر في المعلومات التي كنا نعرفها عن الفضاء، احداث خيالية، ولكنها على قدر كبير من التقارب مع الحقائق، والاكتشافات الجديدة حول عالم الفضاء. حصد على عدة جوائز منها "الاوسكار" على مستوى الاتقان، والمعرفة بدقائق ثقافية خصّت شعوباً عديدة، وخاصّة قضايا الدين. على الرغم من تصويره في "الهند" وبعض اللقطات في "بلجيكا". حمل الفلم أكثر من رسالة، بعد أن تصدر شبابيك دور العرض. حوى الفلم على تفاصيل غطتها قصة حبّ غريبة بعض الشيء الا انها من بين اقوى قصص الحبّ المؤثرة في السينما العالمية على الاطلاق، قصة حبّ بين كائن فضائي يشبه الأنسان، وبين فتاة من كوكب الأرض. وعبر غرامه بها استطاع ان يكشف عن خفايا القصة الملتبسة التي فرقت ما بينها، وبين حبيبها الأول "سرفراز". بعد ان اخترق افكارها بملكته التي لا يمتلكها انسان، وكشف لها أدق اسرار حياتها. بدلا من الفوز بها لنفسه اذ أغرم بها الى حدّ الهوس، ولكنه لم يستطع إخفاء الحقيقة او الكذب. لقد شكل الفلم "PK" تحوّلا جديّاً في تجديد الفكرة السابقة التي كنا نتعامل معها بشأن الفضاء الخارجي. وليس من الغرابة ان يشكل فليماً هندياً انطباعاً خاصاً لدى المتلقي، حتى ينسحب الى جمهرة من الاستنتاجات الجديّة والجديدة؛ وقد سبق وان قطعنا شوطاً كبيراً في آلية تفكير واحدة، وبقيت تدور في نطاق ضيّق لم يتخلّلها اية طريقة أخرى في التفكير سوى اننا نكمّلها بما ورثنا من آلية، ولم نعهد ان نجرب الخروج من الفكرة السابقة نحو فكرة جديدة، ولم نفعل سوى اننا بقينا بذات الطريقة الواحدة في التفكير، وخاصة تلك الافكار التي لم تخرج عن الارض مركز هذا الكون بملايين مجراته، ومجهولة الواضح، ولم يشأ العقل

تقبّل فكرة جديدة تزيح الفكرة القديمة، أو توسعها. كون قد أمتلأ خيالنا بالموروث، وبقيّ ذلك راسخا .. كأن لا أشياء ولا أفكار جديدة تحلّ محل الأفكار الجديدة، وكما يقول "هيغل" لا يزيح الجمال الا جمال أكثر جمالاً، وقد احتلت تلك الأفكار القديمة حتى على خيالنا، وقيدته، لإنها تتوالد من بعضها البعض بالقياسات نفسها، والعوالم نفسها التي سيطرت على خيالنا. حيث اننا لم نوسع في معرفة مداركنا تجاه ذلك الفضاء المتناهِ، الا وفق فكرة سابقة مفادها "الأرض مركز الكون" بآلية تشبه امتلاء القدح بالماء او بمادة اخرى، ولا يمكنه ان يحوي أخرى، ما لم يفرغ من يتطلع الى المادة البديلة، بعد امتلائها بأفكار بقيت متقاربة وفق ما تعلمناه، وباتت آلية تفكير واحدة، حيث بقينا نضيف الى القدح ذاته مادة اخرى مشابهة، وكأنما نكمل بنفس ما بدأنا به. دون ان نفرغه من المادة التي كانت تسبقه، وكانت نتيجة ذلك اننا بقينا محصورين في دائرة التفكير المتشابه، ما بين فكرة قريبة، واخرى تشبهها، ولم نحاول ان نجدد في نوعية تلك المادة المخزونة او الافكار التي كانت قبل ان يكتشف "غاليلو" بمنظاره الذي استفزّ الكنيسة، وقبل بداية غزوّ الفضاء، وإطلاق علماء الولايات المتحدة الأميركية، والاتحاد السوفييتي سفينتيْ فضاء في وقتٍ واحدٍ، اذ بقيّ "مخيّالنا" ممتلئ بتلك الأفكار الجاهزة السابقة التي توارثناها عن اجدادنا، وصرنا ننطلق منها دون نخالفها لا في الشكل ولا في الجوهر، حيث لم يجرؤ احدا على مواجهتها حتى تتفكك، ونضع بديلا عنها، او فكرة جديدة وفق ما استجد من الفتوحات التكنلوجية، مادة اخرى ليس لها مسار جديد او أساس جديد. قامت الممثلة الجميلة "أنوشكا شارما" بدور "جاكي" صحافية شابة هندوسية هندية، وتعمل في قناة تلفازية علمانية التوجّه؛ لتحكي عن قصة كتابها الجديد الذي وسمته بـ "PK" وما جرى لها معه. تحكي عن شخص غريب قادم من الفضاء بعد ان أضاع كنترول التحكم بمركبته التي وصل بها الى أهل الأرض. لم يختلف بشكله عن بقيّة البشر سوى وضوح كبر اذنيه بعض الشيء، وتقوّس حاجبيه دليلا عن الجديّة والتركيز، جاء لأجل اكتشاف طبيعة كوكب الأرض وسكانها، وتشابه طبيعة الكوكبين أيضا. وان الكائن الغريب لم يكن يستخدم اللغة اساساً، ويعتمد على طريقة أكثر رقياً من طرق البشر في التفاهم، وهي طريقة لغة الحسّ المباشر، والتخاطر. وتلك من بين أبرز النقاط التي تسجل لصالح فكرة الفيلم، فاللغة أداة توصيل بطيئة حسب اعتبار ذلك الكائن، وفي كوكبهم تمَّ تعطيل التفاهم بها، مثلما استغنوا عن الملابس، حيث لا يرتدي منهم أي ملابس تغطيه، كائنهم لا يخفي شيء، حيث لا تشابه طرق تعامله كما يتعامل الانسان. فاللغة وسيلة تظليل، تجعل منه يتعلم بطريقة التوارث، مثلما انسان يعلم انسان بوسيلة اللغة، وجعلت منه مظلل بين أفكار سابقة لم يخرج منها حيث مبتغاه. اللغة ذاتها تدور في موضوع يطوره الآخر مستندا على الفكرة التي سبقته. والافكار متوالدة من بعضها، وكل فكرة جديدة هي امتداد لفكرة أخرى تشبهها، ولا شيء سوى التشابه في بناء تلك الافكار .وان الاشارة في الفيلم التي تستحق الإشادة بفكرتها العظيمة السخيّة حتى تساعد المشاهد بالخروج من السياقات السابقة التي جعلته اللغة سجين اقواسها. كما لم يكن في طبيعة ذلك الزائر التعامل مع الأسماء البشرية.. أغلب الذين قابلهم من البشر صاروا يشتمونه عندما يستمعون اليه ولا يصدقون حكايته، بل ويشتمونه بكلمة "PK" التي تعني (سكران، معتوه)، وبقيت تلك الكلمة في ذهنه، وظننا منه ان تلك الشتيمة هي التي كانت اسمه بين البشر. وللكائن إمكانيات متطورة أخرى في التعلّم، تتطلب ان يلامس ساعد أي انسان، وينسخ ذاكرة من يلامسه، وما تحمل من تاريخ من الولادة حتى لحظة الملامسة بأدق الأشياء،

ولم يكن أمامه من طريق الى إيجاد "كنتروله" سوى اللغة مع البشر. ولأسباب أخلاقية لم يجد أحد يقبل بتلك الملامسة الا تلك المرأة (المومس) التي أخذ عنها المعلومات التي تؤهله للتفاهم مع الانسان. ثمة صفات وطبائع بعيدة كل البعد عما يَتَفكرّ به الانسان، حيث واجهته العديد من الصعوبات في التعامل مع البشر، وعهد كل فريق بشري يستعين بإلهة ويطلب منها المساعدة، حتى تعطيه بالمقابل مراده. وكانت "نيودلهي" هي أكثر مدينة في العالم تعدّ بمختلف العقائد الدينية، وراح يتعبد وفق طريقة كل فريق، وجعله ذلك يتنقل بين مختلف الفرق والنحل، من اجل يساعده بالاستدلال الى "كنتروله" الضائع. لكن ذلك لم يتحقق. ويلتقي بشخص مصادفة يراه شبيه الصورة المقدسة التي بين يديه، ظننا قدسيته، فيتتبعه حتى الحمام، وهناك يحاول ان محاصرته كي يحصل منه على جواب لسؤاله، ولم يكن ذلك الرجل سوى ممثل في "كومبارس" قد ارتدى تلك الملابس ليقوم بدور له، ولكن "PK" لا يعذره، مثلما أعطى للإله، وقد ارتعب منه الممثل جراء تصرفه، وراح يركض هاربا من امامه حتى يتخلص منه، ولكنهما يدخلان معا الى قاعة فيها كاهن يشرح لاتباعه طبيعة احدى المعجزات. مفادها الحجر المقدس ذو الشعاع الازرق والذي سيحقق للناس ما يتمنون، ولم يكن ذاك الا الكونترول الذي ضاع منه، وكأنما الاله الذي لحقه هو جعله يصل الى تلك النتيجة. ولم يسمح له باستعادتها. لكنه اشتبك مع الكاهن في مناورة حوارية، أدت الى هزيمة الكاهن، حيث قام بالتهرب من الأسئلة المحرجة التي جوبه بها، وان ذلك الكاهن الداعية هو زعيم الطائفة التي تتبعها عائلة "جاكي". حيث كانت تراقبه بعد أن انقذته في مقطع سابق من قبضة محتال آخر، اذ وقع عليه حيف، مع معبد بعد ان وضع في صندوق التبرعات مبلغاً من المال، مقابل ان ترشده الى استعادة "كنتروله"

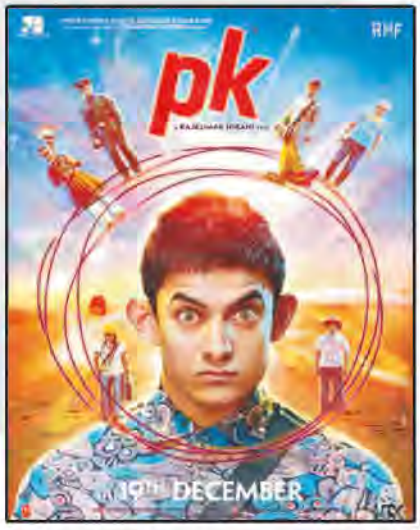

الضائع، ولم تفعل له أي شيء، وعندما حاول استرداد نقوده من تلك الحاوية التي وضع فيها النقود، صاروا يتهمونه بالسرقة من صندوق الالهة، وعزموا على عقابه. ولكن "جاكي" كانت تراقبه من أجل ان تعمل معه لقاء يخص قناتها، التي تنجح في إنقاذه، وتضع محفظة نقودها خفيّة في تلك الحاوية، وتدعي انها سقطت منها وشهدت زورا لصف "PK" الذي كان يحاول مساعدتها في استعادة مالها. ولم تسلم تلك اللقطة من تأشير مباشر بشأن جشع الكهان، اذ سلبوا منها نقودها التي في المحفظة قبل يطلقوا سراحه. وسوف يكون ذلك الكائن الغريب المساعد ل"جاكي" في تجاوز محنتها العاطفية القاسية، وإعادة تشكيل وتصحيح مسيرة حياتها بعد ان فقدت حبيبها الباكستاني الجنسية، حبيب حياتها، اثناء سنوات دراستها في "بلجيكا"، ومن المفترض ان تتزوجه، رغم ممانعة الأهل لاختلاف دينه ودين اهلها، وان ذلك الحلم لم يكتمل لسوء الفهم في تراتبية الأقدار السياسية، والتفرقة العنصرية بين الشعبين. بعد فشل قصة حبها تعود من "بلجيكا" الى بلدها مكسورة مقهورة، ممهورة

بجرح كبير تسببهُ رسالة خاطئة تتلقاها يوم عقد قرانها، يخبرها بعدم المجيء وان علاقتهما قطعها الاختلاف في الانتماء الديني ما بين "مسلم ومسيحية"، قد وصلت من حبيبها ويطلب منها عدم الاتصال به. وعلى الرغم من تشابه هذه التفصيلية مع بقية الأفلام الهندية، الا ان هذا الفلم احتوى بقية تفاصيل ولم يحوّها الى أي فلم امريكي تعرضه "هوليود"، خاصة التي تركز على موضوعة اختلاف الأديان، ولكن الفتاة الجميلة تستطيع ان تستوعب الصدمة، وتعمل إعلامية تتابع قضايا عبر برنامج يؤهلها ان تناقش فيه الامور التي ليست بعيدة عن مسيرة حياتها السابقة، حول اختلاف الاديان الذي كانت تظنه السبب الاساس في نكستها، حتى تلتقي مصادفة ذلك الرجل "pk" الذي بقيّ اسمه مع تصرفاته غريبا في كل شيء. فقد كان سيناريو الفيلم دقيقا للغالية، ونفذ باحتراف على كل المستويات حيث كانت تلك الشخصية الفضائية منشغلة بذلك الاكتشاف والمقارنة بين ما يدعي الانسان، وما يخفيه من تناقضات عديدة في كل ما حوله، وكأنه يسخر من ذلك كله. يحدث ذلك منذ اول نزوله الأرض، وهو القادم من المجرات الأخرى ليكتشف محتويات الأرض، ويتعرف أيضا الى طبيعة الكائن الأكثر شبها به من جميع الكائنات. وطبيعة توافقه بعدم تمكنه من الكذب الذي يتقنه البشر.

ويبرهن فليم "PK" ان الصدق هو اقصر الطرق واسرعها عندما ينتصر على "الكاهن" في رهان مقابل حصوله على "كنتروله المسلوب" في مواجهة تلفازية، يثبت كذب البشر عندما يدعي ان يكشف المستقبل، ولا حتى استشراف الماضي، ولا يمكن الانسان ان "يتصل" بالماضي، ويعيد النظر بمسارات الرؤية في مجريات العديد من الاحداث الحياة البشرية، والادعاء في اثبات ذلك عبر محاولة "اتصال بالرقم الخاطئ كما سماها"، لأن معرفته قاصرة، فالسمع وحده من "جاكي" عما جرى لها في الماضي، ليس هو الحقيقة الكاملة، وانما هناك عقبات أخرى لم تكن تعلم بها. لذلك فشل الكاهن عندما جعل من قصتها التي ظن بنفسه انه يعرفها جيدا. أراد ان يستخدم قصتها كنموذج يثبت به كقارئ للأفكار وعارف بالخفايا. ولكن "PK" لديه استشراف حقيقي، وان القصة التي سمعها عن "سرفراز" كانت من طرف "جاكي" فقط، وعلى وفق الخطأ الذي وقعت به، وتصيّر كحاجز بينهما. وكل ما رواه الكاهن بواسطة المَلكة التي يمتلكها كاذب وما هو الا مخادع يعيد عليهم ما سمعه منهم. وبعد التحقق من الطرف الآخر، شريك القصة؛ توضحت الحقيقة، اذ كان على الطرفين ان يواجها بعضيهما ويتجاوزا عزة النفس. وبعد ذلك الاثبات الحقيقي، يعود له "كنتروله" من اجل أن يعود بمركبته الى كوكبه، وهو يحمل معه قصة حبه للفتاة "جاكي" التي اشتركت معه بالصدق. الفيلم طويل نسبيا وكان يتضمن مجموعة من المقطوعات الموسيقية مع اغاني ورقصات مبهجة، وكانت اغلب مشاهد الفيلم تجعل المشاهد يذرف دموعاً مدرارة، ليس كالبكاء الذي يعرفه البشر، ولكن البكاء الذي يعادل التصفيق اعجابا، بالجرأة والمعالجة والتوازن بين اللقطات، والتنقل المُقنع، كما لو بدت القصة حقيقية. والحديث عن براعة الاخراج يشمل أيضا عشرات الافلام الأخرى التي انتجها الممثل ""عامر خان". والمتابع يعرف جيدا مسيرة الافلام الهندية التي تتطور من جيل الى آخر، ولها مسيرة مختلفة عما تقدمه "هوليود" ومدارسها، بعد ان قطعت السينما الهندية العظيمة شوطاً مختلفا في مسيرتها، عبر مدارس لها الكثير من الاعتبار في العالم، بعد ان عرفت بمناهجها الجدية والجديدة. ولها جوائزها الخاصة التي تنافس الجوائز العالمية.

حواشي الفهم
لصيف الكتابة عند محمد خضير

إسماعيل إبراهيم عبد

محمد خضير

إسماعيل إبراهيم عبد

في لحظة بدء الكتابة يستحضر المبدعُ خبرتهُ ورؤاه. ثم قراره في الشروع. وهذه جميعها غير قابلة للتراجع- هكذا تُخبرنا أفعال وأعمال ومؤلفات جميع المبدعين في العالم- و(محمد خضير) واحد من أولئك المبدعين الكبار صانعي لبنة مهمة من لبنات الحضارة السردية- وهو في كتابه (الحديقة في الصيف) يُشرع لنا قانونين للكتابة. أولهما ان الكتابة ان لم تكن تنمو وتتغير بمواسمها فلن نرى لا زهورها ولا ثمارها. والقانون الثاني ان الكتابة ان لم تكن مشحونة بحرارة الحياة والضوء ولا تتطفئ فلا تعدُ من حضارة السرد- وفوق ومع هذا فالكاتب السارد يدخلنا في عمق تجربته الشخصية متبصراً مستفهماً مستذكراً موضحاً للحيثيات والرؤى الصانعة للكتابة عنده وعند غيره. وتجربته هي الأولى بأن تصل إلينا كونه وكونها قريبة منّا. وهو الأقدر على الإحاطة بأفضيتها وحوافزها وحفرياتها ومراحل تطورها- ونعدُ هذا الكتاب (الحديقة في الصيف) من أغنى وأقرب التجارب للروح الشبابية التي يتمتع بها الكاتب. وهي من تجارب كتابة السيرة الثقافية الغنية جداً على مستوى الإبداع العربي. وللكتاب (الحديقة في الصيف) ومؤلفه الأصيل محمد خضير فضيلة الثناء على رواده الذين سبقوه. وفضيلة لنا ريادته للذين لحقوه. بعد هذه اللمحة القيمية.. نود قراءة الكتاب على أساس حواشي الفهم الآتية:

أولاً: التبادل المعرفي:

هذا التبـادل يخص التنافذ بـين التجريب وخلاصة التجربـة. وأول ما يلاحـق فهمنا ويحـاصر شـكّنا المعرفي هو السـؤال: هل اكتملت تجربـة الكاتب ليعطي الكاتب خلاصة لها؟ ان الجواب هو: لا ولـن تكتمل التجربـة، لكن محـمد خضير أعطى لنا (أدبية) خاصة خالصة "الشعرية" لكيفية كتابة أدب السيرة الثقافية!. وهو ما يحفز على السؤال الآخر: هل هذا سرد لأسرار الكتابة؟ والجواب: نعم .اننا.. عبر السـؤالين والإجابـتين يمكننا تحـديد طبـيعة التبـادل المعرفي بـين التجريب وخلاصته غير المكتملة. لنلجأ الى مقـطع صغير يوضح "أدبـية وأسرار" كتابة محمد خضير ضمن مؤلفه "الحديقة في الصيف"(1). لو كنا مجدّين في اسـتعمال تقـاليدنا المدفونة، وتحـفيز هويتنا على الحـفر الاركيولوجـي فـي مدننـا المجهولـة، لاتصلنـا بـمجرات العشـق والتأمل في حدائقـنا الماورائية "(2). ان المقطع القصير هذا يعطينا مبرراً للقول: (ان حديقة السرد عندنا تحتاط للمستقبل بـالماضي، وتحـتاط بالتقـاليد المدفونة (التراث) للتغلب على اشـكالية ضياع وتفتت الهوية. ويرى الكاتب ان الجد والاجتهاد هو ما يحدد قيمة الحفر والتقاط لقى الجمال والحضارة، اللواتي سيضعن لنا كوناً هائل السعة من الجمال المتفرد بعشقه وافتتانه بالحياة، الحـياة التي تضج بحـيوية المدن الخالقـة للرؤى الماورائية، التي تستقي خلودها وأزليتها من كشفنا لما يختبـئ وراءها من فضائل العقـل والمعرفة والتحـضر). بـمعنى ان التبـادل المعرفي بـين التجريب وخلاصة التجربة هو استمرار في تبني المشروعات الجمالية التي تحتفظ بلمعانها الفكري الفني المشـع، تتجذر أصولها عابـرة الأزمان كلها لتتصل وتتواصل في التنافذ والتخاطر والتعاشـق الغني المثمر فيما بـينها، الخالق لدينونة قـيامته التاريخية والجغرافية. ونرى ان محـمد خضير يدعو الى (أدبية) تجريب مستمر موشـى بمهابـة الأدب الرافديني البـديع للعصور جميعها. نرى ان تجربته ستسهم باستمرار تجددها بإضافات قيمة تحقق مشروع المصالحة العلمية الفلسفية الأدبية بـين الأصالة والمعاصرة وما بـعد المعاصرة. وكونه مجرباً واعياً مبـتدعاً دون ادعاء لن يتنكر للتجارب العالمية والعربـية والرافدينية وللمدى الذي تؤثر وتتأثر الواحدة بـالأخرى، أليسـت كلها حدائق العالم للعصور كلها!.

ثانياً: في فلسفة التجربة:

تجربة الكتابة لدى محمد خضير تجربة تنام للوعي والأدوات والتخيل. فعلى ص19من الكتاب يقول) غالبـاً ما يواجه الكاتب، وأي مُنتج في جنس من الأجناس الأدبـية، موقـفين في حـياته الإبـداعية، موقف الافتتاح وموقف الاختتام.

غير أنه بالنسبـة لكثير من الكتاب فان الموقـف الافتتاحي قد يكون هو الموقف الختامي نفسه"(3). يكمل الكاتب خياراته على وفق الآتي: (بحـث رولان بـارت عن اسم لتجربـته التي تمدد جسـمه (وفكره أيضاً) في التاريخ فوجده فـي Sapientia وهذا الاسـم يعني اشتقاقـياً: "لا سـلطة، ولا نفوذ، وقـليل من المعرفة ، وشـيء من الحكمة ،وأكثر ما يمكن من الالتذاذ"، حيث تؤول الكتابـة برمتها الى تأمل ابيقـوري للجسـد في الزمن والمكان التاريخيين. أو حيث يتحـلل الجسـد، او امتداداته، علاماتياً، في النص الذي انتجه (4). ما الذي يريد محمد خضير ان نستقيه من هاتين الفكرتين؟ أعتقد انه يهدف من الفكرة الأولى القول: (ان المقـدمات مرتبطة بـالنهايات، التي تديم أحـداهما الأخرى). (وان للكتابـة موقفين متراصين في النص الواحـد هما حتمية البداية وحتمية النهاية وربـما حـتمية حدوثهما معاً بلحظة واحدة مثل عسر الولادة التي تبقـي الوليد وتهلك الأم). وهدف الفكرة الثانية هي الشـطر التنفيذي من الكتابـة، إذ الكتابـة التي يهتدي بـها محمد خضير نوع من الذوبـان بـالأثر، فيحـل جسد الكتابة محل جسد الكاتب وبـالعكس، ثم يُدفع بأي تجربة لـ (أدبية) حقة لتتصير جسماً وفكراً في مدونة الأحـداث الإنسـانية التي تتمتع بشـرطين، (ميزتين) الحـرية والمتعة. اننا نرى بـان الكاتب يعدنا بتجربة طازجة ناضجة لها أجنحة من آثار لذة (جامع النص) و(ابيقورية) بـارت، فضلاً عن ثراء التجربـة النصية التي جعلت من الكاتب ذاته نصاً لنصه يطير به بلحظة واحدة من البداية الى النهاية وبالعكس، ويصير باصرة لجسد وعلامات الكاتب والكتابـة. ان هذه الرؤية رؤية فلسـفية أكثر منها اجرائية. ربـما هي استقراء لمستقبل كتابـة ما بـعد المعاصرة.

ثالثاً: قلق المحتوى:

لعل فلسفة البداية هي النهاية الطائرة بين الفكرة ونفاد وقتها التي تسبب قلق في المحتوى ثم عدم اكتمال أي قصة، وان المعطيات المتصلة والمحفزة عليها لن تتقيد بعشرية محمد الساكنة أرواح (الموقد، النَّهر، العَجلة، المِحبرة، المجرشة، المرآة، الصندوق، السلم، النول، الخف) = الحديقة. هذا القلق توصل الى ان للكتابة ثلاثة أجنة ملحقة بتلك السلسلة هي: (الجدار، الجسر، الفجوة)، وجميع مناول الفعل القصصي لدى محمد لن تتقيد بنموذج (ما)، انما تسمح للمعرفة السردية بأن تسيل نحو النص العابر للأجناس، مع لزوميات مساندة، يدخلها ولا يخرج ألّا إليها، وقد بين ذلك بوضوح أدبي فلسفي بمخطط قصتيه (الشفيع والأسماك)، ولو انني أرى قصة (البرج والمئذنة) أكثر تمثيلاً للحال هذه. أرى أيضاً ان رائد القص العربي لهذه المرحلة، (محمد خضير)، قد عبر ما بعد المعاصرة نحو هجين المعرفة بجمعه بين رؤيته للمكان ورؤيته للمتخيل من الزمان في بصرياثا وباصورا ،فقد جلب الجمالي للسوسيولوجيا الفنية ،وأرّخ المكان بأركيولوجيا (حضارة الناس في العمل) ،وليس الحجارة وما تحتها من مأثورات.. لقد جُعلتْ كتبه رسائل متخطية زمانها ومكانها، تتيح للتعلم والابتكار والجري بين المسننات الحادة بمجازفات مستمرة مستعرة بحديقة الصيف المثمرة بجنتها وجحيمها. الحديقة تتغير بفصول نمائها وتتغير كتابة محمد خضير لتبتكر قلقاً فنياً منتجاً سماه عشبة التاريخ التي هيأت الفجوة الكبيرة بين عشبة كلكامش وعشبة باصورا محمد! إذن قلق المحتوى لم يكن سوى طواف حول قص الحقيقة، وقص الاعتراف، والقص المئوي، وثلاثتهم من بين طبق يرشدنا إليه هو طبق السرد العابر للتجنيس. الذي هو أكبر مغامرات قلق المحتوى التجريبي لتجربة محمد خضير متجددة الابتكار والتجريب المستمر.

رابعاً: محايثة الكتابة والمحو:

ثمة خلاصة غريبة للمقال الفني لدى محمد خضير لننظر الى الآتي: "لابد ان يبصر الكاتب حدود كتابته، ويؤلف عاجلاً كتابه الأخير الذي ينقله الى العالم الخالي من الحروف. ان الكاتب لا يؤلف إلّا عدداً محدوداً من الكتب. التوقف عن الكتابة هاجس غير محدد بعمر أو حالة نفسية؛ ذلك ان التخلي عن استعمال الحروف يمثل نهاية التفكير بالعبارات والكتب، التوقف عن انتاج العلامات والأشكال والصور الظاهرة، والتماهي في عالم النشأة الأخيرة الخالي من الاشارات والتنبيهات"(5). ان من يتمعن بهذا المقطع سيفهم ان الكاتب الذي يفقد خصلة القدرة على الكتابة يموت، وكأن المؤلف يدعو للتخلي عن الموت في الكتابة، او التخلي عن آلة التدوين المكونة من الحروف ثم الكلمات ثم الجمل ثم العلامات التي تؤلف اشارات تجتمع لتكون اللغة الصوتية والكتابية. كأن الكاتب اخترع لغة بلا تقنية سابقة لها، فماذا يسميها إذاً؟!، وما جدوى وجودها؟! نعتقد ان هذا القول تجربة فلسفية تحاول التصريح بـ :(ان اللغة ليست هي من يموت وليس الكاتب من يموت. ومحمد خضير انما يدعو لموت ما كانت عليه ولادة الكاتب السابقة. بمعنى ان الكاتب الحقيقي من يجدد ولادته بموت معنوي لخطواته السابقة. وفي هذا فرق كبير بين موت المؤلف عند (بارت)، وموت خطوات سابقة عند (محمد خضير). ونتساءل هل ثمة توضيح عملي للمحايثة بين محو الكتابة السابقة وولادة الكتابة اللاحقة؟ لننظر في: "يصبح اختيار الصفة الدالة على عملي الادبي يسيراً ومقبولاً.. اذا اخترت كتابة القصة القصيرة مرة، والمقالة مرة، وسيرة المكان ثالثة، فذلك لأني أبحث عن "التخليقية" البسيطة، بآليات انتظام ذاتية عبر انعكاسها في المكان "الآخر" والزمن الممتد في جسد التاريخ، او جسد النص. وما أكتبه بصيغ نوعية موزعة على أجناس مختلفة، يعكس دورة التقاليد الكبرى وتوحيدها في نوع جوهري بسيط؛ هو على حد ظني السرد القصصي القصير"(6).

في القول اعلاه، بدلاً من ان نعرف نوع وعلاقة التجنيس والتخليق النوعي ندخل بفهم أعلى جديد. الفهم المقصود أوضح بأن الولادة الجديدة له تكون بثلاث رؤى، هي رؤى في التجديد الكلي بموت المرحلة السابقة، رؤى اختصار الأنواع السردية بجوهر مبسط يحقق لذة القراءة وتواصل الوعي، وثالثة هي رؤى في اختيار الفن الخالد الذي قرره سابقاً بانه النص اللامجنس ،لكنه في الرؤية الثالثة يجنسه بالقصة القصيرة!. ونخمن بأنه يدعو الى

القصة القريبة من رواية (النوفيلا)، التي ربما هي الجنين الملاصق لجميع الفنون السردية.

خامساً: شأن في قص تشرين:

لن أشـــــرح ولن أوضح هذا المدخل كون الكاتب محمد خضير قد أوضح جلياً نفسه، ووصف آليته بقـــــوله الآتي: "من...الزاوية التاريخية، زاوية تشرين 2019 - 2020 اختبرت المواقف الثورية لشـخصيات "المحـجر" وأتيح لها اسـتعادة نماذج مندثرة في صفحـات التاريخ العدمي...مارسـت شـخصيات "المحـجر" ادوار الثورة باعتبـارها تمارين تطهيرية. ولا أحسـب هذه الزاوية، زاوية تشـــرين ســـتمتلئ كلياً بـــذلك الخيال الريادي القصير"(7).

الهوامش

(1) محمد خضير، كتاب الحديقة في الصيف، دار أهوار، بغداد، 2022
(2) محمد خضير، المصدر السابق نفسه، ص8
(3) محمد خضير، المصدر السابق نفسه، ص 19
(4) محمد خضير، مصدر سابق، ص19
(5) محمد خضير، مصدر سابق، ص41
(6) محمد خضير، مصدر سابق، ص24
(7) محمد خضير، مصدر سابق، ص71، ص72

مطبوعات وصلتنا:

* **عقيل حبش - نشيد الحرية: سيرة ذاتية. شركة دار الرواد المزدهرة. بغداد2022.**
* **موفق محمد. بين مقتلين / منشورات اتحاد الادباء. بغداد 2021**
* **سالم بخشي المندلاوي. السمفونية المكورة - منشورات اتحاد الادباء. بغداد 2021 .**
* **سالم محسن - ومضات (شعر) البصرة 2020**
* **سالم محسن. رمال ناعمة (قصص قصيرة) البصرة 2020 .**